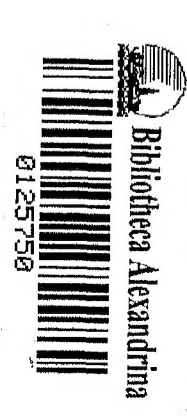
# الحضارة العربية الإسلامية

حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب والاجتماع
والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والفنون

تأليف
دكتور علي حسني الخربوطلي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة





# الحضارة العربية الإسلامية

حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب والاجتماع
والاقتصاد والتربية والتعليم والثقافة والفنون

تأليف
دكتور علي حسني الخربوطلي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف وطبع هذا الكتاب بمكتبه ومطبعة الخانجى
ص . ب : ١٣٧٥
القاهرة

الطبعة الأولى
١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م
الطبعة الثانية
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

رقم الإيداع
٧٥ / ٤٥٧٢

# مقدمة

أخى القارىء العربى الكريم :

أبدأ مقدمتى بحمد الله تعالى وشكره ، وبالصلاة والسلام على الرسول الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . ثم أقدم لك – أيها الأخ الكريم – تحياتى العاطرة ، وأهدى إليك الطبعة الثانية من كتابى ( الحضارة العربية الإسلامية ) .

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٦٠ ، ونفدت هذه الطبعة بعد شهور قليلة ، بفضل إقبال القراء العرب على اقتنائه والاطلاع عليه ، وهو إقبال أعتز به وأحمد الله عز وجل عليه .

ومضيت فى طريقى المرسوم ، وهو تكريس جهودى العلمية لخدمة التاريخ الإسلامى ، فنشرت – بتوفيق من المولى سبحانه وتعالى – العديد من المؤلفات الإسلامية . وكنت دائما أفضل نشر الجديد من مؤلفاتى ، ولم أهتم كثيرا بإعادة طبع كتبى التى نفدت من الأسواق .

ثم حدث أن اتصلت بى مكتبة الخانجى للطبع والنشر ، وعرضت على أن تقوم بطبع كتابى ( الحضارة العربية الإسلامية ) طبعة ثانية ، تحقيقا لرغبة كثير من القراء . ورغم تعاملى مع كثير من دور النشر فى القاهرة وبيروت وبومباى ، إلا أن الظروف لم تسعدنى بالتعاون مع مكتبة الخانجى العريقة ، التى كنت دائما أرنو من بعيد إلى جهودها فى سبيل نهضة الثقافة العربية الإسلامية بعين الإعجاب والتقدير . ولذا رحبت كثيرا بتحقيق رغبتها .

وهذا الكتاب يدرس ( الحضارة العربية الإسلامية ) فى صدر الإسلام ، أى فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين والأمويين ، وحتى نهاية العصر الأموى سنة ١٣٢ هـ . وهى حضارة عربية عريقة نابعة من الإسلام الرشيد . وقد اعتاد المؤرخون أن يحددوا المفهوم التاريخى للدولة العربية الإسلامية بأنها الدولة التى قامت فى المدينة المنورة بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستمرت حتى سقوط الدولة الأموية ( ١٣٢ هـ ) ، والمؤرخون - أيضا - يصفون الدولة العباسية بأنها ( دولة إسلامية ) وليست ( دولة عربية ) ، نتيجة تأثر هذه الدولة بالمؤثرات الأجنبية ، السياسية والحضارية ، تأثرا عميقا واضحا . ولذا رأيت تحديد الفترة الزمنية لدراستى بعصر الدولة العربية الإسلامية ، وهو عصر عربى زاهر ، اشتهر بحضارة راقية يفتخر بها كل عربى وكل مسلم .

ودراسة ( الحضارة العربية الإسلامية ) تحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، حتى يمكن استيفاء ميادينها الواسعة وجمع أطرافها المتشعبة . ومن المستحيل أن يجمع كتاب واحد كل تفاصيل وصور هذه الحضارة الغنية الزاخرة . ولذا لجأت إلى التركيز ، وإلى العناية بالأصول والأسس الجوهرية ، واهتممت بتقديم صورة شاملة متكاملة . كما عنيت أيضا بتوفير عنصر التشويق وتحقيق جاذبية القراءة ، ولذا تجنبت دائما الإسراف فى ذكر النصوص التاريخية القديمة ، وفى حشد وتكرار أسماء المراجع والمصادر فى الحواشى ، واهتممت بإعطاء عناوين للموضوعات الأصلية والفرعية ، تيسيرا للاطلاع على الكتاب ، وعنيت بالأسلوب والعرض والربط ، مع المحافظة على المنهج العلمى للبحث التاريخى .

ولا يفوتنى - فى هذه المقدمة - الإشادة بالمؤلفات القيمة التى نشرها العلماء والمؤرخين العرب ، والتى تدرس جوانب الحضارة الإسلامية فى مختلف العهود التاريخية ، والتى أبرزت أمجاد العرب والمسلمين عبر العصور .

عزيزى القارىء العربى الكريم :

قبل أن أتركك فى رعاية الله وعنايته ، وقبل أن أدعك تطلع على هذا الكتاب ، أقول لك : إنى لا أدعى الكمال ، فالكمال للخالق العظيم وحده ، وأدعوه عز وجل أن يكون التوفيق قد حالفنى فى تحقيق ما هدفت إليه ، وهو تقديم صور حضارية زاهية ، تكون القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لأبناء هذا الجيل من العرب والمسلمين . إنه سبحانه وتعالى ولى كل توفيق وسداد ورشاد .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

**دكتور على حسنى الخربوطلى**



# الباب الأول

## حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب



# ١ – النظم السياسية

## معنى الخلافة :

الخلافة فى اللغة مصدر « خلف » . يقال « خلفه خلافة ، كان خليفته وبقى بعده . والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء » . فالخلافة موضوعة فى الأصل ليكون الشخص خلفا لأحد ، ومن ثم سمى من يخلف الرسول فى تنفيذ الأحكام الشرعية خليفة ، فقد خلف النبى فى أمته ، فيقال خليفة بإطلاق ، أو خليفة رسول الله . واختلف فى تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ (١) .

وقد نهى أبو بكر المسلمين عن تسميته ( خليفة الله ) واعتبر نفسه خليفة رسول الله ، فالاستخلاف إنما هو فى الحق للغائب لا للحاضر .

عرف ابن خلدون (٢) الخلافة بقوله : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » . ويطلق بعض المسلمين ، وخاصة الشيعة ، على الخليفة لقب « إمام » ، تشبيها بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ، ولذا يسمون الخلافة « الإمامة الكبرى » .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٥ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون وكتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم .

وذهب السلف إلى أن أساس كل حكم فى الإسلام « الخلافة » أو « الإمامة » . وجروا فى تعريف الخلافة على أنها رياسة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وأن منزلة الخليفة من الأمة ، منزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه وله حق القيام على شئون دنياهم أيضا ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه ، فهو الحاكم الزمنى ، وهو الحاكم الروحى [(١)] .

والخلافة تتميز عن سلطة القياصرة والأباطرة والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، أما تلك فتنحصر فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية . وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيرا ومرجعهما إلى مبدأ واحد ، لأن الذى يتأتى له أن يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكما مطلقا ، إما أن يسير بهم على قانون مفروض ، أو على مقتضى ميوله وأغراضه . وأكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الأمة وأكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على أحكامها ، وأما الخلافة فإنها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن الرسول صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الإمامة [(٢)] .

حاول كثير من المستشرقين أن يشبهوا الخلافة بنظام الأمبراطورية الرومانية المقدسة الذى نشأ فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وراح بعضهم يحاول التقريب بين النظامين ، والتأليف بين المذهبين ، ولكن الواقع أن الخلافة شىء ، والامبراطورية المقدسة شىء آخر ، وكان السير توماس أرنولد من

---

(١) انظر كتابنا ( غروب الخلافة الإسلامية ) ص ٣

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٢٧ .

المستشرقين القلائل الذين فطنوا إلى الفرق بين النظامين ، فقال [(١)] : لما صرح البابا أينوسنت الثالث بأن المسيح قد استودع بطرس الرسول شؤون الكنيسة العالمية ، وحكم العالم كله أيضا ، أعلن مذهب الدين العالمى الذى كانت تدعو إليه الكنيسة منذ نشأتها ، ومن هنا نشأت فكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى يكون فيها امبراطورا عالميا ، وحاكما مرشدا لشؤون المؤمنين الدنيوية بسلطات واسعة جدا حتى تعم سلطته العالم كله .

والإسلام كذلك دين عالمى ، يدعو جميع الناس إلى الإيمان بالله ورسوله ، أو يدفعون الجزية كشعوب خاضعة للسيادة الإسلامية التى يشرف عليها سياسيا ودينيا الخليفة .

ومع وجود فكرة أو مبدأ السيطرة العالمية بين المذهبين فإنهما يختلفان فيما بينهما من حيث أن الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن مستحدثة الوجود ، وإنما هى منبثقة عن امبراطورية وثنية سابقة ، كما نجد فيها حاكمين أحدهما ( زمنى ) وهو الامبراطور ، والآخر ( روحى ) وهو البابا ، وأما الخلافة فنظام مستحدث ، ووليد ظروف وأحوال نشأت عند وفاة رسول الله ، والخليفة إلى ذلك حاكم سياسى ودينى ، ولكن وظيفته الدينية لا تتعدى المحافظة على الشؤون الدينية المقررة فى الإسلام ، وليس له سلطات دينية كهذه التى ينعم بها البابا ، من عصمة وغفران للخطايا ، فإن مثل هذه الأمور ليست من شأن الخليفة فى كثير ولا قليل ، وإنما هى شىء يتعلق بين المرء وربه ، والله وحده عند المسلمين يغفر ويصفح ويمحو الذنوب [(٢)] .

ولسنا ننكر أن الخليفة كان ينعم بسلطات سياسية عظيمة ، ولكن سلطاته الدينية كانت ضعيفة جدا — وهذه هى نظرية السنة فى هذا الموضوع .

---

(١) The Caliphate p. 9 — النظم الإسلامية لحسن إبراهيم .

(٢) انظر كتابنا ( غروب الخلافة الإسلامية ) ص ١١ .

– وإن كان الشيعة يذهبون إلى أن ( الإمام ) وهو اللفظ الذى يسمون به الخليفة يجب أن لا يفوض أمره إلى نظر الأمة ، وأن الإمامة ركن من أركان الدين ، لا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، وأن يكون هذا الإمام معصوما عن الكبائر والصغائر .

الخلافة فى الواقع مع صفتها الدينية الضيقة ، لا تنعم بشىء من السلطات الدينية ، وما يعطيه هذا المنصب لصاحبه من سلطات دينية لا يرفعه عن غيره من المسلمين ، لأن هذه السلطات هى سواء عند الجميع ، لا تتعلق به وحده ، فى كثير ولا قليل .

إن السبب فى هذه النظرية الخاطئة التى فشت بين المستشرقين من وجود تشابه بين الخلافة والامبراطورية الرومانية المقدسة تعود إلى أن المستشرقين نظروا إلى الخلافة ، نظرهم إلى البابوية ، وفى ذلك يقول أرنولد : إن العقيدة الإسلامية المتعلقة بالله وصفاته تختلف اختلافا عظيما عن الصفات الإلهية فى الدين المسيحى ، فالاسلام يعتبر صفات الله شيئا خاصا بالله دون غيره من المخلوقات ، لا يشاركه فيها أحد ، ولا يتعلق ببعضها أحد ، وهى إلى ذلك تربط العلاقات بين المسلم وربه ارتباطا يختلف كل الاختلافات عن العلاقات المقررة بين المسيحى والله فى الدين المسيحى ، والسنة فى الإسلام – وهى ما وافق عليه أكثرية المسلمين – تقرر أن أحدا من المسلمين لا يستطيع أن يقول : أنه أقرب إلى الله من غيره ، وكل المسلمين سواء فى طاعة الله والانقياد لأوامره ونواهيه ولا يوجد فى الإسلام انفصال بين الدولة والدين كما يوجد فى المسيحية ، ذلك الانفصال الذى أدى إلى خلافات عنيفة فى الدول المسيحية فى القرون الماضية .

ولكى نفهم نظام الخلافة – كما يقول أرنولد – يجب أن نعلم أن الخليفة موظف سياسى قبل أن يكون موظفا دينيا ، وأن الواجبات الدينية الملقاة على

عاتقه لا تعطيه حقوقا دينية أو روحية تجعله يمتاز بها عن غيره من المسلمين [١] .

## الخلافة عند الأحزاب الإسلامية :

لم يشر القرآن الكريم إلى نظام الحكم الذى يتبعه المسلمون بعد وفاة الرسول ، ولكن الآيات القرآنية تحض على طاعة أولى الأمر : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [٢] . وبعد وفاة الرسول تولى الخلفاء الراشدون الأربعة ، وكانت طريقة توليهم انتخابية شورية . ولكن الخلافة فى العصرين : الأموى ، والعباسى تحولت إلى حكم وراثى مطلق ، تنقصه الديمقراطية والشورى ، وأصبح الانتخاب صوريا تماما .

انقسم المسلمون إلى أحزاب ، بعضها اصطبغ بصبغة سياسية بحتة ، وبعضها الآخر جمع بين المبادىء السياسية والدينية ، وأصبح لكل حزب منها نظرية خاصة فى الخلافة .

١ – المهاجرون والأنصار : توفى الرسول دون أن يرسم طريقا لاختيار خليفة له . وانقسم المسلمون بعد وفاة الرسول إلى فريقين ، فمنهم من رأى ضرورة حصر الخلافة فى قريش ، فهى القبيلة التى ينتسب محمد ﷺ إليها ، كما أنها أعظم القبائل العربية فيدين لها العرب جميعا بالاحترام والتقدير . كما أن المهاجرين هم أول من استجابوا لدعوة الرسول وعاضدوه ، وتحملوا الأذى والاضطهاد ، وهاجروا مع الرسول إلى المدينة ، تاركين ممتلكاتهم ومتاعهم ، واعتمدوا فى تأييد آرائهم على حديث شريف يقول : « الأئمة من قريش » [٣] .

---

(١) انظر كتابى أرنولد ( الخلافة ) و ( الدعوة إلى الإسلام ) وكتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٦ .

ولكن الأنصار رأوا أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، فهم الذين نصروا الرسول والمسلمين فى محنتهم ، ورحبوا بهم فى المدينة ، وشاركوهم أموالهم وأرضهم . وكان لتأييدهم الأثر الأكبر فى انتصار الاسلام .

٢ - الشيعة : يرى حزب الشيعة أن على بن أبى طالب وأولاده من بعده هم أحق المسلمين بالخلافة ، يتولونها بالوراثة ، والشيعة تجعل للخليفة صفات دينية ، فهو مستودع العلم الشرعى ، وهو وحده الذى يفهم القرآن والسنة ، وله حق تفسيرهما ، ولذا لقبوا الخليفة بلقب : « إمام » لأنهم يعتبرونه قدوة لهم ، ووضعوا عليا فى مصاف الآلهة .

كانت غاية حزب الشيعة فى أول نشأته لا تعدو المطالبة بحق على فى الخلافة بعد الرسول ، ولما تولى على اعتبروه الوصى والإمام ، فقالوا : « ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله ، ويجمع القوم بوجوب التعيين والتخصيص ، وبوجوب عصمة الأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر »(١) . ولذا رأوا أن عليا هو الذى عينه رسول الله بعده ، ويوردون لذلك نصوصا كثيرة .

٣ - الخوارج : يرى الخوارج صحة خلافة أبى بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وقالوا بصحة خلافة عثمان فى سنينه الأولى ، كما أقروا بصحة خلافة على ، ولكنهم قالوا إنه أخطأ فى التحكيم ، وحكموا عليه بالكفر ، كما كفروا طلحة والزبير وعائشة والحكمين ، ثم وضعوا أسسا لاختيار الخليفة « فجوزوا أن تكون الإمامة فى غير قريش ، وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما ، ومن خرج

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٤ .

عليه يجب نصب القتال معه ، وأنه إن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله ، أو قتله ، وهم أشد الناس قولا بالقياس . وجوزوا أن لا يكون فى العالم إماما أصلا وإن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبدا أو حرا أو نبطيا أو قرشيا » (١) .

تتجلى النزعة القبلية فى مبادىء الخوارج السياسية ، فقد ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزى (٢) . ونرى فيها معالم السخط على قريش والتذمر من استئثارها بالخلافة ، فتربصوا الفرص لعلى ، ووجدوها بعد قبوله التحكيم ومحوه لقب أمير المؤمنين من صحيفة التحكيم ، فأعلنوا انتزاع الخلافة من قريش ، ورأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الاسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد . بل ذهبوا إلى أن « عبدا حبشيا » لا يقل أهلية للخلافة واستعدادا عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا (٣) . فهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش نظرة تقديس ، فرغبوا فى رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته (٤) . واعتبروا حديث الرسول « الإمامة فى قريش » حديثا موضوعا لا يعتد به ، وكان أول من عارض هذا الحديث سعد بن عبادة بعد وفاة الرسول ، ثم سكتت هذه المعارضة طوال عهود أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، حتى عادت بفضل الخوارج (٥) .

كان الخوارج يدعون إلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، وهذه الفكرة إسلامية عربية دعا إليها القرآن وأقرها عمر بن الخطاب لما جعل الشورى أساسا لاختيار خليفته (٦) . وخالف الخوارج المذهب الشيعى

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٤ .
(٢) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٧٠ .
(٣) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة ١٧٠ .
(٤) Nicholson : A Lit. Hist of the Arabs p. 208
(٥) Cont. to the hist of Ist. Civil., V. II, p. 159
(٦) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٦٣ .

الذى يجعل الخلافة فى بيت الرسول ، والمذهب الذى يدعو إلى أن تكون الخلافة فى قريش ، وأضاف الخوارج إلى مبدأ الاختيار مبادىء أخرى ، فيرون أن الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها . وإذا غير سيرته وحاد عن الحق ، وجب عزله أو قتله . ويرى خودابخش [١] أن هذا المبدأ حمل الثوار على قتل عثمان حين غير وبدل سياسته .

يذهب الخوارج فى الخلافة مذهبا بعيدا ، فإذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الأسس التى وضعوها لاختيار الخليفة ، فلا مانع من الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة [٢] ، لأن الناس يتوازعون ويتكافؤن باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففى ذلك ما يكفى لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الانصاف . ويعيب ابن عبد ربه [٣] على الخوارج هذا الرأى فيقول : « إنما مذهبهم أن لا يكون أمير ، ولابد من أمير برا كان أو فاجرا » .

٤ – المرجئة : ظهر حزب المرجئة بعد ظهور حزبى الشيعة والخوارج واشتداد النزاع والجدال بينهما ، فالخوارج يكفرون عليا وعثمان والحكمين ، والشيعة تكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وكلاهما يكفر الأمويين ، والأمويون يرونهم خارجين عن الطاعة ، وكانت المرجئة ترى أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، وبعضهم مخطىء والبعض على الحق ، ولكن من الصعب تبيان ذلك ولذا يرجئون أمورهم إلى يوم القيامة [٤] . وتتفق المرجئة مع الشيعة الزيدية فى رأيهم فى الإمام فيحتمون أن يكون من قريش ، على أن هناك أمور تختلف فيها هاتان الفرقتان ، فآراء المرجئة التى تدل على التسامح

---

(١) Khuda Bukhsh : Cont. to the hist, of Isl. Civil., V. II, p. 159

(٢) ابن نشوان : الحور العين ص ١٥٠ .

(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٨٨ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٦٦ .

والتساهل تتعارض مع رغبة الشيعة فى قيام دولة ذات حكم إلهى مؤسس على الشريعة الإلهية ومحكومة بآل الرسول [١] . كما أن المرجئة كانوا يعترفون بشرعية حكومة الأمويين ، بينما يعمل الشيعة على مناهضة هذه الحكومة [٢] .

٥ – المعتزلة ( أو القدرية ) : كانت جماعة المعتزلة فى بداية أمرها جماعة دينية لا دخل لها فى السياسة ، على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، إلا أنها مزجت تعاليمها الدينية بمبادىء سياسية ، كان من أبرزها مسألة الخلافة أو الإمامة . وقد مالت فرقة المعتزلة إلى الخوارج للتشابه بين آرائهم فى الخلافة ، فقد نادى المعتزلة بأن اختيار الخليفة مفوض إلى المسلمين . ويرى بعض الكتاب [٣] أن المعتزلة كانوا من ضمن حزب الخوارج ثم انشقوا عليه . يلخص المؤرخ المسعودى [٤] نظرية المعتزلة فى الخلافة بقوله : « يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان . ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك » .

## شروط الخلافة :

الخلافة ضربان : اختيارية وقهرية . والاختيارية هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها ورضاها . ويشترط فيمن يكون مستحقا لها أن يكون جامعا للصفات المطلوبة ، والشروط اللازمة لها أربعة : العلم ، والعدالة ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٤ .
(٢) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة ص ٧٦ .
(٣) الملطى : التنبيه والرد ص ٥٧ .
(٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥ .

والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء ، مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلفوا فى شرط خامس هو النسب القرشى ، وإذا كانت الشروط الأربعة السابقة ضرورية لكل مرشح للخلافة ، فإن الشرط الخامس لم يحز إجماع الناس ليصبح قاعدة مقررة ، خصوصا وليس فى الاسلام تفضيل لعربى على عجمى من المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح فإذا كان الإسلام يمنع المفاضلة بين العربى والعجمى ، فمن المفروض أن يمنعها بين العربى والعربى .

والقهرية هى التى نالها صاحبها بالغلب والقوة ، ويرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها ، حتى لا تكون فتنة عامة وثورة جارفة ، تمزق العالم الإسلامى .

## ألقاب الخليفة :

اتخذ الخليفة ثلاثة ألقاب : ( الخليفة ) و ( أمير المؤمنين ) و ( الإمام ) . أما لقب الخليفة فقد ورد فى القرآن غير مرة ، ولكنه لم يرد بالمعنى الذى صار استعماله فى عهد الدولة الإسلامية ، وأول من استعمل هذا اللقب الخليفة الأول أبو بكر .

وكان يطلق على أبى بكر ( خليفة رسول الله ) ، فلما ولى عمر بن الخطاب كانوا يخاطبونه أول الأمر قائلين : ياخليفة خليفة رسول الله ، وكان هذا اللقب ثقيلا على الآذان ، فدعت الحالة إلى استعمال لقب آخر أسهل وأفضل ، فاستعملوا لقب ( أمير المؤمنين ) ، وكان عمر أول من لقب بذلك ، وقد تردد عمر فى قبول هذا اللقب أول الأمر ، لما فيه من الزهو والخيلاء ، ثم ارتضاه وقبله ، حين لم يجد أفضل منه .

أما كلمة ( إمام ) فقد وردت فى القرآن ، وكانت تعنى أول الأمر ما تعنيه كلمة ( خليفة ) ولم تستعمل عند السنة إلا قليلا ، واستعملها الشيعة أكثر منهم ، فأخذوا يطلقونها على أئمتهم من أولاد على بن أبى طالب وفاطمة

بنت محمد . وتتمثل فى لفظ ( الإمام ) الصفة الدينية من حيث الإمامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين ، ولذا نرى الشيعة يستعملون هذا اللفظ لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوى الذين يرون أحقيتهم قوة إلهية مقدسة ، كما يعتقدون فى المهدى أى الهادى إلى الطريق المستقيم . وقد ورد لفظ إمام فى القرآن بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس . كما فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ [(١)] ، وكان النبى يؤم الناس فى الصلاة باعتباره زعيما للمسلمين ، وكان اختيار الرسول لأبى بكر ليصلى بالمسلمين خلال مرضه من أهم الأسانيد التى اعتمد عليها أبو بكر فى تولى الخلافة [(٢)] .

تحدث ( أرنولد ) عن ألقاب الخليفة فقال : إن الفقهاء حينما أخذوا يبحثون عن سند لاستعمال ألقاب الخليفة لم يوفقوا تماما ، فلم يظفروا بلفظ « إمام » بالمعنى الذى أرادوه . وعلى الرغم من أنهم قد ظفروا بلفظ « خليفة » ، فإن ذلك لم يرد فى القرآن يبنون عليه نظريتهم فى الخلافة ، كما رجع رجال الدين المسيحى إلى الانجيل للاهتداء إلى الأغراض البابوية والامبراطورية ، ومع أن لفظ « خليفة » قد ورد فى القرآن ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نستدل منه على وجود نظام سياسى لحكم المسلمين ..

## علامات وشارات الخلافة :

١ – البردة : هى بردة الرسول التى كان يرتديها إلى أن أعطاها للشاعر كعب بن زهير بن أبى سلمى ، الذى كان قد أعلن توبته وندمه على هجاء الرسول ثم مدح الرسول بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

( بانت سعاد فقلبى اليوم متبول )

---

(١) سورة الأنبياء آية ٧٣ .

(٢) غروب الخلافة الإسلامية ص ٢٤ ، وكتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم .

وتداول أهل كعب البردة إلى أن اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان بأربعين ألف درهم ، وتوارثها الأمويون والعباسيون .

٢ – الخاتم : صنع الرسول خاتما حينما بعث خطابه المشهور إلى كسرى فارس ، وكان الأكاسرة لا يقبلون كتبا بدون أختام ، فصنع الرسول خاتما من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » وانتقل الخاتم إلى أبى بكر ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، ولكن الخاتم سقط من أصبع عثمان فى بئر أريس ، فاصطنع عثمان خاتما مثله . وحرص كل خليفة على اصطناع خاتم ، يختمون به كتبهم بالطين أو المداد أو الشمع . وكان معاوية أول من أنشأ ديوان الخاتم ، فقد زور عمرو بن الزبير فى كتاب لمعاوية لواليه بالعراق زياد بن أبيه يأمره فيه بمنح عمرو مائة ألف درهم فجعل عمر المائة مائتين . فأراد معاوية تلافى مثل هذا الحادث .

٣ – القضيب : هو ثالث علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب . وظل الأمر على ذلك فى الدولة الأموية والدولة العباسية .

٤ – الخطبة : هى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة . وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للرسول والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال . صار الولاة يتولون إمامة الصلاة فى ولايتهم ، فكانوا إذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة فى عهد على بن أبى طالب ، فإنه وقف على منبر الصلاة وقال : « اللهم أنصر عليا على الحق » . ثم أصبح الأمر عرفا ، فصار يدعى للخليفة على منابر البلاد التى تخضع لسلطته .

٥ – السكة : ومن شارات الخلافة نقش اسم الخليفة على السكة ، أى العملة ، بطابع من حديد .

٦ – الطراز : حرص الخلفاء الأمويون ثم العباسيون على رسم أسماءهم أو علامات مميزة على أثوابهم ، وعلى ثياب كبار رجالهم وجنودهم [١] .

* * *

(١) انظر كتابنا ( الإسلام والخلافة ) وكتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم تجد كثيرا من التفاصيل حول موضوع الخلافة .

# ٢ – نظم الإدارة والحكومة

## النظم الإدارية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين :

التزم المسلمون جميعا وكذلك الرسول عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم باعتباره الوحى المنزل من عند الله عز وجل . وكانت سلطة الرسول هى العليا فى تنفيذ ما جاء فى القرآن الكريم من أوامر وأحكام ، وفى حسم المسائل فى يد الحاكم ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام كانت له السيادة الكاملة فى حكمه للجماعة الإسلامية (١) .

ورغم أن سلطة الرسول كانت هى السلطة العليا فقد كان من السنة التى استنها أن يستشير كبار صحابته فى جميع الأمور الهامة . فقد كان محمد عليه السلام فى الجماعة الإسلامية النبى والرسول والمشرع والحاكم والقائد والقاضى الأعلى ورئيس الأداة الادارية كلها ، يقوم بتنظيم العلاقات الاجتماعية ، وصياغة القوانين والأحكام المستمدة من القرآن كما كان يعمل على تنفيذها ، وكان يجمع الجيوش وينظمها ويقودها كما كان يقتنى الأراضى ويقوم على إدارتها .

كانت المدينة عاصمة الدولة العربية الاسلامية التى أنشأها محمد عليه الصلاة والسلام ، وكانت إدارة هذه الدولة وإدارة المناطق المجاورة لها خاضعتين لسلطة النبى مباشرة . أما بلاد العرب فقد قسمت إلى مقاطعات هى : المدينة ، وتيماء ، والجند ، ومقاطعة بنى كنده ، ومكة ، ونجران اليمن ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين . ونصب الرسول على كل مقاطعة من هذه المقاطعات واليا عهد إليه بإقامة الحدود وإنفاذ الأحكام وتوطيد النظام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء .

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٤٤ .

وإلى جانب الولاة عين الرسول عمالا على كل منطقة لجمع الزكاة والصدقات . وكان الرسول هو القاضى الأعلى للدولة ومقره المدينة ، وكان يتولى بنفسه تعيين قضاة الولايات ، أو يأمر الولاة بتعيين من يصلحون لهذا المنصب . وكان معظم القضاة من الفقهاء أو الصالحين مثل على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل .

كان الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين شيئا أقرب إلى الأمور الدينية منه إلى سواها وغيرها ، وهو فى الواقع حكم الفطرة والبساطة دون تعقيد .

انتظمت الحكومة فى عهد الخليفة الأول أبى بكر فى شخص واحد هو الخليفة نفسه ، فكان صاحب التشريع والتنفيذ ، وكان الحاكم والقاضى ، والمنفذ لما يصدره من أوامر ، وما يشرعه من حدود ، مستمدا أحكامه من شرائع الاسلام ومن روحه السمحاء .

ولكن كان أبو بكر يعهد إلى بعض الصحابة ببعض واجباته ، فقد ولى عمر بن الخطاب القضاء فى المدينة ، وعهد إلى أبى عبيدة بن الجراح بأمانة بيت المال . لم يتخذ أبو بكر كاتبا معينا فكان يكتب له زيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب . وكان يكلفهم بالكتابة له حين تدعو الحاجة . وكانوا جميعا يؤدون ما يعهد به إليهم بدون أجر ، ولذا لا نعتبرهم موظفين فى الدولة .

كانت الدولة الإسلامية فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق مؤلفة من الجزيرة العربية نفسها ، لأن الأقطار الجديدة المفتوحة فى العراق ومشارق الشام لم تكن لعهده قد تقررت وانتظمت شؤون الحكم فيها ، وكانت لا تزال تحت الحكم العسكرى للقواد المختلفين الذين كانوا يفصلون فى شؤونها ويشرفون على مصالحها وأمورها .

أما الجزيرة العربية فقد جزأها الخليفة الأول إلى ولايات ، وجعل على كل ولاية أميراً ، وكان الأمير يقيم الصلاة ، ويقضى فى القضايا ويقيم الحدود ، فكان كالخليفة حاكما وقاضيا .

وكان أبو بكر يرتزق أول الأمر من استغلال أرضه ، وعمل يده ، وقد ظل ستة أشهر من خلافته وهو على حاله هذا ، لا ينفق على نفسه من بيت المال شيئا ، حتى اجتمع بعض كبار الصحابة وقرروا له شيئا من بيت المال ، ففرضوا له قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أقلهم شأنا ، وكسوة الشتاء والصيف ، وبلغ ما فرض له حوالى ستة آلاف درهم ، فلما حضرته الوفاة أمر برد ما أخذه من الأموال العامة .

كان يساعد الخليفة مجلس من الكبار المسنين هم أهل الشورى ، وكان يتألف من كبار الصحابة وكانت تعقد جلساته فى مسجد النبى . وفى غالب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان المدينة وزعماء البدو الوافدون إليها . فضلا عن أنه كان فى مقدور كل فرد ممن يحضر المسجد أن يدلى برأيه . وكان شيوخ المجلس من بين المهاجرين والأنصار .

كما يجمع المؤرخون على أن عمر بن الخطاب أول منظم إدارى للدولة العربية الاسلامية الناشئة ، وعمر بإجماع مؤرخى العرب والفرنجة يقف وحده فى الصف الأول بين حكام العالم من عرب وعجم ، والمؤرخون الافرنج يقدرون فيما يقدرونه فيه شخصيته النادرة وبراعته ، وبعد نظره ، وهدوء أعصابه وحسن إدارته ، وقد تمكن بها جميعا من تسيير دفة الفتوحات فى طول الأرض وعرضها وهو فى مكانه بالمدينة .

ويقول المؤرخ ( نولدكه ) [1] فى عمر : أنه كان وهو فى مقره بالمدينة يدير حركات الجيوش العربية الفاتحة ، وكان يعيش حياة بسيطة متواضعة تثير الاعجاب حقا ، بينما كانت الفتوح العربية تدر على بيت المال الغنائم الوفيرة ، والثروات الطائلة ، والأموال العظيمة فلا يأبه لها ، ولا يكاد يرمقها ، وهذه ظاهرة فريدة فى تاريخ العباقرة فى التاريخ ، تدل على أن عمر ابن الخطاب كان فذا بين الرجال الأبطال .

---

(١) Historians, History of the world, Vol.1
انظر أيضا كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم وكتاب الإدارة العربية لحسينى .

ظل النظام الادارى للحكومة الاسلامية فى الجملة على ما كان عليه فى بلاد الفرس والروم ، فقد وجد العرب أن هذه الأمم التى بنوا حضارتهم على أنقاضها ذات تاريخ مجيد عريق فى الحضارة والمدنية والنظم السياسية ، فلم يكن بد إذن من قبول هذا النظام وإبقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم إحداث ما يتطلبه الاصلاح من التغيير الذى يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للمسلمين [١] .

حرص عمر بن الخطاب على تحقيق الديموقراطية ونظام الشورى . وعندما يقتضى الأمر الفصل فى مسائل خطيرة ، كان عمر يدعو إلى اجتماع عام للمسلمين فى مسجد النبى ، وكان كبار الصحابة يشهدون هذه الاجتماعات ، وكان الاجتماع يستغرق أحيانا عدة أيام . ومثال ذلك ، عندما أثيرت مسألة ما إذا كانت أراضى العراق والشام التى فتحها المسلمون تقسم بين الجند أم لا ، استدعى ممثلون عن كل قوم من أقوام العرب المقيمين فى المدينة . وعقد اجتماع آخر هام عشية واقعة نهاوند ، إذ أراد الخليفة عمر أن يقود الجيش العربى بنفسه ، وعارض عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف هذه الفكرة ، وحالت الأغلبية دون ذهاب الخليفة بنفسه . وقد فصلت الشورى فى مسائل كثيرة تتعلق بالدولة ، مثل رواتب الجند ، وإنشاء الوظائف والدواوين المختلفة ، وتعيين العمال وحق الأجانب فى الاتجار فى بلاد المسلمين وجباية الضرائب منهم ، إلى غير ذلك .

كان لتلك المناقشات التى كانت تجرى بين أعضاء هيئة الشورى صفة معترف بها فقد كانت الشورى دعامة أساسية فى أداة الحكم فى الدولة الإسلامية . وقد صرح الخليفة عمر بن الخطاب فى جلاء أنه « لا خلافة بدون شورى » ، ومن ثم غدت الشورى من الوجهتين النظرية والعملية ركنا جوهريا يرتكز عليه نظام الحكم [٢] .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٣٣ .

(٢) حسينى : الإدارة العربية ص ٨٧ .

وإلى جانب الشورى كانت هناك طبقة أخرى من صفوة المهاجرين ، تتألف من على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير ونفر قليل غيرهم ، اعتاد الخليفة أن يستشيرهم فى شئون الادارة اليومية .

بل كان فى مقدور المواطن العادى إذا شاء ، أن يسهم فى إدارة الدولة ، فقد كان عمر حريصا على الديموقراطية فعندما أثيرت مسألة تعيين جباة للضرائب فى الكوفة والبصرة والشام أمر مواطنى تلك الأقاليم بأن يختاروا من بينهم الأشخاص الذين يرونهم أهلا لهذه الثقة . وعين عمر من اختارهم أهالى الأقاليم .

## حكم الولايات فى عهد الخلفاء الراشدين :

لم تكن حكومة الرسول حكومة دينية فحسب ، بل كانت حكومة سياسية أيضا ، فقد كان يقود الجيوش ويفصل فى الخصومات ويجبى الأموال ومن ثم جمع فى يده السلطتين الدينية والسياسية معا . ولما هاجر الرسول إلى المدينة وضع نظام الدولة الاسلامية وكان ينيب عمالا على القبائل وعلى المدن . وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة فى الحجاز واليمن عامل من قبله ، يقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة وجمع الزكاة ، ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية .

ولما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول على أعمالهم ، وقسمت بلاد العرب إلى عدة ولايات هى : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وصنعاء ، وحضرموت ، وخولان ، وزبيد ، وزمع والجند ، ونجران ، وجرش ، والبحرين .

وفى عهد عمر بن الخطاب اتسعت الدولة العربية الاسلامية نتيجة الفتوحات ، فقسم عمر الدولة إلى ثمانى ولايات وهى : مكة ، والمدينة ، والشام ، والجزيرة ( وهى بلاد ما بين النهرين ) ، والبصرة ، والكوفة ،

ومصر ، وفلسطين ، وكانت فلسطين فى عهد البيزنطيين ولاية مقسمة إلى عشر مقاطعات ، غير أن عمر بن الخطاب قسمها إلى مقاطعتين كبيرتين ، حاضرة الأولى أيلة ، وحاضرة الثانية الرملة . وجعل لكل مقاطعة منها حاكمها الخاص . وقسمت مصر إلى مصر العليا ومصر السفلى ، وعرف القسم الأول بالصعيد ، وكان يشتمل على ثمانى وعشرين مقاطعة ، وعين حاكما عليه ابن أبى السرح . أما القسم الثانى فكان يشتمل على خمس عشرة مقاطعة ، كان يحكمها عمرو بن العاص ، الذى كان فى نفس الوقت الوالى على مصر كلها . وأبقى الخليفة عمر على الأقسام الادارية التى كانت قائمة فى عهد الدولة الفارسية ، وكانت تلك المقاطعات القديمة هى فارس وكرمان وخراسان ومكران وسجستان وأذربيجان .

كان كبار الموظفين فى الولاية هم : الوالى ، والعامل ، والقاضى ، وكاتب الديوان وصاحب بيت المال . وكان لكل ولاية مقر دائم للحكومة يسمى بدار الامارة ، كما كان لها أمناء دائمون يسمون بالديوان . وعندما وجه عمر ، عمار بن ياسر ليكون واليا على الكوفة ، بعث معه هيئة مدربة يوثق بها تتألف من عشرة أشخاص ، وكان لكل مقاطعة حاكمها ويسمى بالعامل ، وقاضيها الذى يفصل فى أقضية المقاطعة . على حين يتبع جميع موظفى المقاطعة حاكم الولاية وهو الوالى ، وكان لكل قسم من الأقسام الفرعية للمقاطعة عامله والهيئة التابعة له (١) .

عين عمر بن الخطاب على الولايات عمالا أو ولاة يستمدون سلطتهم من الخليفة الذى كان يجمع فى يده السلطتين التنفيذية والقضائية . وكان أمراء الأقاليم يسمون عمالا ، ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة وقد استعملت كلمة والى فيما بعد ، وهذا يشعر بأن العامل قد أصبح له النفوذ والسلطان كما كان الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٨١ .

عبد الملك بن مروان ، كذلك أطلقت عليه كلمة أمير . وإن تطور هذا اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التى كان يتمتع بها الولاة [١] .

كان فى كل إقليم عامل ( أو وال أو أمير ) يقوم بإمامة الناس فى الصلاة ، والفصل فى النزاع وقيادة الجند وجمع المال وما إلى ذلك . وكان عامل الخراج أهم هؤلاء العمال ، وكان يعمل مع الوالى جنبا إلى جنب ، هذا يدير دفة السياسة وذاك يتولى شئون الدولة المالية . وكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالى مما أدى إلى تنازع السلطة وقيام المنافسة بينهما ، الأمر الذى يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج . وكان عامل الخراج يوليه الخليفة مباشرة ، ولكن الأمير كان يتمتع بالسلطة المطلقة .

اختار عمر الولاة من العرب ، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين . وكان عمر حريصا كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ، ويتحرون أساليبه ونزاهته ، وهذا سبب مراقبته لعماله واستطلاع أخبارهم ، وأخذ المذنب منهم بالقصاص الشديد والعقوبة البليغة . وكان عمر يسأل الرعية إذا وفدت عليه فى موسم الحج ، وفى غير ذلك الموسم ، عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم . وكان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشا عاما يرسله إلى كل بلد شكا أهله من أميرهم ، وكان عمر يثق به ثقة عظيمة ، وكان عمر يحصى أموال عماله قبل توليتهم فإذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادره ، وقد صادر عمر أموال عامله على مصر عمرو ابن العاص ، وأموال عامله على البحرين أبى هريرة ، وقد ذهب كل منهما أنهما نميا ثروتهما من التجارة ، ولكن عمر بن الخطاب كان يرى أن يحصر العامل كده فى خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتثمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٥٣ .

وكان عمر لا يولى عاملا إلا إذا كتب له عهدا وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار ، واشترط عليه ألا يركب برذونا ( حمارا ) ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس [١] .

وضع عثمان بن عفان لولاته خطوطا عريضة للسياسة التى يتبعوها ، فقد كتب إلى عماله يقول : « أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن عدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ، ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » [٢] .

وفى خلافة عثمان كثرت الولايات بتكاثر الفتوح ، وكان والى الشام حينئذ معاوية بن أبى سفيان ، وقد استغل ثقة عثمان فيه وتساهله معه فأخذ يعين الموظفين والعمال المختلفين فى مدن الشام الواقعة ضمن ولايته مثل حمص وقنسرين والأردن وفلسطين ، كما عين القضاة أيضا . وإلى جانب ولاية الشام كانت هناك ولايات : الكوفة ، والبصرة وقرقيسيا ، وأذربيجان ، ونهاوند ، والرى ، وهمذان ، وأصفهان ، وحلوان . وكانت أفريقية تابعة لأمير مصر . وكان شرقى الجزيرة العربية - البحرين وعمان - يتبعان أمير البصرة . ولم يحدث تبديل كبير فى عهد عثمان فى دواوين القضاء ، وقد عين عثمان قاضيا خاصا فى المدينة نيابة عنه بعد أن أصبح عاجزا عن الجلوس للقضاء بين الناس . ولم يكن الخليفة يعين سوى قضاة المدن الكبرى ، أما المدن الصغيرة فكان العامل يقوم مقام القاضى فيها ، كما كان يقوم بالصلاة وغير ذلك .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢١ .

(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٤٤ .

أما على بن أبى طالب فلم يغير كثيرا من النظم الادارية التى كانت سائدة فى عهد عمر وعثمان ، فقد انشغل بالثورات والفتن الداخلية وقتاله ومعاوية ، ولكنه ألغى ما أقطعه عثمان لأسرته فى العراق ، كما عزل بعض عمال عثمان واستبدلهم بسواهم ، وأصلح بعض الأخطاء .

## النظم الادارية فى العصر الأموى :

انقضت دولة الخلفاء الراشدين ( سنة ٤٠ هـ ) وأصحاب المناصب فيها :

١ – الخليفة .
٢ – عماله فى الأمصار .
٣ – كاتب يكتب له الكتب ويتولى أمر الديوان .
٤ – خادم خاص كانوا يسمونه الحاجب .
٥ – خازن يتولى بيت المال .
٦ – قاض يقضى فى الخصومات [١] .

فلما أفضت الخلافة إلى بنى أمية وأصبح الأمر ملكا سياسيا وكثرت مخالطة المسلمين للأعاجم ، تفرعت تلك الادارات وتوسعت ، وأضاف بنو أمية إليها مناصب اقتبسوها من الروم والفس . وقضى عليهم الترف وأبهة الملك أن يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس . فظهر فى عهد بنى أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج .

كان الخليفة فى عصر الراشدين هو الذى يراقب الدواوين بنفسه ، وكان عماله لا يزالون من أهل الزهد والتقوى لا يحتاجون إلى من يراقب أعمالهم ، أو يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة أموال خاصة ، ولا ضياع

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ١ ص ١٢٤ .

تحتاج إلى كتاب أو حساب ، وكان إذا كتب إلى أحد عماله كتابا ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من الدين إلى السياسة ، ومال الخلفاء إلى التقاعد ، وتقليد القياصرة والأكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الأعمال ، فأقاموا من يباشر أمور الدولة عنهم ، وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال فى الأمصار ، وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها ، وهم أصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر فى ضياعهم وأملاكهم ، وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر فى حسابات حاشيتهم وخدامهم ، وهم عمال ديوانه الخاص ، واقتضت حضارتهم أن يضربوا النقود ، ويتخذوا الطراز ، فأنشأوا دار الضرب ، وديوان الطراز ، ودواوين أخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك .

وكان الكاتب فى عهد الخلفاء الراشدين هو الذى يتولى الديوان ، على ما وضعه عمر ، فيدون ما يرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند ، والعمال ، والقضاة ، وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت أعمال الدولة تشعب ذلك الديوان إلى ما يختص بحسابات الخراج والجزية ، وهو ديوان الخراج ، وإلى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم ، وهو ديوان الزمام والنفقة ، وإلى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع ، وديوان المعادن ، وإلى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم ، وهو ديوان الجند ، وتفرع من ديوان الجند ديوان الأساطيل ، وديوان الثغور ، وغيرهما . وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديوانا خاصا هو ديوان الرسائل أو الانشاء [1] .

---

(١) انظر كتابى ( تاريخ الإسلام ) و ( النظم الإسلامية ) للدكتور حسن إبراهيم ، وكتاب ( الإدارة العربية ) لحسينى .

وكان بيت المال مخزنا عاما لكل أموال المسلمين ، فتفرع فى أيام الأمويين إلى عدة فروع ، بعضها لأموال الصدقات ، وبعضها لأموال المظالم ، وبعضها لأموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الأخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم ، والحسبة ، والشرطة ، ونحو ذلك .

قسم الأمويون الدولة العربية الاسلامية إلى خمس ولايات كبرى ، هى :

١ - الحجاز ، واليمن ، وأواسط بلاد العرب .

٢ - مصر بقسميها : السفلى ، والعلوى .

٣ - العراقان : العربى ( بلاد بابل ، وآشور القديمة ) ، والعجمى ( بلاد الفرس نفسها ) ، وعمان ، والبحرين ، وكرمان ، وسجستان ، وكابل ، وخراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند . وبعض أجزاء بلاد البنجاب ، وكانت كل هذه الأقطار تكون ولاية كبيرة يتولى أمرها والى العراق وحاضرته الكوفة ، ويلى خراسان ، وبلاد ما وراء النهر عامل من قبل والى العراق . ومركزه مدينة مروعادة . وكانت بلاد البحرين ، وعمان تحت إشراف عامل البصرة من قبل والى العراق . ويلى بلاد السند والبنجاب عامل آخر من قبل والى العراق .

٤ - بلاد الجزيرة ، وتتبعها أرمينية ، وأذربيجان ، وبعض بلاد آسيا الصغرى .

٥ - تشمل الولاية الخامسة ، وهى أهم الولايات ، كل إفريقية الشمالية ، حتى غربى مصر ، وبلاد الأندلس ، وجزر صقلية ، وسردينية والبليار ، ومركزها القيروان . وقد أناب والى إفريقية ولاة من قبله لحكم طنجة ، وجزر البحر المتوسط ، وبلاد الأندلس [1] .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٩٥ .

## حكم الولايات فى العصر الأموى :

كان العمال فى عهد الخلفاء الراشدين هم قواد الجند الذى فتحوا الولايات ثم حكموها ، وكانت واجباتهم الرئيسية مراقبة سير الأحكام فى البلاد التى فتحوها ، وإقامة الصلاة ، وجباية الخراج ، وظلت أعمال الحكومة فى البلاد المفتوحة فى مصر ، والشام ، والعراق سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح ، إلى أواسط عصر بنى أمية . وبدأت ولايات الأعمال تتحول إلى حكومات محلية منذ أواخر عهد الخلفاء الراشدين ، حتى كانت أيام عبد الملك بن مروان ، الذى أحكم الرقابة الحكومية بتعريبه دواوين الحكومة ، ولذا تعلم الموظفون الأجانب اللغة العربية ليستمروا فى وظائفهم .

اختلفت أنواع الامارات ، وتركزت فى شكلين : إمارة عامة ، وإمارة خاصة ، أما الامارة العامة : فانقسمت بدورها إلى نوعين : إمارة استكفاء ، وإمارة استيلاء . أما **إمارة الاستكفاء** ، أو إمارة التفويض ، فهى التى كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء فيفوض إليه إمارة إقليم ، وتصبح واجباته هى :

١ — تدبير الجيوش ، وترتيب فرقها ، وتقدير أرزاق الجند .

٢ — النظر فى الأحكام ، وتقليد القضاة والحكام .

٣ — جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيهما ، وتفريق ما استحق منهما .

٤ — حماية الدين ، والدفاع عن الحريم .

٥ — إقامة حدود الشرع .

٦ — الإمامة فى الصلوات .

٧ — تيسير الحج ، وإذا كان الاقليم المشار إليه متاخما لعدو ، ترتب على العامل أمر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم فى المقاتلة ، وأخذ خمسها لأهل الخمس .

من عمال الاستكفاء فى العصر الأموى زياد بن أبية والى العراق ، ثم ابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة بن عبد الملك ، وعمر بن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسرى ، ويوسف بن عمر الثقفى ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، وكانت تسمى إمارة كل منهم « إمارة العراقيين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة .

وكان كل أمير من هؤلاء يتصرف فى إمارته تصرف الحاكم المستقل فيعين العمال على البلاد الخاضعة لحكمه ، ويعين سائر الموظفين ، ويجبى الأموال ، فينفق منها على الاصلاحات العامة والجنود ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال العام فى دمشق .

كان عمرو بن العاص والى مصر يمثل إمارة الاستكفاء ، فقد كان مستقلا استقلالا داخليا تاما ، فقد أعطاه معاوية مصر طعمة له ومكافأة منه على مناصرته له فى صراعه مع على بن أبى طالب .

**أما إمارة الاستيلاء** : فهى أن يعقد الخليفة لأمير على إقليم اضطرارا ، بعد أن يستولى الأمر على هذا الأقليم بالقوة ، فكان الخليفة يثبته فى إمارته ، ويفوض إليه تدبير سياسته ، فيكون الأمير باستيلائه ، مستبدا بالسياسة والتدبير ، ويكون الخليفة بإذنه منفذا لأحكام الدين .

**أما الإمارة الخاصة** : أن يكون الأمير فيها مقصورا مع تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البيضة . والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء ، أو الأحكام ، أو لجباية الخراج ، أو الصدقات فى شىء ، حتى الامامة فى الصلاة ، فربما كان القاضى أولى بها منه ، والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده ، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزى ، وهم يؤدون أعطيات الجند ، وغيرها مما يجمعونه [1] .

---

(١) انظر كتابى ( تاريخ الإسلام ) و ( النظم الإسلامية ) للدكتور حسن إبراهيم .

وإذا كان بنو أمية فى أول عهدهم ، وخاصة فى عهد معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، قد أحسنوا اختيار الولاة ، فإن من جاء بعدهم لم يحسنوا الاختيار ، وكانوا كثيرا ما يطلقون يد عمالهم فى أعمال العصف وابتزاز الأموال ، ثم يحاولون حسابهم على ما نالوا من أموال الدولة ، وقد يتطرفون فى محاسبة عمالهم حتى الموت ، بحيث يطلبون منهم أكثر مما عندهم ، أو أكثر مما استثمروه أثناء ولايتهم ، مما كان سببا فى كثير من الاضطرابات الداخلية التى وقعت أواخر الدولة الأموية ، لأن قبيلة العامل كانت تغضب لنكبته وتعذيبه ، وقد تثور أحيانا على الخليفة انتقاما للعامل ، وأخذوا بثأره ، وقد تكرر حدوث ذلك فى أواخر العصر الأموى .

يذكر السيد أمير على [1] عيوب الحكم الأموى فيقول : إن هناك نقصا تطرق إلى النظام الادارى فى عهد بنى أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد ، وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت الولايات تسند إلى بعض أفراد البيت المالك وإلى كبار رجال البلاط . فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولاية نيابة عنهم . وكان من أهم أغراض هؤلاء الاثراء على حساب بيت المال وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرون عليهم من الأموال .

## الديوان فى العصر الأموى :

الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر [2] وأطلق اسم الديوان

---

(١) A Short Hist. of the Saracens, p. 190.
ترجمة رياض رأفت إلى العربية – انظر أيضا كتاب ( تاريخ الإسلام ) للدكتور حسن إبراهيم . وتاريخ التمدن لجورجى زيدان .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١١ .

من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان . يعرف الماوردى [١] الديوان يقول : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

كان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين فى الاسلام حينما كثرت أموال المسلمين . وكان من رأى على بن أبى طالب أن يقسم عمر كل ما اجتمع إليه من مال ، أما عثمان بن عفان فقد رأى إنشاء الديوان وأخيرا تم تدوين الدواوين فى شهر المحرم من سنة ٢٠ هـ [٢] .

فى العصر الأموى ، كانت هناك أربعة دواوين رئيسية هى :

١ – ديوان الخراج .

٢ – ديوان الرسائل وكان لصاحبه الاشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة .

٣ – ديوان الايرادات المنوعة .

٤ – ديوان الخاتم ، وقد أنشأه معاوية ، وكان أكبر دواوين الدولة ، وفيه نواب مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بخاتم صاحب الديوان ، كما هو الحال اليوم فى قلم « الأرشيف » أو السجلات .

وإلى جانب هذه الدواوين الأربعة ، كان هناك فى العصر الأموى مصالح أخرى أقل أهمية ، منها ما هو خاص بصرف نفقات الشرطة ، وما هو خاص بنفقات الجند .

لم يكن النظام الادارى والسياسى للولايات الاسلامية فى عهد الدولة

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٩١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

الأموية من عمل معاوية ، بل إن عبد الملك هو الذى وضع هذا النظام ، فقد صبغ الادارة المالية بالصبغة العربية ، وبتحويله الدواوين إلى العربية تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين من العرب ، وقام الحجاج بن يوسف بتنفيذ سياسة عبد الملك [١] .

ينسب بعض المؤرخين تعريب الدواوين إلى أسباب تافهة . فيعلل البلاذرى [٢] التعريب بموت كاتب الحجاج الفارسى زادان فروخ ، فعهد الحجاج بالكتابة إلى عربى فقام بتعريب الدواوين . أما الجهشيارى [٣] فيعلله باختلاف زادان فروخ الكاتب الفارسى مع صالح بن عبد الرحمن الكاتب العربى وقيام صالح بتعريب الدواوين نكاية فى زميله الفارسى . والحقيقة أن هذا التعريب كان نتيجة سياسة مرسومة ، فقد كانت حسابات الدولة فى يد صغار الموظفين الذين كثيرا ما زوروا وتلاعبوا فيها ، كما أن العرب فى عهد عبد الملك قد انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر بين العرب ومواليهم كتاب مهرة استطاعوا أن يحلوا محل الكتاب الأجانب [٤] وكان الفرس أكثر الموظفين حنقا وغضبا فقد كانوا أكثر الأجانب اعتزازا بقوميتهم ، فيذكر الماوردى [٥] . أن الفرس حاولوا أن يرشوا صالح بن عبد الرحمن ليظهر عجزه عن التعريب ولكنه أبى عليهم ذلك . ولما أمر هشام بن عبد الملك عامله خالد القسرى بتغيير النظام الفارسى القديم الذى يقضى بجباية الخراج

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٠٨ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

(٤) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٨٤ .

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .

فى النيروز ، وهو أول السنة الفارسية ، حاول الفرس أن يرشوا خالد بمائة ألف دينار ليثنى هشاما عن عزمه ولكن هشاما أصر على رأيه [١] .

## كبار الموظفين فى العصر الأموى :

١ - الأمير أو الوالى : كانت واجبات الخليفة إمامة الصلاة اليومية وقيادة جيوش المسلمين ، وجمع الضرائب والصدقات ، وإنفاقها كما ينبغى أن تنفق عليه ، وإدارة العدالة المدنية والجنائية . وفى الولاية آلت هذه الواجبات جميعا إلى الوالى ، إذا خول مطلق السلطات . فكان يؤم بنفسه الصلاة فى المسجد الجامع بحاضرة الولاية ، ويعد الترتيبات لإمامة الصلاة فى سائر أنحاء الولاية . ويقود جيوش الولاية بنفسه أو يعين لها قادة مناسبين . ويعين جميع عمال الولاية ، مثل صاحب الخراج وعامل الصدقات وكتاب الدواوين وغيرهم . وأحيانا كان الخليفة نفسه يعين فى المناصب الهامة للولاية كبار الموظفين . وكان الوالى يقوم بالتعيين عادة ويخبر الخليفة [٢] .

٢ - عامل الصلاة : كان أحيانا يتولى الوالى وظيفة عامل الصلاة ، ولكن كثيرا ما كان الخليفة يعين عاملا يقتصر عمله على الصلاة .

٣ - عامل الخراج : حرص الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم على جعل عمال الخراج مستقلين عن الولاة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إضعاف نفوذ الأمير أو العامل ، فيعينوا جباة للأموال يقومون بجباية إيرادات الولاية وإنفاق المصروفات اللازمة لها ، ثم إرسال الباقى إلى بيت المال فى دمشق [٣] . وكان عامل الخراج من أهم العمال ، وكان يعمل مع

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ص ٣٥١ .

(٢) حسينى : الإدارة العربية ص ٢٠٦ .

(٣) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى للمؤلف ص ٣٨٤ .

الأمير أو العامل ، فى إدارة شئون الولاية ، الأمير للشئون السياسية والادارية ، وعامل الخراج للشئون المالية ، وكان أحيانا بمثابة الرقيب على أعمال الأمير ، وقد أرسل كثير من هؤلاء الموظفين الماليين التقارير السياسية إلى دار الخلافة فى دمشق يشكون فيها الأمير وينتقدون سياسته ، وكانت السلطات فى دمشق تسمع لهم ، وتأخذ برأيهم ، وهذا ما أدى إلى تنازع السلطة والمنافسة بين الأمير وعامل الخراج ، وهو ما يعلل قصر عهد الولاة وعمال الخراج فى عهد بنى أمية .

٤ – عامل الصدقة : كان عثمان بن عفان أول من عين عاملا للصدقات [١] . وكان الخلفاء الأمويون يعينون عمالا للصدقات غير عمال الخراج ، إذ أن مال الصدقة لا ينبغى أن يدخل فى مال الخراج ، فإن مال الخراج فىء لجميع المسلمين بينما الصدقات لمن سماهم الله فى كتابه العزيز وهم : الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ومن فى الرقاب والغارمين [٢] .

٥ – الكاتب : من أكبر أعوان الخليفة « الكاتب » فكان عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة ابن شعبة يكتبون القرآن والكتب التى كان النبى يرسلها إلى الملوك والأمراء . ولما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له ثم اتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، واتخذ عثمان مروان بن الحكم .

ولما قامت الدولة الأموية تعدد الكتاب بتعدد مصالح الدولة ، فأصبحوا خمسة : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء الكتبة كاتب الرسائل ، ولذا كان

---

(١) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ .

الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم لخطورته وأهميته . ومن أبرز الكتاب فى العصر الأموى زياد بن أبية كاتب أبى موسى الأشعرى وسالم كاتب هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد .

٦ – الحاجب : أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء معاوية بعد أن حاول الخوارج اغتياله ، كما أراد أن يتلافى ازدحام الناس على أبوابه مما يشغله عن تصريف شئون الدولة . والحاجب موظف كبير يشبه منصب كبير الأمناء أو رئيس التشريفات . ومن واجباته إدخال الناس على الخليفة حسب مركزهم الاجتماعى وأهمية عمله . ولكن الخلفاء كانوا يبيحون الدخول لثلاثة فى أى وقت شاءوا دون استئذان أو تأخير ، وهم صاحب البريد لخطورة ما يحمله من رسائل ، وصاحب الطعام مخافة فساده ، والداعى للصلاة فإنه داعى الله .

### البريد فى الدولة العربية الاسلامية :

يرى البعض أن لفظ ( بريد ) لفظ عربى ، بينما يرى البعض الآخر أنه لفظ فارسى معرب وأصله بالفارسية ( بريدوم ) أى مقصوص الذنب ، فقد كان الفرس الذى يستعمل فى نقل البريد مقصوص الذنب تمييزا له عن غيره .

عرف العرب نظام البريد فى الدولة العربية الاسلامية فى عهد الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان ، وصار تنظيمه فى عهد عبد الملك بن مروان ، وكانت الغاية من استعمال البريد فى الدولة العربية الاسراع فى إيصال الأخبار أو الرسائل من الخليفة إلى عماله وبالعكس .

والبريد كان عبارة عن وضع خيل مضمرات فى عدة أماكن من الطرق الرئيسية بين العاصمة والولايات الأخرى . فإذا وصل حامل بريد الخليفة ورسائله إلى عماله إلى مكان منها ، وقد تعب فرسه ، استبدل به سواه ، وكذلك يفعل فى المحطة الأخرى ، والتى بعدها ، حتى يصل إلى المكان الذى يقصده بسرعة .

ويرجع هذا النظام إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وأخذه معاوية عن الروم فأقره فى الدولة العربية الإسلامية وكان البريد يستعمل أيضا لنقل الجنود فكان ينقل من خمسين إلى مائة جندى ، وفى عهد يوسف بن عمر الوالى الأموى بالعراق كلف البريد أربعة ملايين درهم . وكان يحدث أن ينقل بعض الأشخاص بالبريد ، أو نقل رسائل خاصة ، مقابل مبلغ صغير من المال (١) .

* * *

(١) انظر كتاب ( تاريخ الإسلام ) وكتاب ( النظم الإسلامية ) للدكتور حسن إبراهيم ، وكتاب ( مختصر تاريخ العرب ) للسيد أمير على ، وكتاب ( الإدارة العربية ) لحسينى ، تجد كثيرا من التفاصيل .

## ٣ – القضاء فى الدولة العربية الاسلامية

### القضاء فى العصر الجاهلى :

لم يكن للعرب قبل الاسلام تشريع معروف ، وإنما كان لكل قبيلة عرف وعادات وتقاليد تشترك فيها أحيانا مع سواها أو تختلف معها ، تبعا لبعدها عن البداوة وقربها منها . وكان للقبيلة حاكم يحكم بين المتنازعين منهم حسب تقاليدهم وتجاربهم .

كان العرب تارة يتحاكمون إلى شيخ القبيلة ، وتارة إلى كاهن ، أو إلى من عرف بجودة الرأى وأصالة الحكم ، وهؤلاء الحكام أو القضاة لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا قواعد معروفة ، وإنما كانوا يرجعون إلى عرفهم وتقاليدهم التى كونتها تجاربهم ، وأقرتها عاداتهم ، ولم يكن لهذا القانون الجاهلى المؤسس على العرف والتقليد عقوبات ، ولا المتخاصمون ملزمون بالتحاكم إليه والخضوع لحكمه ، فهم أحرار فى التحاكم إليه أو لا ، وهم أحرار فى قبول الحكم أو رفضه ، ومن رفض الحكم ولم يطعه فلا جزاء عليه أكثر من أن يحل عليه غضب القبيلة أو يطرد منها .

ولم يكن عند البدو قضاء بالمعنى الصحيح ، فإذا قتل أحد البدو شخصا فإن عائلته تأخذ ثأره . وهذه العادة كانت مألوفة عند كثير من الأمم فى العصور التاريخية الأولى . أما إذا أخل بدوى بالواجبات الاجتماعية ، فإن جزاءه يكون طرده من بين أفراد القبيلة ، والبدوى الذى لا قبيلة له يكون فى حالة يرثى لها ، فلا يناصره أحد . وهو عرضة أبدا للأخطار التى يتعرض لها كل فرد فى الصحراء .

أما فى مكة ، فقد كانت الحالة القضائية فيها أكمل وأحسن ، وسبب ذلك أن مكة كانت أكثر البلدان العربية حضارة . وكان أهلها قد وزعوا

الأعمال الادارية فى بلدهم على عشرة رجال كالحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وكان من هذه الأعمال ما يتعلق بالقضاء ، عهدوا به إلى أبى بكر فى الجاهلية .

تحالف العرب فى مكة ( حلف الفضول ) ، فتحالفوا على ألا يظلم بمكة غريب ، ولا حر ولا عبد ، حتى يأخذوا له بحقه ، ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم . فقد كانت مكة بلدا مقدسا ، مقصد الحجاج والتجار من أرجاء الجزيرة العربية ، ولذا رأى المكيون أن يكونوا صفا واحدا على كل ظالم ، وجبهة واحدة مع كل مظلوم حتى ينال حقه .

وكذلك كان التشريع فى المدينة قبل الإسلام راقيا إلى حد كبير لاختلاط العرب فيها بغيرهم ، ولأخذهم بما عند أهل الكتاب من القواعد الاجتماعية المقررة .

فلما جاء الاسلام أقر بعض التقاليد العربية وأنكر البعض الآخر ، وعدل غيرها بحيث تكون موافقة لروحه وتعاليمه .

## القضاء فى الإسلام :

أقام الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة نحو عشر سنين ، وفى المدينة نزل التشريع الاسلامى ، بما نزل به القرآن من آيات وأحكام ، وبما تحدث به الرسول إلى أصحابه من تفسير لهذه الأحكام .

نزل القرآن على الرسول فى نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه ما نزل بمكة ويبلغ نحو ثلثى القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة ويبلغ نحو الثلث ، وإذا تتبعنا الآيات المكية نجد أنها لا تكاد تعرض لشىء من التشريع فى المسائل المدنية والأحوال الشخصية والجنائية ، وأنها تقتصر على بيان أصول الدين والدعوة إليه ، كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق

كالعدل والاحسان ، والوفاء بالوعد ، والأخذ بالعفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر وتجنب مساوىء الأخلاق كالزنا والقتل ووأد البنات والتطفيف فى الكيل والميزان . والنهى عن الكفر ، بل إن ما شرع فى مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذى عرف بعد ذلك فى المدينة .

أما التشريع فى الأمور المدنية من بيع وإجارة ، ونحو ذلك ، والجنائية من قتل وسرقة ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد أن هاجر رسول الله إلى المدينة .

وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيتحاكم فيها المتخاصمون إلى رسول الله ، فتنزل الآية أو الآيات ناطقة بالحكم ، مثل ما روى أن رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا إلى رسول الله فنزلت الآية : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ .

وكان الناس فى المدينة يسيرون فيما لم يرد فيه حكم إسلامى على المألوف عندهم فى الجاهلية حتى يبدله الاسلام أو يقره . ويمكن القول أن آيات الأحكام فى المدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين فيها ، وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين يفسران لنا العلة فى تشريع النسخ الذى نراه فى الأحكام الاسلامية الأولى ، لأن الاسلام دين يسر لا عسر فلما أراد الله منع الخمر لم يمنعها دفعة واحدة ، وإنما منعها أول الأمر منعا وسطا فأمر المسلمين أن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى ، ثم صدر المنع البات بعد ذلك ، وبعد أن هيأ المسلمين له .

وكذلك نرى فى الأحكام القرآنية وقد تعرضت إلى جميع ما يصدر عن الإنسان من أعمال ، أنها لم تتعرض كثيرا للتفاصيل الجزئية ، وإنما تعرضت غالبا للأمور الكلية ، فهى لا تتعرض فى الصلاة مثلا إلى أوقاتها وشكلها ،

وفى الزكاة إلى مقدار الواجب فيها وأنواع ما يجب ، وهكذا فى بقية الأمور الأخرى ، بل ترك ذلك لرسول الله يبينه بقوله وفعله .

والاسلام إلى ذلك فيه تجديد وإصلاح كثير فى شؤون التشريع ، أدخل على النظام الجاهلى تغييرات وتعديلات يطول شرحها . وهناك نوع آخر من التشريع كان فى عهد رسول الله ، وهو التشريع بالسنة ، أو التشريع المأخوذ عن أحاديث رسول الله وأفعاله ، وهذا التشريع أكثره تفسير للتشريع القرآنى الذى أشرنا إلى أنه عرض للأمور الكلية ، وترك التفاصيل لرسول الله يقررها ويبسطها [١] .

## القضاء فى عصر الرسول :

تولى الرسول القضاء والفصل فى الخصومات ، كما يتبين ذلك من الحلف الذى عقده بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود وغيرهم من المشركين . وقد جاء فى هذا الحلف : « ... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » [٢] .

كان الرسول قاضيا كما كان للشريعة مبلغا ، ولم يكن للمسلمين فى عهده قاض سواه ، إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتها ، ثم لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه . ولم يؤثر عنه أنه عين فى بلد من البلدان رجلا اختص بالقضاء بين المسلمين ، بل كان يعهد بذلك إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية ، وتارة يعهد إلى أحد أصحابه بعض الخصومات [٣] .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٠ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩٤ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٤ .

وكان الرسول يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحى . وكان المتخاصمان يحضران إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما . وكانت طرق الاثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود ، والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها . وكان الرسول يقول : « البينة على من أدعى واليمين على من أنكر » . والبينة فى الشرع : اسم لما يبين الحق ويظهره ، بمعنى أن المدعى ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه ، فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق حكم له . وكان الرسول يقول : « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . وكان الرسول لا يحابى أحدا من المتخاصمين ، فقد قال : « إذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء » .

ولما انتشرت الدعوة الاسلامية أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ، كما أذن للبعض الآخر بالفتيا . وممن اشتهر بالفتيا من الصحابة فى عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلا وامرأة ، نبغ منهم سبعة وهم : عمر بن الخطاب ، على بن أبى طالب ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس .

**القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين :**

كان الرسول أول من تولى القضاء فى الاسلام ، ثم تولاه خلفاؤه ، لأن القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفاء فى صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه إلى من سواهم ، حتى إذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام مناصبهم ، اضطروا إلى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء . وأول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب ، فولى أبا الدرداء معه فى المدينة ، وولى شريحا فى البصرة ، وولى أبا موسى الأشعرى فى الكوفة ، وكتب إليه كتابا هو قاعدة الفقه الاسلامى ، وعليه تدور أكثر أحكام القضاة إلى اليوم . وهذا نصه :

« أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك . ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من أدعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا : أحل حراما أو حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قويم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأمثال والأشياء ، وقس الأمور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقا غائبا وبينة أمدا ينتهى إليه ، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض . إلا مجلودا فى حد . أو مجربا عليه شهادة زور . أو ظنينا فى نسب أو ولاء . فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات . وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم . فإن استقرار الحق فى مواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسن به الذكر والسلام » [(١)] .

يجب أن يكون القاضى طبقا للشريعة الاسلامية ذكرا بالغا ، مكتمل القوى العقلية ومواطنا حرا مسلم العقيدة . غير متهم فى دينه أو مروءته . سليم السمع والبصر . واسع الالمام بالفقه والشريعة . ولم يعين فى مناصب القضاء غير كبار الفقهاء المعروفين بالسداد والاستقامة . وكان عمر بن الخطاب يختبر المرشحين للقضاء فى فطنتهم وحذقهم فى تفهم الأقضية ومقدرتهم على الفصل فيها وذلك قبل تعيينهم . وكان القضاة يمنحون مرتبات سخية حتى لا تدفعهم الحاجة إلى أخذ الرشا . ولم تكن هناك شكوى واحدة طوال عهد الخلفاء الراشدين تدل على أن أحد القضاة قبل أية رشوة أو تصرف تصرفا يدل على التحيز والهوى كما أن الميل إلى التقاضى كان ضئيلا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤

فى ذلك العهد إلى درجة بالغة . وكانت المساجد تتخذ مكانا تنعقد فيه هيئة المحكمة ، ولم تفرض رسوم على المتقاضين لقاء الفصل فى القضايا .

كان القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين مستقلا محترم الجانب . وكان القاضى يحكم فى بعض الأحيان بحسب ما يوحى إليه اجتهاده . بمعنى أنه إذا سئل فى واقعة وقعت بالفعل أخذ من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة الحكم المراد تطبيقه . فإن لم يكن فى الواقعة نص من الكتاب والسند اجتهد برأيه وقاضى الأمور بأشباهها .

لم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام . لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها . وكان القاضى يقوم بتنفيذها بنفسه . كما كان القاضى يجلس للحكم فى منزله أولا . ثم أصبح يجلس فى المسجد ليفصل فى الخصومات . ولم يكن السجن بمعناه المعروف موجودا فى زمن الرسول ولا فى عهد أبى بكر ، وإنما استحدث فى عهد عمر بن الخطاب . إذ كان الحبس لا يتعدى فى عهد الرسول منع المتهم من الاختلاط بغيره . وذلك بوضعه فى بيت أو مسجد . وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له . فلم يكن السجن إذن مكانا يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال فى عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء [1] .

كان القضاء فى مصر موكولا إلى أمرائها . وهم الذين كانوا يولون قضاتها ، وكان عمر بن الخطاب قد أراد أن يولى قاضى مصر . كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة . فكتب إلى عمرو بن العاص أن يولى القضاء كعب بن يسار بن ضنة . وكان ممن قضى فى الجاهلية . فأبى كعب أن يقبل ذلك . وقال : « قضيت فى الجاهلية ولا أعود إليه فى الاسلام » . فولى عثمان بن قيس بن أبى العاص . وما زال أمير مصر هو الذى يولى القضاة

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٥ .

حتى أفضت الخلافة إلى بنى العباس . فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر . فجعلوا تولية القضاة إليهم . وأول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمى . ولاه أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ . ثم صارت تولية قضاة مصر إلى الخلفاء (١) .

كان طلب الفتوى من الفقهاء المشهورين أمرا متبعا منذ الأيام الأولى للإسلام ، فرتب الخليفة عمر هذا النظام . إذ أسند إلى قليل من الفقهاء المشهورين ، من أهل الثقة فقط ، إعطاء الفتاوى عند الطلب دون أجر . وهذا النظام الهام برر للدولة افتراضها معرفة كل مواطن بالشريعة ، لأن كل شخص نال فرصة دون مقابل لمعرفة الدقائق الشرعية التى لم تسبق له معرفتها .

عمد الخلفاء الراشدون إلى الاستشارة فيما يعرض عليهم من خصومات فكان أبو بكر ينظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، فإن لم يكن فى كتاب الله شيء . نظر فى سنة الرسول ، فإن لم يجد شيئا سأل المسلمين : هل قضى رسول الله بشيء من هذا ؟ فإن أعياه ذلك استشار رؤوس الناس وخيارهم ، فإن أجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل مثل ذلك ، وينظر فيما إذا كان أبو بكر قد قضى بشيء مما هو بشأنه الناس وإلا جمع واستشارهم .

**القضاء فى العصر الأموى :**

قامت الخلافة الأموية سنة ٤٠ هـ وانتقلت حاضرة الخلافة إلى دمشق ، وفى العصر الأموى ظهر أثر الامتزاج بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة ، ولكن هذا الامتزاج وما يتبعه من تأثر الفقه الاسلامى بالقانون

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ١ ص ٢٤٥ .

الرومانى لم يكن خطيرا فى حال من الأحوال ، ولكننا لا ننكر أن القانون الرومانى أفاد من ناحية عرض المسائل على الفقهاء ليبدو فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشريعة الاسلامية . ومن المحقق أن مصر والشام كانت تحكمهما محاكم رومانية بالقانون الرومانى ، فلما جاء الإسلام ودخلت مصر والشام فى النظام الجديد ، كان من المفروض أن يعرض المحكومون تقاضيهم القديم ، وآراء محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها ، وما يرفض . ولما كان قضاة الاسلام فى الصدر الأول ينعمون بشىء كثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الاسلام . فليس بغريب أن يستمعوا للمتخاصمين . وأن يعرض هؤلاء عليهم النصوص القانونية القديمة ، وأن يستمع لها القاضى بشىء كثير من رحابة الصدر .

لم يهتم الخلفاء الأمويون بشىء من شئون التشريع إلا ما كان فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذا لم يرق التشريع فى العصر الأموى ، كما كان الحال فى عهد العباسيين ، واقتصر الرقى على المدارس وحلقات الدروس فيها ، ولم يبذل الأمويون محاولة فى صبغ تشريعهم بصبغة رسمية ، فلا نرى فى الدولة الأموية مثل أبى يوسف فى الدولة العباسية يحميه الخلفاء ويشجعونه ، ولكن من الانصاف أن نقول أن القضاء فى العصر الأموى لم يكن متأثرا بالسياسة . إذ كان القضاة مستقلين فى أحكامهم ولا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكانوا مطلقى التصرف وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

وفى العصر الأموى لم تكن المذاهب الأربعة قد تكونت بعد ، وإنما كان هناك أئمة كثيرون مجتهدون كالأوزاعى وغيره ممن اندثرت مذاهبهم . وكان القاضى يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده . فكان يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة أو الاجماع ، أو يجتهد فى الحكم اجتهادا .

فى أواخر العصر الأموى ، ظهر إمامان من الأئمة الأربعة ، الإمام أبو حنيفة فى العراق ، والإمام مالك بن أنس فى المدينة ، والأول ولد سنة

٨٠ هـ فى خلافة عبد الملك بن مروان ، وعاش نحو ١٨ سنة فى ظل الدولة العباسية ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة حجته ، وحسن منطقه ودقته فى الاستنتاج ، أما الامام مالك فقد ولد سنة ٩٦ هـ بالمدينة من أصل عربى ، واشتهر أنه حجة فى الحديث ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، وتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وخلف لنا كتاب ( الموطأ ) وهو كتاب فقه وإن ملىء حديثا ، ولم يكن غرضه فيه أن يجمع الأحاديث المعروفة فى عهده ، أو التى صحت عنده ، وإنما كان غرضه الاتيان بالتشريع مستدلا عليه الحديث ، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه فى بعض المسائل .

لم تكن الأحكام القضائية فى العصر الأموى على منوال واحد ، لأن المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ، ولم تفطن الدولة الأموية إلى ضرورة جمع كلمة المجتهدين على قضاء واحد وأحكام واحدة ، فكان القاضى فى مصر يحكم فى أمر واحد بما يختلف مع قاضى العراق فى الأمر بنفسه .

وكان بعض القضاة أسرع من غيرهم فى المحافظة على حقوق الناس والضعفاء من الشعب ، فقد تولى القضاة مراقبة أموال اليتامى ، وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضى مصر ، من قبل عبد العزيز ابن مروان ، فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة (١) . وقد رأينا أن قاضى مصر فعل ذلك دون أمر الخليفة والأمير ، وإنما أداه اجتهاده إلى ذلك ، وكذلك فعلوا فى مسألة الأحباس ، فإن توبة بن نمر فى خلافة هشام بن عبد الملك أول من وضع يده عليها ، وكانت الأحباس هذه فى أيدى أهلها أو أوصيائهم ، فلما كان توبة قال : ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من الضياع والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانا عظيما ، وكان ذلك سنة ١١٨ هـ ، فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة .

وكان اختيار القضاة يرجع غالبا إلى أمراء الأمصار ، فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس ، وأحيانا كان الخلفاء يولون القضاة . أما قاضى الحاضرة فيختاره الخليفة وليس له امتياز على غيره من القضاة ، ولا رأى له فى اختيار أحد منهم ، ومعنى ذلك أنه لم يكن فى عهد الأمويين قاض للقضاة ، بل كان كل قاض مستقل عن القاضى الآخر فى الولاية الأخرى .

وكانت مرتبات القضاة كافية ومحترمة ، بحيث تكفيهم وتفيض عنهم وتمنعهم عن الرشوة ، فقد كان عبد الرحمن بن بحيرة يتولى القضاء بمصر ، ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه فى السنة من القضاء مائتى دينار ، ومن القصص مثلها ، ومن بيت المال مثلها ، وكان عطاؤه مائتى دينار ، وجائزته مائتى دينار ، أى أنه كان يأخذ ألف دينار فى السنة ، وهو مبلغ كبير فعلا فى هذا الوقت .

**الحسبة :**

كانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام وفى الجنايات أحيانا مما يحتاج الفصل فيها إلى السرعة . ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب [1] .

كان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى العمل .

وضع عمر بن الخطاب نظام الحسبة ، وتولى هو وظيفة المحتسب .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٩ .

ويمكننا أن نلخص واجبات المحتسب فى أنها : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، فكان المحتسب ينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، والاشراف على نظام الأسواق والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور ، ومنع مضايقات الجمهور ، والاشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، ومراقبة تسعيرة المواد الضرورية ومراقبة المبانى المتداعية ومنع الحمالين والملاحين من الاسراف فى الحمل ، ومنع المعلمين من ضرب تلاميذهم ضربا مبرحا ، « وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينية ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها ، وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء »[1] .

فكأن المحتسب كان يقوم ببعض مهام شرطة الآداب ، وموظفى البلدية ، ومفتشى التموين ، وشيوخ الحارة ، وغيرهم من موظفى الحكومات الحديثة .

## قضاء المظالم :

كان قاضى المظالم ينعم بسلطة قضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ، تعرض عليه القضايا التى يعجز فيها القاضى عن تنفيذ حكمه فى رجل من الأعيان أو الأشراف . وقد دعت الحاجة إلى إنشاء هذه المحكمة لوقف تعدى ذوى الجاه والحسب ولهذا كان يسند الأمر فى المظالم إلى رجل عظيم القدر كثير الورع ، ويمكننا أن نشبه هذا النوع من القضاء بمحاكم النقض أو الاستئناف فى تاريخنا الحديث .

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

كان العرب فى العصر الجاهلى يهتمون بقضاء المظالم ، فقد تحالفوا على رد المظالم ، كما فعلت قريش قبل الإسلام . وذلك أنهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التنافس واشتد الصراع ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفا على رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذى عقد فى مكة .

لم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الناس كانوا فى صدر الاسلام ، أقرب إلى عهد النبوة بما فيه من ورع وتقوى ، وأبعد عن المظالم . ثم احتاج الأمر إلى أن يجلس الامام للمظالم ، ولكنه لم يفرد يوما خاصا للنظر فيها ، وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه ، ثم صار تخصيص يوم معين للنظر فى المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، لكنه كان إذا وقف منها على مشكل احتاج فيه إلى حكم رده إلى قاضيه ابن ادريس الأزدى ، فكان ابن إدريس المباشر ، وعبد الملك الآمر وكأنه تنعقد محكمة المظالم تحت رئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عنهما .

وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون ، إذا كان من الموظفين لينصرف بقية أيام الأسبوع إلى عمله الآخر ، وأما إذا كان خاصا بالمظالم ، فإنه كان ينظر فى المظالم كل أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى أحد المساجد كغيرها من المحاكم التى يعقدها القضاة ، وكان صاحب المظالم يحاط بخمس جماعات مختلفة لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم :

١ - الحماة والأعوان : وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلب على كل من يلجأ إلى القوة والعنف . أو الفرار من وجه القضاء .

٢ - القضاة والحكام : ومهمتهم الاشارة على قاضى المظالم بأقوم الطرق لرد الحقوق إلى أصحابها وإعلامه بما يجرى بين الخصوم لمعرفتهم بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين .

٣ - الفقهاء : وإليهم يرجع قاضى المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ – الكتاب : ويقومون بتدوين ما يجرى بين الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ – الشهود : ومهمتهم الشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل [١] .

وكان من اختصاص قاضى المظالم النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا حادوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة ، والنظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد دفعها إليهم . وكان يستعان بشخصية صاحب المظالم ونفوذه وهيبته فى التأثير على الخصم حتى يعترف بالحق ، فإذا اعترف حكم عليه باعترافه . وتنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام ، ومراعاة إقامة العبادات كالجمع والأعياد والحج والجهاد .

**الشرطة :**

الشرطة هى الجند الذى يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال الادارية التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد سموا بذلك لأنهم أشرطوا لأنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها .

كان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل . وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة ، وهو أشبه

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٩٢ .

بالمحافظ فى هذا العصر ، لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن [١] .

كانت الشرطة فى أول الأمر تتبع القضاء ، فكان من مهامها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، فكانت الشرطة خادمة القضاء تساعد القاضى فى إثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضا إقامة الحدود ، كما يتولى كثيرا من الأمور الشرعية التى يجلون مقام القاضى عنها . ولكن الشرطة لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، وأصبح لصاحب الشرطة الاستقلال بالنظر فى الجرائم التى تعرض عليه . وقد أدخل هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ١٢٥ هـ ) نظام الأحداث ، وكان صاحبه يشرف على الأعمال العسكرية التى تعتبر وسطا بين أعمال صاحب الشرطة والقائد .

أما فى مصر ، فكان مقر الشرطة فى الفسطاط ، حتى أنشئت مدينة العسكر عام ١٣٢ هـ ، ثم أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى ، ويرجع سبب هذه التسمية إلى أن الفسطاط كانت فى جنوب المعسكر فسميت شرطتها الشرطة السفلى [٢] .

* * *

---

(١) حسن ابراهيم - تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٦٠ .

(٢) انظر كتاب ( مصر فى العصور الوسطى ) للدكتور على إبراهيم وكتاب ( مصر فى فجر الإسلام ) للدكتورة سيدة كاشف . تجد كثيرا من التفاصيل عن الشرطة فى مصر

## ٤ – النظم الحربية

### النظم الحربية قبل الإسلام :

كان كل عربى فى العصر الجاهلى يعد لأن يكون جنديا ، إذ لا يجد الرجل غير المحارب مكانا له فى مجتمع قبلى لا تهدأ فيه ثائرة الحروب التى تنشب بين قبائله ، ومن ثم كان لكثرة ما يولد للرجل من الأبناء أثر فى ازدياد قوته ونفوذه ، وكلما زاد رجال القبيلة غدت قوية البأس . وكان الفتية العرب يدربون تدريبا دقيقا فى المبارزة بالسيف والرماية بالنبال والرماح ، على حين كان الموسرون من العرب ينشئون أبناءهم على الفروسية تنشئة خاصة ، ذلك أن بلاد العرب قبل ظهور الاسلام كان لا يوجد بها غير عدد قليل من الخيل لأنه كان لا يقدر على اقتنائها غير الأغنياء وحدهم .

وكان العرب يعدون الحرب مهنة تدل على السؤدد والرفعة ، لأن الغزوة الناجحة كانت تهيىء لهم مغانم وفيرة من الأموال وما يسبونه فيها من النساء والأطفال . ولما كان البدو يسكنون الخيام ، فان ثروتهم كلها كانت من الأشياء المنقولة ، وكانوا إذا ما خرجوا للغزو ، يحملون معهم جميع مقتنياتهم ومعها نساؤهم وأولادهم فإذا ما خسروا المعركة خسروا معها كل شيء [١] .

استخدم العرب فى العصر الجاهلى عدة أنواع من الأسلحة : السيوف والسهام والرماح والأقواس ، وكانوا يلبسون الدروع . وكان معظم المحاربين من المشاة ، إلى جانب الفرسان ، وكان الأطباء يصحبون الجيوش ، إلى جانب الموسيقى الحماسية والأناشيد ، وكان الجيش يقسم عادة إلى خمسة أقسام .

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٣٣ .

وكان لوجود النساء فى الجيش أثره الأكبر فى إذكاء الحماسة للقتال والاستبسال . وكانت الغنيمة تقسم بالتساوى بين الجند ، بعد أن يأخذ شيخ القبيلة نصيبه . وعرف العرب أنواعا عديدة من القلاع والحصون ، أشهرها حصن غمدان فى اليمن وكان يتألف من عشرين طابقا . وعرف العرب كثيرا من النظم الحربية الراقية وخاصة فى إمارتى الحيرة والغساسنة وفى المملكة الحميرية فى اليمن .

## الجيش فى عصر الخلفاء الراشدين :

لما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب ، واتحدوا بجامعة الدين يدا واحدة فى محاربة أعدائهم ، فكانوا كلهم جندا كبيرهم وصغيرهم ، وأول جنود المسلمين المهاجرون ، فلما قدموا إلى المدينة اتحدوا مع الأنصار وصاروا جميعا جندا واحدا قائدهم الرسول ، ورابطتهم المؤاخاة والمعاهدة . وأخذ عدد الجنود المسلمين يزداد يوما بعد يوم نتيجة اعتناق كثير من القبائل العربية الإسلام فى الحجاز واليمن ونجد واليمامة ، تجمعهم جامعة الاسلام حتى تكاثروا وتكاتفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ، ففتحوا البلاد ومصروا الأمصار ، وانقسموا إلى أجناد يقيم بعضها فى مصر وبعضها فى الشام وبعضها فى العراق ، فى محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون ، فكان جند البصرة مثلا خمسة أقسام تسمى الأخماس ، يقيم فى كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الأزد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية ( قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة ) ، وكان على كل خمس أمير من أمراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر أخبار المسلمين فى الكوفة والفسطاط مما مصره المسلمون ، أو فى غيرهما من مدن العراق والشام ومصر ، فقد كان لهم فى كل إقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية [1] .

---

(١) جورجى زيدان . تاريخ التمدن جـ ١ ص ١٦٩

قسمت الدولة العربية الاسلامية إلى خمس مناطق حربية منفصلة عن التنظيمات السياسية ، كل واحد منها يسمى بالجند . وكانت تلك الأجناد هى : المدينة ، والكوفة ، والبصرة ، والموصل ، والفسطاط ، ومصر ، ودمشق ، وحمص ، وفلسطين . وكان فى كل منطقة من هذه المناطق ثكنات لإقامة الجند . كما كان لكل معسكر من المعسكرات الحربية حظيرة كبيرة للخيل بها ما لا يقل عن أربعة آلاف حصان بمعداتها فى أتم استعداد ، حتى أنه يمكن وضع ٣٦ ألف من الفرسان فى وقت قصير فى ميدان القتال . وخصصت مراع واسعة لتلك الخيل ، وكان كل حصان يوسم على فخذه بعلامة جيش فى سبيل الله ، وبذلت عناية كبيرة لتربية سلالات ممتازة من عتاق الخيل ، وبالاضافة إلى هذه المعسكرات الحربية الكبرى ، كانت هناك ثكنات عسكرية فى جميع المدن الكبرى ونقط الحدود والمدن الساحلية . وكان لكل مركز حربى مكتب تسجيل ومخزن للمؤن ، وكذلك كان هناك فى كل معسكر حربى « عريف » يوزع الرواتب .

كان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، فأنشأ ( ديوان الجند ) للإشراف عليهم ، بتقييد أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم . وكان القتال فى عهد عمر يقوم على العاطفة الدينية والرغبة فى نشر الاسلام .

ولما انتهت جيوش المسلمين من الفتوحات فى العراق والشام وفلسطين ومصر ، أقام الجند فى هذه الأمصار فى معسكرات خاصة بهم ، وانصرفوا إلى الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت ، وبذلك انصرفوا عن الجندية وفترت الروح العسكرية فيهم ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسراتهم .

وكان أقل راتب للمجند فى تنظيم عمر هو ٢٠٠ درهم فى السنة ، ثم زاد بالتالى إلى ٣٠٠ . ونال الضابط رواتب ٧٠٠٠ إلى عشرة آلاف

درهم فى السنة وإلى جانب هذا الراتب أخذت زوجة كل جندى وطفل عطاء من الدولة . وبالإضافة إلى ذلك أخذ كل جندى جراية دون مقابل كما أعطى الملبس والنعال . وفضلا عن هذه الامتيازات وزعت بين الجند أربعة أخماس الغنائم من الثروات الهائلة التى تخلفت عن الفتوحات . وبذلت عناية كبرى لتوفير أقصى أسباب الراحة للجند بقدر الامكان . وفيما عدا حالات الطوارىء غير العادية لم يسمح للجندى بأن يغيب عن بيته أكثر من أربعة أشهر . وإذا كان على الخليفة اختيار وقت ومكان المعركة فانه كان يختار للحملات المناطق الباردة صيفا وتسمى الصوائف ، والدافئة شتاء وتسمى الشواتى ، حيث بذل اهتمام كبير بصحة الجند ، وبنيت معسكراتهم الجيدة التهوية والفسيحة فى أماكن صحية معروفة . كما ألحق بكل جيش عدد من الأطباء والجراحين خاصين به [١] .

يرجع الفضل إلى عمر بن الخطاب فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود فى أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الابل ، ولا يرتاحون إلا فى أكواخ مصنوعة من سعف النخيل ، ومن ثم بنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة .

كان الجيش يتألف من المشاة ( الرجالة ) والخيالة ( الفرسان ) وقاذفى السهام ( الرماة ) وفيلق الخدمة ( الغلمان ) والكشافة ( الطليعة ) وكشافة المؤخرة ( الردء ) وكان على كل عشرة جنود أمير عشرة ، ولكل مائة من الجند قائد ، ولكل عشرة من القادة أمير .

كان الرجالة يقفون فى صفوف متراحمة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان . وكان جناحا الجيش يتألفان من الفرسان عادة . كانت الطليعة تسير بعيدا فى مقدمة الجيش تتجسس الطريق أمامها وتفحصه ثم

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ١٢٠

يتبعهم إلى مسافة كبيرة إلى الوراء الجيش فى ترتيبه الحربى ، فالمقدمة تسير إلى الأمام ، يتبعها القلب والجناحان ، ثم تسير الساقة بالمتاع وآلات الحصار وغير ذلك . وكان يصاحب الجيش غالبا نساء الجند وأطفالهم . وكذلك قطعانهم وماشيتهم ، وخلف الساقة تسير مؤخرة الطليعة . وتقطع القوات غالبا مراحل غير متعبة ، وتستريح فترة مقدارها أربع وعشرون ساعة كاملة كل يوم جمعة .

كتب عمر بن الخطاب رسالة بعثها إلى سعد بن أبى وقاص يرسم له السياسة الحربية التى يريد أن ينتهجها نقتبس منها أهم فقراتها : « وترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص من قوتهم ، فانهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم .. وإذا وطئت أرض عدوك ، فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء ... وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم ، واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول من تلقاهم بالقوة ، واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ... ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناصرة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ... » [١] .

---

(١) تاريخ الطبرى . جـ ٤ ص ١٣٤ .

كان العرب فى العصر الجاهلى يتبعون فى القتال طريقة الكر والفر ، لكن قواد المسلمين رأوا أن هذه الطريقة قد بليت ولا تحقق النصر للجنود المسلمين ، ولا تكفل الظفر للجيوش المنظمة ، ورأوا أن يتبعوا ما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [(١)] . وأخذ المسلمون فى عهد الرسول يقفون للقتال صفوفا كما يفعلون فى الصلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين .

كانت الأسلحة الرئيسية للقتال هى السيوف والأقواس والسهام والرماح والنشاب . وكانت السيوف غالبا ذات حدين . أما سهام العرب فكانت صغيرة بدرجة جعلت الفرس يسمونها تهكما بالمغازل . وكان الدرع والبيضة يستخدمان للوقاية ، ولم يلبس الدروع الحديدية غير بضع جنود فقط بسبب ثمنها الباهظ واستخدمت المجانيق والدبابات للهجوم على الحصون . وفى سنة ١٦ هـ استخدم المسلمون نحوا من عشرين منجنيقا فى حصار ( بهرسير ) ، ومما استخدموه دبابة خشبية كبيرة يرجح أنه كان لها ألواح من الحديد لتحميها من الحرق ، على نحو ما حدث فى احتراقها أثناء حصار الطائف . إذ اختفى النقابون فى تلك الدبابة الهائلة التى تجر على عجلات ، والتى دفع بها إلى جدران البلدة نفسها ، وهناك استطاعوا بسبب حمايتهم من قذائف العدو إحداث ثغرة بالثقب والنقب . وعند اقتحام حصون دمشق سبح المسلمون عبر خندق المياه وعلى ظهورهم القرب ، ثم رموا بالحبال والأوهاق [(٢)] الشرف وتسلقوا الجدران وفتحوا الأبواب ، واستخدمت حفر النار والعوائق فى المعارك الدفاعية [(٣)] .

---

(١) سورة الصف الآية ٤ .

(٢) الأوهاق : جمع ( وهق ) وهو الحبل يرمى فى انشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان .

(٣) حسينى : الإدارة العربية ص ١٢٣ .

كان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور ، ويرتدى الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى ما تحت الركبة ، وسراويل ونعالا . وكانوا يكبرون ويتلون الآيات القرآنية فى أثناء سيرهم للغزو والجهاد فى أثناء اشتباكهم فى المعارك الحربية وكانت النساء يصحبن الجيوش ، ويخصصن لهن أماكن فى المدن الحصينة والمعسكرات لتمريض الجرحى والعناية بهم . وكن يضربن الدفوف ويقرعن الطبول لإثارة الحماسة فى نفوس الجند .

وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه ، فقد كان ينوب عنه فى إقامة الصلاة . وإذا اجتمع أكثر من قائد فى مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس . فيصبح هذا القائد بمثابة « قائد القواد » . وإذا انتهى الفتح أصبحت مهمة القواد مقصورة على النظر فى أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم .

لا يرجع تفوق العرب على أعدائهم فى ميادين القتال إلى أسلحتهم وحدها ، بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر على تحمل الشدائد . وإذا أضفنا إلى هذه الصفات ما امتازوا به من الحماس وبذل النفس فى نصرة الدين أمكننا أن نهتدى إلى سر ذلك الفوز الذى أحرزه العرب فى حروبهم . وكانت الدولة العربية تسخو فى تموين الجند وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الزاد والسلاح [1] .

وبنهاية عهد الخلفاء الراشدين ، كان المسلمون قد أعدوا جيشا على جانب كبير من الكفاية ، مؤلفا من محاربين من الطبقة الأولى فى النظام

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٠ .

والتدريب ، ومزودا بجميع أسلحة ذلك العصر الذى اشتملت على جميع آلات الحصار الهامة . كما أنهم ابتدعوا عن جدارة طرق وخطط للمسير وإقامة المعسكرات والنقل والتموين وغيرها من النظم الحربية لجيوش مثالية ، وكذلك تعلموا أساليب الدفاع الراقية ، من حيث فرض الحصار ، وأخذ الحصون عنوة ، ومحاربة جيوش كثيرة العدد بعدد أقل كثيرا . ولذا تفوق العرب المسلمون على جميع معاصريهم ، فى التنظيم والتموين والأسلحة والمهارة الفنية وصفات الجند والقادة وفنون القتال ، وفوق هذا كله فى الروح المعنوية .

## النظم الحربية فى العصر الأموى :

بدأ التجنيد الإلزامى الإجبارى فى أواسط العصر الأموى ، وكان الناس من قبل يذهبون إلى الحرب جهادا فى سبيل الله فيصيبون الغنائم والفىء ، فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان ( سنة ٣٥ هـ ) اشتغلوا بالحروب الداخلية ، وانقسم المسلمون إلى طوائف متصارعة متنابذة ، وكل طائفة تحارب وهى مؤمنة أنها الوحيدة التى على الحق ، فلما أفضى الأمر إلى بنى أمية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضعفت قوة الأحزاب بتغلب العنصر الأموى . لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعا ، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالالزام [١] .

ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الأموية قد بلغت ذروة مجدها ، وكثر المسلمون ومالوا إلى العمل فى الأرض . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب فى أيام معاوية ، فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ، ثم معاوية الثانى ، ثم مروان ابن الحكم – ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الأعناق – تجرأ الجند على

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ١ ص ١٧٠ .

التقاعد فلما تولى عبد الملك الخلافة والجند ولمس تقاعد المسلمون عن القتال شكا ذلك إلى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له روح : « يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف » واستجاب عبد الملك النصيحة وقلد الحجاج أمر العسكر .

كان هذا بداية التجنيد الاجبارى ، ثم أصبح نظاما ثابتا ، وأصبح الجند الاسلامى فئتين : المرتزقة ، والمتطوعة ، وكلاهما عرب يرجعون فى أنسابهم إلى قحطان وهم اليمنية ، أو إلى عدنان وهم المضرية ، وفيهم جماعة من الموالى أو الرقيق . وكان الجيش فى عهد عبد الملك بن مروان يتكون من العنصر العربى ، لأن الدولة الأموية كانت عربية لحما ودما . وظلت الحال على ذلك حتى توسع الأمويون فى فتوحهم ، وضموا شمال أفريقية وبلاد الأندلس فاستعانوا بالبربر فى الجيش .

فى العصر الأموى ، تقدم كثير من المتطوعة بالمسلمين لمحاربة الكفار من الأتراك والهنود والزرادشتيين وغيرهم ، والتحقوا بالجيوش غالبا على نفقتهم الخاصة وبمعداتهم كذلك . وفى بعض الأحيان أسهموا أيضا فى تكاليف الحرب ، وسميت هذه المساهمة ( التنباهد ) . ولم يكن فى استطاعة الجند أصحاب العطاء العودة إلى ديارهم بعد انتهاء أية حملة مع أن ذلك حق لهم ، ولكن كان فى استطاعة المتطوعة فعل ذلك ، إذ أنهم تطوعوا فقط من أجل غرض خاص ، وعندما ينتهى هذا الغرض كانوا أحرارا فى العودة إلى ديارهم .

نظم الجيش الأموى فى الغالب على غرار الجيش البيزنطى . فكانت كل وحدة تقسم إلى خمسة أقسام : القلب والجناحان والمقدمة والمؤخرة . وكان التكوين هو نفس التكوين القديم ونقصد به نظام الصفوف . وقد ظل هذا النظام معمولا به حتى عهد آخر الخلفاء الأمويين وهو مروان بن

محمد ، الذى ترك التقسيم القديم وأدخل نظام وحدات الجند الصغيرة المتماسكة المعروفة بالكراديس . أما الزى والدروع فقل أن تفرق فيه بين المحارب العربى والاغريقى . وكذلك الأسلحة كانت متشابهة . وكان الفرسان يستعملون سروجا بسيطة مدورة أكثر ما تكون شبها بسروج البيزنطيين ، وهى تشبه التى لا تزال شائعة الاستعمال فى الشرق الأدنى . أما آلات الحرب الثقيلة فكانت تشمل العرادة والمنجنيق والدبابة أو الكبش . وكانت أمثال هذه الآلات الثقيلة وأدوات الحصار مع متاع الجيش تحمل على الابل خلف الجيش [1] .

تكون الجيش الأموى ، كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين ، من المشاة والفرسان وفرق الخدمة وجماعة من النقابيين ، واجبهم إحداث ثغرات فى جدران معاقل الأعداء فى حماية الدبابة . وكان الموظفون المدنيون المرتبطون بالجيش هم تقريبا نفس الموظفين فى عهد الخلفاء الراشدين ، ويقصد بذلك الصراف والخازن والقاضى والمترجم وصاحب الخبز والواعظ .

استخدم المشاة فى العصر الأموى رماحا طولها ٨ قدم ، وأقواسا ، وسهاما فى جعب ، ومزاريق ، وسيوفا ذات حدين ، وصوالجة ذات عقدة حديدية وفؤوس الحرب ، ودروعا طويلة تغطى جميع الجسم وأخرى صغيرة مستديرة أيضا لها عقدة فى الوسط . ولبسوا البيضة ( الخوذات ) لحماية الرؤوس وأقمصة من الزرد أو قمصانا مصنوعة من الجلد ذات ثنيات عديدة وغالبا مغطاة بلوحة صدرية لحماية الجسم . وكانت الأيدى والأرجل تغطى بالحديد . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى واقعة نهاوند كان الدرع الذى لبسه النعمان ثقيلا بدرجة عاقت خفة حركته . وتسلح المقاتلة أيضا بالدبابيس ، لاستخدامها عند الالتحام ، وأحيانا استخدمت المقاليع كذلك .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٢٨١ .

وتسلح الفرسان بالرماح والأقواس والسهام وسيوف طويلة ، وحملوا دروعا صغيرة تحميهم ، ولبسوا قمصانا من الزرد تصل إلى الركبتين . واستخدم الفرسان المناطق واللجم والسرج المدورة .

وهكذا نرى أن الجند الأمويين قد وقفوا جنبا إلى جنب مع جند الدول الكبرى المعاصرة فى النظم الحربية والأسلحة . وبالإضافة إلى هذه الأسلحة الحربية كلها كان أعظم سلاح الجندى المسلم هو إيمانه وعزمه [١] . وتفوق العرب فى مسألة النقل على جميع أعدائهم ، فبينما استخدم البيزنطيون وغيرهم وسائل ثقيلة للنقل ، نقل العرب جندهم ونساءهم ومتاعهم ومؤنهم وكذلك آلات الحصار على ظهور الابل . وحملت « سفن الصحراء » أيضا الاسعافات والهوادج للمرضى والجرحى . ويرى ( فون كريمر ) أن العرب نالوا معظم انتصاراتهم بفضل إبلهم . واستخدم المسلمون كذلك عند الضرورة وسائل أخرى للنقل ، منها الخيول والبغال والحمير ، إلى جانب السفن .

أسس المسلمون فى المراكز الأمامية للدولة العربية الاسلامية ، وفى المراكز الاستراتيجية ، ربطا وحاميات . وكذلك أقيمت الحصون الاستراتيجية على الحدود ونال الجنود الذين أقاموا فى هذه الربط ودافعوا عن المراكز الأمامية والقلاع على الحدود مقررات سنوية منتظمة وعطاء لأسرهم ، كما هيئت لهم أسباب الحماية من أخطار الحرب . وكانت المدن الكبرى ، ومنها الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، معسكرات حربية فى الأصل .

اختار العرب ، فى كل بلد جديد يفتحونه مدينة استراتيجية تكون معسكرا للجيش ، وحيثما لا يوجد مثل تلك المدن فإنهم انتقوا بقعة استراتيجية وعسكروا بجندهم هناك مع أسرهم . وتحولت تلك المعسكرات سريعا إلى مدن زاهرة . وفى بعض الأماكن بنيت مدن جديدة لتكون معسكرا

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٢٧١ .

للجيش . ففى خوزستان نشأت « عسكر مكرم » من أحد المعسكرات ، وكذلك شيراز فى فارس . وفى ولاية السند بنيت المنصورة والمحفوظة لخدمة الأغراض الحربية .

وفى الشام ، استخدمت المدن الموجودة مثل معسكرات حربية . وعندما فتح المسلمون الشام ، هجر البيزنطيون الأراضى الواقعة إلى الشمال من أنطاكية وحلب ، وخربوا المدن فى تلك المنطقة ، وحولوا جزءا كبيرا من البلاد إلى قفار واسعة موحشة ليجعلوا المسلمين المخوفين بمنأى عنهم . ورحب المسلمون فى مبدأ الأمر بهذا الانفصال ، ولكن حين شعروا بالطمأنينة أخذوا يحصون المدن والقرى التى هجرها أعداؤهم ، وحصنوا مواقع التخوم بقلاع سموها العواصم . وكان أهم النقط الاستراتيجية المحصنة هى : طرسوس ، وأذنة ، ومرعش ، وملطية ، ومصيصة ، وتقع على الطرق الحربية أو الممرات الجبلية التى قد تخرج منها الجيوش البيزنطية [١] .

كانت القوة التى يحتفظ بها فى دمشق مكونة فى الغالب من السوريين وعرب الشام . وكانت البصرة والكوفة تمد جيش المقاطعات الشرقية بمعظم الجنود التى تحتاجها . وفى عهد الخلفاء السفيانيين بلغ عدد جنود الجيش ٦٠ ألف جندى يكلفون الدولة فى العام ٦٠ مليون درهم بما فى ذلك أعطيات أسرهم . وذكر صاحب كتاب الفخرى أن عدد الجيش قد بلغ فى أواخر العصر الأموى ١٢٠ ألف جندى .

### البحرية العربية الاسلامية :

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام ، إلا ما كان من سفن حمير وسبأ فى بلاد اليمن ، فقد كان اليمنيون أهل تجارة فى البر والبحر . أما عرب الحجاز فقد خشوا ركوب البحر . شأنهم شأن البدو فى كل زمان ومكان .

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٢٦٠.

فلما ظهر الاسلام . وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فتاقت أنفسهم للغزو فى البحر . وأول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمى ، وكان عاملا على البحرين فى عهد عمر بن الخطاب ، فأراد أن يفتح سواحل فارس ، وتقدم فى إثنى عشر ألفا من المسلمين من غير إذن الخليفة ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم عمر بذلك ، وكان يكره ركوب البحر ، غضب على علاء وعزله .

ثم فتحت الجيوش الاسلامية بلاد الشام ، وأتيحت لها فرصة مشاهدة الأساطيل البيزنطية ، فأرادوا أن يكون لديهم من السفن ما لدى أعدائهم ، وطلب معاوية بن أبى سفيان من الخليفة عمر بن الخطاب فى إلحاح أن يسمح له بغزو بلاد الروم بطريق البحر ، ولم يشأ عمر أن يسمح لمعاوية بما أراد قبل أن يلم بقدر كاف من المعلومات عن الملاحة فى البحر ، فأرسل إلى واليه بمصر عمرو بن العاص يطلب منه أن يصف له البحر وراكبه ، فكتب عمرو إليه يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود . إن مال غرق وإن نجا برق » وكانت هذه العبارات كافية لتجعل عمر يرفض طلب معاوية فبعث إليه يقول : « لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » .

يعلل ابن خلدون [1] خوف العرب المسلمين فى بداية عهد الدولة العربية الإسلامية من البحر ، فيقول أن « السبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون

أحواله ومرباهم فى التقلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشوانى [١] ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطروها بالعساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس » .

وقد اضطر معاوية بن أبى سفيان إلى تأجيل تنفيذ مشروع إنشاء أسطول عربى إسلامى طوال خلافة عمر ، حتى إذا تولى عثمان بن عفان الخلافة ، أخرج معاوية مشروعة إلى النور ، فطلب من عثمان أن يوافق على غزو الروم بحرا ، فوافق عثمان مشترطا أن تكون الخدمة البحرية عن طريق التطوع والاختيار ، وألا يحمل أحد ضد رغبته [٢] .

لم يكن للعرب معرفة فى الملاحة ، فاستخدموا أولا من كان فى حوزتهم ، وفيهم من أهل الصناعة والنواتية ، فأنشأوا لهم السفن والشوانى ، وشحنوها بالرجال والسلاح . وسموا مجموعة السفن أسطولا ، وهو لفظ يونانى ( Stoles ) عربوه . وكان ملاحو السفن فى بداية الأمر غالبا من أهل الشام البيزنطية قديما ( سكان الشاطىء الفينيقى ) ومن الأقباط . أما المحاربون الذين حملتهم السفن فكان معظمهم من العرب المسلمين الذين ينالون العطاء .

استعمل معاوية بن أبى سفيان على البحر عبد الله بن قيس ، فغزا

---

(١) نوع من المراكب الحربية .

(٢) انظر كتابنا ( البحر المتوسط بحيرة عربية ) وكتابنا ( الإسلام فى حوض البحر المتوسط ) تجد كثيرا من التفاصيل والمراجع التى ترتبط بهذا الموضوع .

خمسين غزوة بين شاتية وصائفة كما حارب والى عثمان على مصر عبد الله ابن سعد بن أبى سرح قسطنطين بن هرقل فى بحر الروم . وانتصر عليه فى موقعة ذات السوارى التى اشتبك فيها ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين . وفى هذه السنة ( ٢٨ هـ ) فتح العرب جزيرة قبرص ، وصالح أهل قبرص معاوية على ٧٢٠٠ دينار يدفعونها كل سنة . وبعث المسلمون فى هذه السنة أيضا حملة بحرية غزت بلاد الدولة البيزنطية . وفى سنة ٣٠ هـ فتح جنادة بن أبى أمية الأزدى جزيرة رودس التابعة للبيزنطيين ، وألقى الأسطول الاسلامى الرعب فى قلوب الاغريق ، الذين ظلوا فى خوف دائم منه .

ثم أخذت الحملات البحرية الإسلامية تتولى على البلاد البيزنطية . ولما تولى معاوية الخلافة أهتم بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الاسلامية ، ورتب لغزو البيزنطيين الشواتى والصوائف ، ووضع نظاما يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفا ، وبلغ أسطول الشام ١٧٠٠ سفينة .

وفى سنة ٤٨ هـ وجه معاوية الهجوم برا وبحرا على القسطنطينية ، وذكرت الروايات اليونانية [١] أن سفن الأسطول الاسلامى بلغت ١٨٠٠ سفينة ولكن الأسطول اضطر إلى التقهقر بسبب النار الاغريقية التى ألقتها الحامية على السفن الإسلامية الزاحفة . وفى سنة ٥٤ هـ قامت غارة بحرية على كريت . وكان أعظم أميرين للبحر فى عهد معاوية هما جنادة وعبد الله ابن قيس . وقاد عبد الله وحده خمسين غارة على البيزنطيين .

وفى سنة ٦٨ – ٦٩ هـ أبحر أسطول إسلامى من مائتى سفينة من الاسكندرية وهاجم صقلية ، وعادت الحملة بكثير من الغنائم .

---

(١) انظر كتاب تاريخ الامبراطورية الرومانية الأخيرة لبيورى وكتاب ( العرب والروم ) لفازيليف ، وكتب الدكتورة سعاد ماهر والدكتور ابراهيم العدوى والدكتور على شتا تجد تفاصيلا قيمة وافية عن البحرية الإسلامية .

وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد ( ٤٧ – ٦٢ ) وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص . ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة ( سنة ٥٤ هـ ) دار الصناعة فى جزيرة الروضة .

وبنهاية حكم معاوية كان للمسلمين أسطول عظيم يتألف من ١٧٠٠ سفينة . وكانت مهمة بناء السفن على هذا النطاق الواسع أمرا ميسورا بسبب الغابات الواسعة فى جبال لبنان . وبالاضافة إلى دور بناء السفن على سواحل الشام ، قامت دور أخرى للصناعة على ساحل مصر ، وساحل تونس . فقد أمر الخليفة عبد الملك بن مروان واليه فى شمال افريقية حسان بن النعمان ببناء دار صناعة السفن فى تونس ، فأنشأ حسان السفن وجهزها بالعدة والسلاح ، وبعث منها المقاتلة لغزو صقلية ، فلم يتيسر لهم فتحها إلا فى أيام الأغالبة . وفى عهد الوليد بن عبد الملك ، فتح الأسطول الإسلامى كثيرا من جزر البحر الأبيض المتوسط الغربى ، كما فتحوا بلاد الأندلس والسند .

انقسم الأسطول الإسلامى فى العصر الأموى إلى خمس وحدات ، أسطول الشام ومركز قيادته فى اللاذقية ، وأسطول أفريقية ، وأسطول مصر ومركزه الاسكندرية ، وأسطول النيل ومركزه بابليون ، وأسطول خاص لحراسة مدخل النيل من نزول البيزنطيين على السواحل . وكانت دور صناعة السفن الرئيسية فى مصر توجد فى بابليون والقلزم . وقامت دار صناعة سفن تونس وحدها ببناء مائة سفينة فى عهد ولاية موسى بن نصير القصيرة الأمد . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن فخامة الأسطول الإسلامى إذا علمنا أن الأسطول الذى اشترك فى حصار القسطنطينية بلغ عدد سفنه ١٨٠٠ سفينة [1] .

---

(١) حسينى : الإدارة العربية ص ٦٩٧ – انظر أيضا كتاب ( النظم الإسلامية ) للدكتور حسن إبراهيم ، وكتاب ( مصر فى فجر الإسلام ) للدكتورة سيدة كاشف ، وكتاب ( مصر فى العصور الوسطى ) للدكتور على إبراهيم حسن .

انقسمت البحرية الإسلامية فى العصر الأموى إلى قسمين منفصلين : أسطول البحر الأبيض المتوسط وأسطول المحيط الهندى . وكانت نماذج السفن التى استخدمت فى هاتين المنطقتين مختلفتين تمام الاختلاف . فكانت ألواح السفن فى البحر المتوسط تربط سويا بالمسامير ، أما فى المحيط الهندى فتخلط مع بعضها بعضا ، وكان هذا الاختلاف وليد التقاليد المتبعة ، وإن كان ينسب عدم استخدام المسامير إلى القول بأن الماء الملح يأكل المسامير . وكانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى .

أما أن العرب كانوا فى الأصل مدينين للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية ، فهو أمر لا سبيل إلى إنكاره إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ، وإن كانوا قد تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، أصبحوا فيما بعد أساتذة أوروبا فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوروبا لا تزال تحتفظ بعروبتها إلى اليوم [١] .

* * *

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٤ .

انظر أيضا فى هذا الفصل : كتاب ( النظم الإسلامية ) للدكتور حسن إبراهيم وكتاب ( أمويون وبيزنطيون ) للدكتور إبراهيم العدوى وكتاب ( مصر فى فجر الإسلام ) للدكتورة سيدة كاشف .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

# الباب الثاني

## حضارة الاجتماع



# ١ - أسس المجتمع العربى الإسلامى

## الموجات السامية قبل الفتح الإسلامى :

سبق الفتح العربى الإسلامى هجرة عربية وهجرات سامية ، وكان فى الهلال الخصيب مجموعات من العرب عاشت طويلا وتأثرت بالحضارات الأخرى ولا سيما السامية منها . وقد تدفق الساميون من سكان الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب ، وكان الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ماهو إلا تتمة لهذه الموجات السابقة ، التى هيأت الأسباب للموجة الكبرى ، ولكن هذه الموجات السالفة لم تكن تحمل طابع الفتح ولا الإحتلال ، فقد كان العرب الساميون يغادرون مواطنهم الأولى إلى البلاد المجاورة طلبا للسكن والعيش مع السكان الأصليين الذين كانوا يعارضون هجرتهم أحيانا ويقبلونها أحيانا أخرى [١] .

لما فتح العرب العراق ، كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر ، وبعض الفرس والنصارى . ولما فتحت فارس ، كان فيها عدا سكانها من الفرس ، يهود وروم من الذين أسروا فى الحروب الفارسية الرومانية ، أو من الذين نقلوا إلى بلاد الفرس . أما سورية ، فكان يسكنها عند الفتح : السوريون أهل البلاد ، والأرمن ، واليهود ، وبعض الروم ، وبعض القبائل العربية كغسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وطائفة من تغلب ، وكانوا فى القسم الجنوبى من سورية أكثر منهم فى القسم الشمالى ، وكانوا يتكلمون

---

(١) انظر كتاب ( مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ) للدكتور الدورى .

لغة هى مزيج من الأرامية والعربية . أما مصر ، مهد المدنية القديمة ، فقد كان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان . ولما فتحت أفريقية كان يسكنها البربر والرومان .

## امتزاج العناصر المختلفة بعد الفتح :

رحبت معظم هذه العناصر بالفتح العربى الإسلامى ، إذ وجدوا فى الفتح خلاصا لهم من مظالم الحكم الفارسى والرومانى . ولا شك أن هذا الترحيب كان عاملا مساعدا على امتزاج العرب المسلمين الفاتحين بهذه العناصر المختلفة ، وكان هذا المزج شاملا للدم والنظم الاجتماعية والعقلية والعقائد الدينية .

ولكن سياسة عمر بن الخطاب وقفت حائلا دون هذا الامتزاج وما قد يؤدى إليه من اندماج . فقد أمر عمر بترك الأراضى الزراعية لأصحابها الأصليين ورفض تقسيمها بين جنده العرب ، وأمر قواده وعماله ألا تسكن الجيوش الإسلامية المدن الجديدة ، كالبصرة والكوفة والفسطاط ، على أن تظل هذه المدن محتفظة بطابعها كمعسكرات لا كمدن للسكنى [١] . فقد كان عمر يعلم أن حياة المدن حافلة بالترف والرفاهية التى تصطبغ بصبغة غريبة عن الحياة العربية الإسلامية .

ولعلنا نتساءل عن الدوافع التى دفعت عمر إلى انتهاج هذه السياسة ، فيعلل ( فان فلوتن ) [٢] سياسة عمر بأن الفتح لم يكن هدفه إدماج شعب أو العمل على نشر دعوة دينية معينة ، بل هو احتلال بقوة السيف ، ولكن هذا الرأى فى رأينا بعيد عن الحقيقة . أما ( فون كريمر ) [٣] فيرى أن عمر

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٩١ .
(٢) السيادة العربية ص ١٥ .
(٣) الحضارة الإسلامية ص ٧٤ .

قصد من هذه السياسة أن يجعل من العرب طبقة عسكرية ممتازة ، ولذا حرم عليهم امتلاك الأرض أو زراعتها ، ويرى فون كريمر [١] أيضا أن التشريع الإسلامى يحول دون الاتحاد التام بين العرب والأجانب ، ولكن الحقيقة أن الإسلام يعترف بأن الله خلق الناس شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم . أما ابن خلدون [٢] فيرى أن عمر قد نهى العرب عن مخالطة الأعاجم ليحافظ على اللغة العربية .

لم يكتب لسياسة عمر طول البقاء . فقد غلبت الحياة رغبات عمر ، واندفع المسلمون إلى الإقامة بالمدن الإسلامية الجديدة ، يسكنونها ويعمرونها ، وإذا بالعرب يخالطون أهل البلاد فى شتى النواحى سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية . وقد شعر عمر أن سياسته لن تستطيع الصمود أمام رغبة العرب فى الاختلاط بأهالى البلاد المفتوحة فأذن لهم فى أواخر خلافته بالإنتشار فى هذه البلاد [٣] . ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، أطلق العنان لقريش فخرج عدد كبير منهم من المدينة إلى الأمصار المفتوحة وتفرقوا فى أرجائها ، وأباح لهم عثمان أن يمتلكوا الأرض [٤] . وكان هذا عاملا هاما فى الاختلاط ، إذ لم يكن العرب يفلحون الأرض بأنفسهم بل كانوا يستعينون بأهل البلاد فى فلاحتها .

فأدت إقامة العرب فى المدن الإسلامية الجديدة إلى امتزاجهم بأهالى البلاد ، وقد تعاونوا جميعا فى الحياة الإجتماعية والإقتصادية ، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الإسلام [٥] . وظهر الامتزاج فى عدة صور ، فكان هناك امتزاج فى الدماء ، وامتزاج فى الحضارات ، وامتزاج فى اللغات ، وامتزاج فى الأديان .

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٨٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٧ .
(٤) الطبرى : جـ ٥ ص ٦٤ .
(٥) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٩ .

## امتزاج الدماء العربية بالدماء الأجنبية :

أدى اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة فى المدن إلى اختلاط الأنساب وتداخل الشعوب ( وإنما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم ، وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم ، وإنما هذا للعرب فقط ) [١] . وكان السبى أبرز عوامل مزج الدماء ، فقد وزع كثير من أبناء البلاد المفتوحة ونسائهم على الجند العرب كغنائم ، فكان لكل جندى من العبيد والاماء عدد يستخدمهم فى قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء إن شاء [٢] . فلم يعد البيت العربى بيتا صميما بل أصبح بيتا مختلطا ، فكان الإماء يلدن أولادا يحملون الدم العربى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم وقد أنتجت هذه الإماء الجيل الثانى لسكان الدولة العربية [٣] .

وقد بدأت عملية مزج الدماء هذه منذ بداية الفتح ورغم سياسة عمر فقد حاز الجند الفاتحون كثيرا من السبايا فاقتسموهن ( فاتخذن فولدن فى المسلمين ) [٤] . فقد كان بعض هؤلاء الجند قد تركوا زوجاتهم فى الجزيرة العربية ، وبعد انتهاء الفتح واستقرار العرب فى الأمصار المفتوحة رأوا قلة عددهم بالنسبة لسكان البلاد الأصليين ، فاستكثروا من أمهات الأولاد من بين السبايا حتى يكثر نسلهم ويزداد عددهم .

## امتزاج الحضارة العربية بالحضارات الأخرى :

وكانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٠٨ .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ١٨٢ .

(٤) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٤ ص ٤١ .

فالحضارة الأغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالهما السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل . ومن المؤكد أن الحضارة الإسلامية كانت فى أول الأمر مزيجا من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر طويلا ، فما لبثت الحضارات الأخرى أن اتصلت بالحضارات الإسلامية ، التى اتصلت بدورها بالحضارات اليونانية والفارسية وحضارات وسط آسيا [١] .

أدت عملية مزج الرجاء إلى امتزاج الحضارة العربية بحضارة الأمصار المفتوحة : فكما اتخذ العرب من بين السبى زوجات وأمهات أولاد فقد اتخذوا منهم خدم وجوارى يقمن على أمر البيوت فى نظامها وإدارتها ، والخدم والأزواج هم الذين يصنعون البيوت وينشئون الأطفال [٢] . وكان بين السبى نصرانيات ويهوديات وقد احتفظن بديانة الأجداد رغم اتخاذ أسيادهن منهم سرارى أو زوجات وبجانب احتفاظهن بديانة الأجداد فقد احتفظن بكثير من العادات المتوارثة ، بل أن السبى الفارسيات رغم إسلامهن احتفظن بعاداتهن وتقاليدهن . ونتج عن هذا التزاوج عدد لا يحصى من النسل والذرية الذين تأثروا بالأمهات [٣] .

لقد كان الطريق ممهدا أمام امتزاج الحضارات ، فقد كان العرب أميون فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، وسرعان ما خضعوا لحضارة الهلال الخصيب وانجرفوا معها واقتبسوا كل شيء من جيرانهم فصارت حضارتهم مزيجا من حضارات مختلفة [٤] . وكانت البلاد المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظما اجتماعية ، فكان من

---

(١) عمر أبو النصر · الحضارة الأموية ص ١٩٤ .
(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية .
(٣) Muir The Caliphate, P. 19.
(٤) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٦ - ٧

الطبيعى أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم ، ولكن العرب – وهم العنصر القوى الفاتح – عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، وبما يلائم الدين الإسلامى . وشمل اقتباس العرب من الفرس والروم جميع النواحى ، وسواء كان ذلك فى وسائل الزينة والترف التى لم يعهدوها من قبل ، أو فى الحرف الدقيقة أو فى نظام الحكم والإدارة ، أو فى اللغة والآداب .

### أثر اللغة العربية فى مزج الدماء والحضارات :

لعبت اللغة العربية دورا كبيرا فى مزج الحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة . فقد أدى تعميم استخدام اللغة العربية فى هذه الأمصار إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم [١] إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى [٢] ، كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبا إسلاميا فإنهم كانوا يزدادون إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن [٣] .

أقبل سكان الأمصار المفتوحة على تعلم اللغة العربية واتقانها . فقد كانت رغبة هذه العناصر فى قراءة القرآن وتولى المناصب عاملا دفعهم إلى إجادة اللغة العربية [٤] . كما كانت رحمة العرب الفاتحين بهذه العناصر وتسامحهم من الأسباب التى أدت إلى سهولة اعتناقهم الإسلام واتقان اللغة العربية والنظم العربية [٥] . وجرت العادة أن المغلوب نراه دائما مولعا بتقليد الغالب [٦] .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٦٨ .
(٢) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٥٠ .
(٣) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١١ .
(٤) حسينى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٩ – ٣ .
(٥) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٤ .

كان قيام إمارة الحيرة على حدود الدولة الفارسية ، وإمارة العساسنة على حدود الدولة الرومانية ، عاملا هاما على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها ، وكانت الأمارتان على صلة دائمة بالجزيرة العربية .

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف ؟ الإجابة : لا ، بل سار العرب فى نشر لغتهم على نفس المنهاج الذى ساروا عليه فى نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها ، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل وراعى دعاتهم سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة كما عملت فى العناصر الأخرى ، فبقى ما هو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم [١] . ويرى بارتولد [٢] أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، ويعلل ذلك بأن انتشار اللغة العربية فى الأقوام غير الإسلامية أمرا غير مرغوب فيه كثيرا لدى الحكومة . ويدلل على ذلك بمنع النصارى من التحدث باللغة العربية ومنع تعليم أولادهم فى مدارس المسلمين . ولكن بارتولد فى نفس الوقت يذكر أن تسامح العرب أدى إلى انتشار اللغة العربية إذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس .

كان سكان الأمصار المفتوحة مضطرين إلى خلق طريقة للتفاهم بينهم وبين العرب ، فقد كانوا يتصلون بهم فى شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو الجيش أو السبى ، وكانوا مضطرين إلى خلق طريقة للتفاهم بينهم ؛ ومن هنا أخذت تدور على ألسنة هذه الطبقات لغة أولية بسيطة تحقق أيسر ألوان التفاهم وتكون كالوسيط بين لغة السكان الأصليين ولغة العرب الوافدين [٣] . وأدى هذا إلى نقل ألفاظ أجنبية إلى اللغة العربية وترك ألفاظ

---

(١) كرد على الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٨٠ .
(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٠ .
(٣) شكرى فيصل المجتمعات الإسلامية ص ٢٥٨ .

عربية كانت مألوفة فى الجاهلية واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدى معانى أخرى قبل الإسلام [١]. وكانت هذا التقارب بين اللغة العربية وغيرها من اللغات من العوامل الرئيسية التى دفعت الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان إلى تعريب الدواوين ، ولم يجد من سبقوه من الخلفاء جرأة للإقدام على هذا التعريب لأن اللغة العربية كانت فى واد واللغات الأخرى فى واد آخر .

أدى امتزاج اللغة العربية بغيرها من اللغات إلى آثار أضرت باللغة العربية . وكان عمر بن الخطاب بعيد النظر حين نهى العرب عن الإختلاط بالأعاجم حرصا منه على سلامة اللغة العربية من الشوائب [٢] . وحدث ماكان عمر يخشاه ، فقد انحرفت الألسنة وخرجت عن قواعدها ، وفشا اللحن بين العرب . وكما تأثرت اللغة العربية باللغات الأخرى ، فقد أثرت فيها بدورها . فقد فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم وقضت نهائيا على الألفباء القديمة لهذه اللغات القديمة . فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها إلى مجموعة كلماتها الهندو - أوروبية [٣] . وكان الزرادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية وأوجدوا لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية [٤] .

وأدى الاختلاط بين اللغة العربية واللغات الفارسية إلى ظهور فرق واضح بين لغة القرآن الكريم واللغة العامية ، مما أدى إلى البحث عن حل لهذه المشكلة ، وقد وجدوها أخيرا فى دراسة النحو واللغة ، وقام الفرس بتلك المهمة بمساعدة العرب [٥] . واختصت البصرة بهذا النوع من

---

(١) كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٨٠ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .
(٣) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٢ - ١٣ .
(٤) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٨ .
(٥) Hell : The Arab Civil., P. 90.

الدراسة ، فشغل علماؤها بتقريب القرآن من اللهجات العامة ، ويرجع السر فى اختيار هذه المدينة دون غيرها وقوعها على تخوم فارس [١] . وكان معظم واضعوا النحو من الآراميين والفرس الذين دخلوا فى الإسلام [٢] .

## الإسلام كأساس للمجتمع الجديد :

أدى الإسلام إلى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخرى فى الأمصار المفتوحة . فقد منح الإسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأمصار ما تحتاجه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم في سبيله . وقد منحت هذه المثل العليا أهالى الأمصار مشاعر مشتركة وآمالا مشتركة وإيمانا متينا يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل نصره . وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى استقت منه جميع نظمها السياسية والإجتماعية [٣] .

هل نشر العرب الإسلام بالقوة وحد السيف ؟ والجواب بالنفى ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذى لم يفرض بالقوة ، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم [٤] . فإنه من المستحيل أن يفوز الإسلام بقلوب الناس بالسيف [٥] ويعترف لوبون [٦] بذلك فيقول : « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم » . ولم يعمل

---

(١) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٩٠ .

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٧١٨ – ٧١٩ .

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٢ .

(٥) S.L. Poole : Studies in a Mosque, P. 86 .

(٦) حضارة العرب ص ٧٢٠ .

العرب لنشر الإسلام ، ولم يكن عندهم مبشرون ولا كانوا يحسنون التبشير ، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الذين أسلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية .

ما أسباب الإنتشار السريع الذى صادف الإسلام ؟ يعلل لوبون (١) هذا الإنتشار السريع بعاملين ، أولهما تشابه الإسلام والمسيحية فى الأصل الأساسى وهو الإله الواحد ، أما العامل الثانى فهو سهولة الإسلام التى كانت سر قوته ، فهو يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الإسلام فى بضع كلمات سهلة ، على عكس المسيحى الذى لا يستطيع حديثا عن التثليث وغيره من الغوامض التى لا يعرفها غير علماء اللاهوت . أما ( ستانلى لين بول ) (٢) فهو يتساءل عن سبب سرعة إنتشار الإسلام هل هو القانون الأخلاق الذى تحويه العقيدة وما يعد الإسلام المؤمنين به من جنات ؟ ولكن ( بول ) يعود فيقول أن هذه الأسباب كلها كافية لتعلق قلوب الملايين بالإسلام ولكن العامل الأول فى سرعة الإنتشار هو أن الإسلام لم يقابل عدوا قويا ، فلم تكن اليهودية أو المسيحية بالقوة التى تحول دون انتشاره ، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار ، وكان هذا سبب انتصار الإسلام ، هذا بجانب ما حواه الإسلام من مبادىء وتعاليم سامية .

يعلل ( دوزى ) (٣) إقبال الفرس على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه فى دياناتهم السابقة . أما ( أرنولد ) (٤) فيرجع سبب

---

(١) حضارة العرب ص ٥٨ .

(٢) Studies in a Mosque, P. 84.

(٣) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٠ .

انتشار الإسلام إلى عاملين : أولها نجاح العرب الواسع النطاق الذى زعزع عقيدة المسيحيين ، فقد رأوا أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الإلهى . أما العامل الثانى فهو ماكان ينادى به الإسلام من مثل عليا ترمى إلى أخوة المؤمنين كافة فى الإسلام .

أصبح الإسلام هو الرابطة بين العناصر المتنافرة المختلفة التى كانت تسكن الأمصار ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية وإجتماعية أكثر منها فكرة دينية [١] ولعب موسم الحج دورا كبيرا فى مزج هذه العناصر ، فقد قصد المسلمون على اختلاف أجناسهم وحضاراتهم إلى مكة فساعد ذلك على نقل الثقافات والحضارات والعادات .

## نتائج الإمتزاج والإندماج :

كان للفتوح العربية طابع خاص لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى ، والترك وغيرهم ، وإن استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، إلا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل هذه العناصر المختلفة الموجودة فى الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتا [٢] .

هذا الامتزاج بين الحضارات جعل البعض [٣] يذكرون أن الأمة

---

(١) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٧٤ .
(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١٤ .

الإسلامية لم تعد أمة عربية ، لغتها واحدة ، ودينها واحد ، وخيالها واحد ، كما كان الشأن فى عصر الرسول ﷺ ، بل كانت الأمة الإسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب ، وكانت الحروب سجالا ، فقد ينتصر للعرب ، أو تنتصر العناصر الأخرى .

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربية حضارة عظيمة ، ويرجع سبب عظمتها إلى عاملين : أولهما بيئة العرب الحديثة التى ترغم العرب على التحضر والتمدن . وشتان بين الهلال الخصيب فى العراق والشام ووادى النيل وبين صحراء الجزيرة العربية المجدبة . والعامل الثانى ذكاء العرب وثقافتهم الأولى فقد استطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التى وجدوها فى الأمصار المفتوحة ، فى حين فشل غيرهم من الفاتحين ، كالبرابرة مثلا ، فى هضم مابقى من الحضارة اللاتينية [١] .

أدت عملية الامتزاج والإندماج إلى آثار إجتماعية ، بعضها حسن ، وبعضها الآخر ضار . أما الآثار الحسنة ، فقد حل هذا الإندماج محل التنظيمات القبلية القديمة ، فقد كان تحول سكان الأمصار المفتوحة عن أديانهم القديمة سببا فى إدخالهم ضمن التنظيم القبلى ، ولكن هذا التنظيم قد بدأ يفقد شيئا من قيمته الإجتماعية ، فقد أدى إختلاط السكان إلى أن أصبح نظاما مصطنعا ، فقد تقارب الأفراد بفضل اعتقاداتهم أو مصالحهم ، مما أدى إلى اندماجهم فى جماعات جديدة حلت محل التنظيمات القبلية القديمة [٢] . كما يرجع إلى العرب الفضل فى إزالة نظام الطبقات البغيض الذى كان موجودا فى معظم هذه الأمصار ، وخاصة فى الدولة الفارسية ، فضلا عن إخراج الفرس من ظلمات المجوسية إلى نور الإسلام [٣] .

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١ .
(٢) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٥٤ .
(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٤ .

أما الآثار الإجتماعية السيئة التى أدى إليها الإمتزاج والإندماج ، فهو ظهور مشكلة التوفيق بين مصالح الطبقات المتضادة ، بين العربى وغير العربى وبين الغنى والفقير ، وبين الحر والعبد ، وبين أصحاب العمل والأراضى وعمالهم وفلاحيهم . وقد ظهرت هذه المشكلة بعد إندماج الأمة العربية فى غيرها من الأمم المختلفة ذات الحضارات القديمة والأديان المتباينة ، ونتجت عن ذلك حالة إجتماعية جديدة توترت العلاقات فيها بين بعض طبقات المجتمع الإسلامى مما أدى إلى سقوط الدولة الأموية العربية [١] . وتجلى هذا التوتر فى الصراع الدائم بين العرب وآمال الفرس ، والحرب بين النظم الإجتماعية العربية البسيطة والنظم الإجتماعية الفارسية . ولم ينجح العرب فى حل هذه المشاكل الإجتماعية تماما رغم نجاحهم فى نشر الإسلام واللغة العربية [٢] .

* * *

---

(١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٠ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١٤ .

## ٢ – عناصر المجتمع

### أولا – العرب :

غمرت الموجات السامية بلاد العراق والشام قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة ، وكانت خمسة أولها حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م. وآخر هذه الموجات هى الموجة التى بدأت فى القرن الثانى للميلاد ، وأدت فيما بعد إلى تكوين دولتى الغساسنة والمناذرة (١) .

خرجت الجيوش العربية الإسلامية لفتح كثير من البلاد التى كانت خاضعة للدولتين البيزنطية والفارسية . وكانت هذه الجيوش تمثل عناصر من معظم القبائل العربية . ولما تم النصر للعرب المسلمين ودانت لهم الأمصار بدأت مرحلة الإستقرار فى حياة العرب ، وتمثلت هذه المرحلة فى بناء المدن ، مثل البصرة والكوفة والفسطاط . وكانت هذه المدن فى بداية أمرها معسكرات للجند العرب ، فكان العرب يقيمون فى معسكراتهم الجديدة إلى زمن الربيع فيسرحون بخيولهم إلى المراعى فى القرى حيث يرعاها الأتباع والموالى . وقد اشترط عمر فى بناء المدن الجديدة ألا يبنوها فى مكان يحول بينه وبين المدينة ماء (٢) . كما حرص على عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد الأصليين ، وكان عمر يدرك تماما أن سكنى المدن تؤدى إلى اختلاط الأنساب مما يؤدى إلى ضعف الجنس العربى (٣) .

لم يكتب لسياسة عمر النجاح التام ، فإنه فى أواخر خلافته أذن لجنده العرب بأن ينتشروا فى البلاد المفتوحة (٤) . وفى عهد عثمان بن عفان طاب

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢١٧ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٧ .

للعرب الإقامة بالأمصار . واقتنوا الأرض والضياع ، وتحولت المعسكرات إلى مدن عامرة ، وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وتطوروا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور . وكان العرب فى بداية استقرارهم بالأمصار قلة بالنسبة للسكان الآخرين ، ولذا انصرف هم العرب إلى الاستكثار بالتناسل ، فاستكثروا من أمهات الأولاد فضلا عن الزوجات ، وتسابقوا إلى امتلاك الجوارى ، وأسرفوا فى التسرى [١] .

حافظت القبائل العربية التى أقامت فى مدن منفصلة كالكوفة والبصرة والفسطاط على تقاليدها القبلية لفترة طويلة ، أما تقاليدها الحضرية الإجتماعية فقد تكونت تدريجيا [٢] . ويذكر فان فلوتن [٣] أنه بينما كانت المسيحية تنتشر بين الشعوب المتحضرة وتوطد سلطاتها بين الأمم ذات المدنيات الراقية ، كان الشعب العربى لا يزال على بداوته الأولى رغم اعتناقه الإسلام . ويعترف فان فلوتن أن الجيش الإسلامى لم يكن يخلو من بعض القبائل المتحضرة ، كما كان يضم الكثير ممن لم يكونوا بعيدين كل البعد عن المدنيات والأفكار الدينية التى كانت سائدة بين الشعوب المجاورة لهم إلا أن روح الصحراء وتقليد البدو لم يقض عليها نهائيا . يقول ابن خلدون [٤] . « ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد فى شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم إليهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا » .

ومن مظاهر بداوة العرب عند الفتح خروجهم للغزو بنسائهم وأولادهم وإبلهم وسائمتهم على نحو ما كانوا عليه فى أيام الجاهلية ، وهذا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٨ ص ٤٩ .

(٢) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٩ .

(٣) السيادة العربية ص ١٤ – ١٥ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣

يرجع إلى سياسة عمر فى نهيهم عن الزراعة والإختلاط بأهالى الأمصار وإقامتهم بالمعسكرات .

لكن سرعان ما بدأ العرب يرتقون سلم الحضارة حتى بلغوا ذروتها وكان ذلك نتيجة البيئة الجديدة التى عاشوا فيها ، ونتيجة استعداداتهم الفطرية ، فقد حتمت البيئات الجديدة على العرب الاختلاط بغيرهم من عناصر السكان الأصليين فاختلطوا مع فلاحيهم فى أرضهم ، وفى المدن مع أرباب المهن المختلفة ، وفى الجيوش حيث كانت هذه العناصر تقوم بإنشاء الطرق وإقامة الخيام ، وفى السبى حيث أقبل العرب على امتلاك الجوارى والاماء اللاتى اتخذوهن للتسرى والانجاب ، وكانت هذه الاماء والجوارى عاملا هاما فى نقل الحضارة إلى بيوت العرب وتعليمهم أرقى أنواع الطعام والملابس ، فضلا عن الغناء والموسيقى ووسائل الترف .

انتقل عرب الأمصار من البداوة إلى الحضارة [١] ، واتخذ هذا التقدم صورا شتى . ففى فن البناء اقتبسوا نظم الفرس والرومان وزادوا عليها ما يناسب طبيعتهم وذوقهم ، حتى صار نظام البناء العربى يفوق نظامى البناء الفارسى والرومانى . فقد امتازت العمارة العربية بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب . وهى تماثل النخيل وهى أعز شىء عند العرب ، ونالت الثقافة العربية تقدما سريعا ملحوظا ، كما تأثر العرب بأنواع الثقافات السائدة فى الأمصار المفتوحة من قبل . على أن العرب وإن اقتبسوا بعض معالم الحضارة عن الفرس والرومان ، فقد استقل العرب بشعرهم وآدابهم وقضائهم وتشريعهم ، بل فرضوا لغتهم العربية وأضعفوا اللغات الفارسية واليونانية واللاتينية .

أدى تقدم الحضارة إلى ازدياد ثروة العرب ، وكان لذلك أثره السىء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٨ .

فانغمس العرب فى الترف [١] . وتعلموا من بعض أهالى الأمصار فنون اللهو [٢] ، وسنرى عند حديثنا عن المجالس الإجتماعية صورا عديدة للترف والنعيم الذى عاش العرب فيه .

كانت **العصبية** هى أهم مميزات حياة العرب فى الدولة العربية الإسلامية بل كانت المحور الذى تدور حوله حياتهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية ، واتخذت عصبية العرب ثلاثة مظاهر ، أولها العصبية القبلية ، وثانيها عصبية المدن ، وثالثها العصبية الإقليمية .

ونبدأ الحديث بالعصبية القبلية : كان العصر الجاهلى مسرحا لكثير من الحروب بين القبائل ، وشغل العرب بالعصبية القبلية فى جميع نواحى حياتهم . ثم جاء الإسلام فدعاهم إلى محو التعصب للقبيلة والتعصب للجنس وأعلن مساواته بين جميع الناس ، فقال الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع : «أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » وحارب الرسول العصبية بقوله : « من قاتل تحت راية عمية بغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبة فقتل ، قتل قتلة جاهلية » . واختفت العصبية طوال حياة الرسول وأبى بكر وعمر فى شبه الجزيرة العربية ، ولكنها عادت إلى الظهور فى الدولة العربية الإسلامية بعد انتهاء حركات الفتح واستقرار العرب فى الأمصار المفتوحة .

كان التوسع العربى يمثل قوة التيار الإسلامى وتغلبه على التيار القبلى بتنظيمه وتوجيهه فى صالح الإسلام [٣] . كانت عناصر الجيوش العربية

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٨ .

(٢) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٩١ .

(٣) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٥٥ .

الإسلامية التى فتحت الأمصار تمثل معظم قبائل شبه الجزيرة العربية ، وهى توضح لنا أن المسلمين دخلوا الأمصار فى ظلال هذه الوحدة التى أفاءها عليهم الجيش ، فلم تكن هجرتهم إلى هذه الأمصار مثل هجراتهم السابقة من حيث الطابع القبلى [١] .

وكان اشتراك هذه القبائل فى الفتح عاملا فى امتزاجها ، فقد كان عليها أن توحد صفوفها ومشاعرها أمام أعدائها الفرس والروم . كما أن نظم الجيش العربى كانت تحتم الامتزاج والاتحاد ، فقد انقسم الجيش العربى إلى فرسان ومشاة وضاربين بالسيوف وضاربين بالرماح ، وكانت كل فئة تمثل جميع القبائل العربية .

ولكن الحال لم تستمر على هذا المنوال ، فما كاد العرب ينتصرون على الفرس والروم ، وتخضع لهم الأمصار ، وتبدأ مرحلة الاستقرار ، حتى عادت العصبية القبلية إلى الظهور مرة أخرى ، لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعداوتها أمام عدوها المشترك ، ولكن ما كاد هذا العدو يتلاشى حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من عداء وتعصب . لقد أثبتت هذه القبائل أن الإسلام على فرط ما حارب العصبية القبلية ، فإنه لم يقض عليها ولم يمحها من نفوس أصحابها ، ولكنها تضاءلت فى نفوسهم .

كنا نتوقع أن يكون بناء المدن فى الأمصار ، كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، عاملا على القضاء على العصبية القبلية ، فالقبائل حتما ستتجاور وتتعاون فى حياتها الاجتماعية الجديدة . ولكن حدث عكس ما توقعناه ، فقد وضع العرب أسس العصبية القبلية فى نفس الوقت الذى وضعوا فيه أسس المدن الجديدة . فقد أصبح لكل قبيلة مكان خاص بها فى المسجد ، وأصبح يمثل الروح القبلية [٢] ، فأزال العرب بذلك الحكمة التى

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٩٢

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٥ .

قصدها الله من الصلاة ، وهى أن يتساوى جميع المسلمين بين خالقهم وأصبح لكل من القيسية واليمنية جزء فى كل مدينة [١] ، وكان لكل حى مسجد ومقبرة وكأن هذه القبائل أرادت أن يبتعد بعضها عن البعض الآخر حتى فى الموت . وكنا نتوقع أن تقسم المدن الجديدة إلى أحياء على أساس الحرف [٢] ولكن العرب كانوا يمقتون المركزية مقتا شديدا ، فتجمعوا حسب تقسيمهم القبلى ، وكان هذا يدعو إلى التمرد والعصيان ، فقد كانت تلك الأحياء القبلية تقوم مقام المدن الصغرى ، وكان يفصل بعضها عن البعض الآخر أبواب يحرسها رجال أشداء ، فإذا قامت فتنة داخلية أقفلت الأبواب وانقطعت المواصلات بين أحياء المدينة .

وهكذا غلب طابع الحياة الجاهلية على الحياة فى البصرة والكوفة ، فلم يتم للعرب فيها اندماج تام يجعلهم ينسون حياة العصبية القبلية القديمة بل استمر سكانها يشعرون أنهم قبائل وإن عاشوا فى المدن وخدمهم الأعاجم [٣] وأصبحت القبيلة هى الوحدة الإجتماعية الطبيعية ، وظل الفاتحون يتبعون تنظيمهم القبلى ، واحتفظت هذه الجماعات المتشعبة بكل ماضيها القديم من حيث النسب والتآلف والتباغض ، وكان لهذا أثره السيىء فى حياة الجماعة الإسلامية [٤] . فقد كانت العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة أوثق من العلاقة بين سكان المدينة الواحدة [٥] . وكان للقبائل العربية النازلة بالمدن الجديدة رؤساء يشبهون رؤساء القبائل فى العصر الجاهلى من حيث سيادتهم على قبائلهم ، ووقوف الشعراء بأبوابهم ويتهم ديمومبين [٦] الخلفاء بأنهم

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١٦٧ .
(٢) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٨٠ .
(٣) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٥٣ .
(٤) بارتولد : الحضارة الإسلامية ص ٣١ .
(٥) النظم الإسلامية ص ١٥٤ .
(٦) النظم الإسلامية ص ١٥٤ .

تسببوا فى إحياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد تعيين رئيس القبيلة ، ويزوده بسلطة عسكرية وإدارية ومالية ، وجرف العرب موالى الأمصار إلى تيار العصبية القبلية وكانوا بعيدين عنها قبل الفتح . فكان أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام يدخلون فى ولاء القبائل العربية حتى يضمنوا حمايتها لهم ، وتعصب كل قوم من الموالى للقبيلة التى حالفوها من العرب (١) .

بذر العرب فى الأمصار فى خلافة عمر بن الخطاب بذور العصبية القبلية ، فقد كان العرب فى كل مرة يمثلون الحزبين الكبيرين اللذين عاشا فى بلاد العرب منذ الجاهلية ، وهما : اليمنية والمضرية . وكان بين هذين الفريقين عداء مستحكما رغم تشابه العادات والأخلاق ، فبلغ اليمنيون درجة عظيمة من الحضارة قبل الإسلام ، فلما انتقلوا إلى الأمصار جنوا ثمار حضارتهم . فأسسوا لهم حكومة منظمة . أما المضريون فكان معظمهم — باستثناء قريش — قبائل بدوية رحالة ، وكان كل بطن من بطونها فى عزلة عن الآخر ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، مما أدى إلى ضعفها وخضوعها إلى سلطان اليمنيين قبل الإسلام (٢) .

ساعد عمر بن الخطاب بغير قصد على ظهور روح العصبية ، فقد كان نظام عطاء الجند الذى سنه دافعا هاما لظهور العصبية القبلية ، فقد كان هذا النظام قائما على أساس السابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول ، فكان يرتب الجند باعتبار القبائل والأجناس مما يؤدى إلى تمييز هذه القبائل على غيرها ، فكان عمر يقدم العدنانيين على القحطانيين لأن النبوة فيهم ، والعدنانيون يشملون قبيلتى ربيعة ومضر ، ثم يقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ، ثم يقدم عمر قريشا من مضر على غيرها ، ثم يفضل عمر بنى هاشم

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٩ .

(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٦٣

على أمية ، ثم يرتب بنى هاشم بدرجة قرابتهم للرسول [١] وبجانب هذه السياسة المالية التى أدت إلى ظهور العصبية القبلية ، فقد كانت سياسة عمر القاضية بعدم اختلاط العرب بالشعوب الأخرى المتحضرة عاملا على احتفاظهم بالتقاليد البدوية بما فيها من تعصب وتنابذ [٢] .

بدأت العصبية القبلية فى عهد عثمان بن عفان تظهر فى صورة واضحة . كانت القبائل العربية فى خلافة عثمان ترى أنها دخلت فى الإسلام كما دخلت قريش ، وهاجرت كما هاجرت ، ولكن قريشا استأثرت بالخلافة والزعامة رغم أن أعباء الفتوح وقع على عاتق القبائل الأخرى . وقد تغلب العنصر الأموى القرشى فى عضد هذه القبائل ، وكان فى الأمصار بيوت شرف أخرى لا تقل مجدا عن البيت الأموى ، مثل بيت قيس ، وبيت تميم ، وبيت شيبان وبيت كنده [٣] وأنف هؤلاء من طاعة قريش واتهموها بالظلم وطالبوا بالمساواة بين جميع القبائل [٤] وكانت هذه القبائل ذات فضل فى الجاهلية ثم ضاع فضلها بظهور الإسلام ، كما أسهمت فى إعلاء شأن الدين الجديد والفتوحات ، ثم لم يفوزوا بثمار جهودهم .

وبعد أن كانت العصبية القبلية فى عهد عثمان بين قريش والقبائل الأخرى ، أصبحت هذه العصبية فى خلافة على بن أبى طالب بين فرعى قريش الكبيرين : بنى هاشم ، وبنى أمية . وانقسمت القبائل بين مؤيد ومعارض لأحد هذين الفرعين . فقد ثار معاوية على على متظاهرا بطلب الثأر لعثمان رأس البيت الأموى ، وهو فى الحقيقة يريد بقاء السلطة فى هذا البيت ، بينما رأى على أن تكون الخلافة فى بنى هاشم وهم آل الرسول وكان على يمثل التيار الإسلامى ، بينما كان معاوية يمثل التيار القبلى .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ . البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣ .
(٢) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٧٠ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٧ ص ١٠٥ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ١٥١

كانت واقعة صفين صورة حقيقية للعصبية القبلية ، ونرى هذا واضحا فى رواية الطبرى ، فقد كان على يسأل عن أسماء قبائل العراق ثم يضع كل قبيلة فى مواجهة مثيلتها بين قبائل الشام ، « وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام ، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى بالشام ليس منها بالعراق أحد »[(١)] .

بدأت موجة قوية من العصبية القبلية فى أوائل العصر الأموى ، فكانت تولية معاوية بن أبى سفيان الخلافة انتصارا لبنى أمية على بنى هاشم فثارت العصبية من جديد . اعتمد معاوية على اليمنيين ، دون المضريين ، فتزوج من قبيلة كلب اليمنية وأنجب منها يزيد ، ولذا ارتفع شأن كلب فى خلافة يزيد ، ومما أثار الغيرة فى قلوب قيس وهى من مضر ، كما قرت عين مضر لخروج عبد الله بن الزبير فى الحجاز فأسرعت إلى تأييده ، ولما مات يزيد أبت مضر بالاعتراف بولده معاوية خليفة وبايعت لابن الزبير[(٢)] .

كذلك اشتد الخلاف بين بني قيس وتغلب ، فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان بن الحكم بينما وقفت قيس دائما موقف المعارض لبنى أمية ، وكانت قيس تنزل قبل الإسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد بطونها وعشائرها حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، أما تغلب فنزلت فى الموصل وأقامت بطونها وعشائرها فى المنطقة الممتدة من الحيرة إلى شواطىء الفرات وإلى بادية الشام . فلما ظهر الإسلام خرجت قبائل قيس للاشتراك فى حركة الفتوح ونزل جزء كبير منها فى الشام وامتدت بعض فروعها إلى منازل تغلب فى الموصل وحوض نهر الفرات[(٣)] . وهكذا كان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان ، مما جعلها مختلفتين فى مصالحهما

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٨ .

(٢) تاريخ العراق للمؤلف ص ٢٤٩ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣١٤

الإقتصادية . وهذا الجانب الإقتصادى هو الذى جعل تغلب تنتهز الفرصة فى مرج راهط وتنضم إلى القبائل اليمنية ضد قيس حتى تخرجها من بلادها إذا دارت عليها الدوائر .

وإلى جانب العصبية القبلية كان هناك عصبية المدن ، فكان عرب كل مدينة ومواليها يتعصبون لمدينتهم رغم مابين الفريقين من كراهية وأحقاد ، وفخر سكان كل مدينة بما تحفل به مدينتهم من خبرات ، وبمن يقيم فيها من الصحابة والعلماء والفقهاء (١) . بدأت عصبية المدن منذ تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط ، فقد اختصم سكان البصرة والكوفة فى خلافة عمر ابن الخطاب حول الفتوح والفيء والخراج . ففى سنة ٢٢ هـ كتب أهل البصرة إلى عمر يشكون عجز خراجهم وسألوه أن يضم إلى مصرهم بعض الأراضى التابعة للكوفة ، مما أدى إلى خصومة المصرين (٢) .

وفى خلافة على بن أبى طالب كانت حرب الجمل بين البصرة والكوفة ، فقد وقفت كل قبيلة من قبائل الكوفة أمام مثيلتها من قبائل البصرة ، فكانت مضر فى القلب ، واليمن فى الميمنة ، وربيعة فى الميسرة فى كل من جيش على وجيش البصرة (٣) . وتجلت عصبية المدن أيضا فى حرب صفين ، فقد كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية . وكان خذلان الكوفة لعلى مظهرا من مظاهر عصبية المدن ، فقد سار على فى الكوفة وفق الاتجاهات الإسلامية ، وكان هذا لا يناسب الكوفيين الذين يؤثرون مصلحتهم على مصلحة غيرهم (٤) .

---

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٩٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ١٣ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٨١ .

(٤) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٧٠ .

ونضيف إلى العصبية القبلية وعصبية المدن **العصبية الإقليمية** ، فقد تعصب كل إقليم عربى وإسلامى على الآخر . وتجلت العصبية الإقليمية فى العصر الأموى فى عدة مظاهر . ففى عهد معاوية كانت البصرة عثمانية فى حين كانت الكوفة علوية ، وكانت الشام أموية . أما الجزيرة فكانت خارجية ، فى حين كانت الحجاز سنية .

وفى خلافة يزيد بن معاوية كانت العراق تؤيد الحسين بن على فى حين بايع الحجاز عبد الله بن الزبير . وكان الحجاج عند بنائه واسط يهدف إلى عدم مخالطة جند الشام لأهل العراق حتى يبقى جنده محتفظين بعصبيتهم الإقليمية ضد أعدائه العراقيين [١] .

**ثانيا – الموالى :**

**كلمة ( مولى ) فى اللغة العربية** تحمل معانى كثيرة تدور حول المحبة والنصرة . فأحيانا تطلق ، ويراد بها لفظ الجلالة ، كقوله عز وجل : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ [٢] ، وتطلق على أبناء العم ، كقوله تعالى : ﴿ وإنى خفت الموالى من ورائى ﴾ [٣] ، كما تطلق على الناصر كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [٤] . ويطلق لفظ « مولى » على المعتق كقول الرسول : « مولى القوم من أنفسهم » ، كما يطلق أيضا على الحليف والجار ، وغير ذلك من المعانى .

أما الموالى فى **الشريعة الإسلامية** فهم نوعان : مولى العتاقة ، وهو الرقيق الذى أعتقه صاحبه ، ومولى الموالاة ، وهو الحليف ، ويسمى أحيانا

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦١ .

(٢) سورة الأنعام آية ٦٢ .

(٣) سورة مريم آية ٥ .

(٤) سورة محمد آية ١١ .

مولى اصطناع أو مولى عقد ، وذلك كأن يقول رجل لآخر : ليس لى عشيرة ولا ناصر ، وإنى إنضم إليك إلى عشيرتك وتنصرنى وتدفع على نوائبى ، وإن مت كان ميراثى لك ، فيعقد بينهما عقد الموالاة .

وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء ، فقال الرسول : « إن مولى مقوم منهم وحليفهم منهم » ، والمراد بالحليف : مولى الموالاة ، لأنهم كانوا يؤكدون الموالاة بالحلف [١] .

**الموالى فى نظر مؤرخى التاريخ الإسلامى** : هم المسلمون من غير العرب ، وكانوا فى الأصل أسرى حرب ، وأصبحوا فى منزلة الرقيق ، ثم أسلموا فأعتقوا وأصبحوا موالى . فقد اقترن إسلامهم بدخولهم فى خدمة العرب وتحالفهم معهم كى يعتزوا بنصرتهم وقوتهم ، فكأنهم أصبحوا فى نفس الوقت موالى حلف وموالاة .

تكاثر الموالى فى الدولة العربية الإسلامية بموالاة الفتح . وتكاثر الرقيق بالأسر والاهداء ، فكان بعضهم يقدم أعدادا من الرقيق بدلا من الخراج ، وكان العمال يوزعون هؤلاء الرقيق على خاصتهم وقوادهم وهؤلاء يفرقونهم فيمن حولهم ، أو يبيعونهم ، فينتقل الرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم .

فمن أنجب من أولئك الأرقاء ، أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى ، غير الذين كانوا يدخلون فى الولاء بالعقد أو غيره [٢] ، وكان العرب يطلقون اسم « الهجين » على من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية ، ويطلقون لفظ « المذرع » على من كانت أمه عربية ، وأبوه أعجميا ، وكانت العرب فى الجاهلية لا تورث الهجين [٣] ، وتكاثر الموالى حتى فاقوا الأحرار فى عددهم فى بعض المدن .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ، الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٧١ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ٤ ص ٩١ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٢٩ .

كان معظم الموالى فى الدولة العربية الإسلامية ، وخاصة موالى العراق من أصل فارسى ، ويتحدثون باللغة الفارسية [١] .

أما موالى السواد : فكانوا يتحدثون بالسريانية [٢] ، وقد احتفظ الموالى بهذه الصفات فترة طويلة ، وكان بعض ولاة العراق يجيدون اللغة الفارسية ، مثل المغيرة بن شعبة الذى أحبه الموالى كثيرا [٣] ، وتأثرت اللغة العربية باللغة الفارسية إذ اقتبست منها كثيرا من كلماتها ، وكانت عامة أهل العراق تستخف هذه اللغة [٤] .

وقد استطاع الموالى الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم ، ولكنهم رغم ذلك حرصوا على التسمى بأسماء عربية ، وخاصة الإسلامية منها ، وإن احتفظوا بخصائص النبط والفرس [٥] ، وقد ساعدهم الأمويون على الاحتفاظ بهذه الخصائص ، فخالفوا الدهاقين ، وحافظوا على الأوضاع الإجتماعية القائمة [٦] .

دخل الموالى ضمن التنظيم القبلى ، وتأثروا بالعصبية القبلية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون إليها ، ويحاربون فى صفوفها ، وكانت حالة الموالى تتأثر بظهور هذه العصبية أو اختفائها ، فكلما وجدت تلك العصبية ساءت حالة الموالى وانحدرت منزلتهم ، حتى إذا ما اختفت تنفس الموالى الصعداء [٧] .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٥٤ .

(٢) ابن النديم : الفهرست جـ ١ ص ١٩ .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢١٨ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ١١ .

(٥) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٤٩ .

(٦) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٧٩ .

(٧) الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ٢٨ .

كان من أبرز العوامل التى أثرت فى حياة الموالى الإجتماعية تعصب العرب ضدهم ، فقد احتقر الأمويون بتثير العصبية جميع الأقوام غير العربية ، وعدوهم فى منزلة إجتماعية أدنى من العرب ، وأبعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة ، ففرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب ، فالعصبية تبدأ للبيت الأموى ، ثم للقبيلة ، ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية (١) .

اختلف المؤرخون فى تحديد عوامل تعصب العرب على الموالى ، وقد بدأت هذه العوامل فى الظهور منذ مقتل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى مولى المغيرة بن شعبة ، فأثار هذا الحادث عصبية العرب نحو الأعاجم سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه ، وبعد أن كان عمر يأمر بمعاملة الموالى برفق . بدأت العصبية ضدهم فى عهد عثمان بن عفان فكتب إلى عماله بالعراق فى تفضيل العرب على الموالى (٢) .

ويعتبر سيديو (٣) الموالى مسئولين عن تعصب العرب ضدهم فقد عاملوهم كما كانوا يعاملون أكاسرة الفرس مما أدى إلى غرور العرب . أما فان فلوتن (٤) فيرى أن العرب لم يكونوا يحترمون سوى مهنة الحرب ولذا اعتبروا الموالى طائفة منحطة لا تكاد تختلف عن طائفة الرقيق فى شيء ، وذلك لامتهانهم طبقات العمال التى نشأ فيها هؤلاء الموالى وازدرائهم تلك المهن التى كانوا يزاولونها . وينسب أحد الكتاب هذه العصبية إلى حرص العرب على أن يعرف الناس أن نسبهم ثابت فى آل البيت أو فى قريش أو فى قبائل البادية على الأقل ، وأنهم ليسوا موالى ، ويدلل على رأيه بأن الموالى أخذوا يلفقون لأنفسهم أنسابا إلى القبائل العربية (٥) .

---

(١) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٧٧ .
(٢) الطبرى : جـ ٥ ص ٦٣ .
(٣) تاريخ العرب العام ص ١٧٣ .
(٤) السيادة العربية : ص ٣٧ .
(٥) عمر فروخ : شعراء البلاط الأموى ص ٣ .

ومن أسباب تعصب العرب على الموالى غيرة العرب على الإسلام واللغة العربية . أما غيرتهم على الإسلام . فقد شعر العرب فى قرارة نفوسهم أن معظم الموالى لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية . فيذكر كريمر [١] أن بعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهريا فقط . ويقول ديمومبين [٢] إن الملاك من الموالى قد اعتنقوا الإسلام ليخضعوا للنظام الإسلامى ، ولكنهم احتفظوا بدينهم وعاداتهم . أما دوززى [٣] فينسب تظاهر بعض هؤلاء الموالى بالإسلام إلى الفرار من دفع الجزية ، فى حين أنهم لا يقومون بتنفيذ أحكام الدين والأخذ بتعاليمه .

وهكذا لم يكن إسلام معظم الموالى حقيقيا صادقا ، ولذا نجد بعض العذر للعرب فى غيرتهم على دينهم الذى بذلوا النفس والنفيس فى سبيل نشره . ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالى بأن إسلامهم قد ساواهم بالعرب [٤] ورأى العرب أن الإسلام لا يرفع الأجنبى إلى المستوى الذى يؤهله للمساواة بالعربى الأصيل ، بل اعتبر العربى نفسه دائما من الأمة الحاكمة التى عهد إليها بحكم الأجانب [٥] وكان العرب يفخرون دائما على الموالى بأنهم أخرجوهم من الشرك إلى دين الهداية فكان لسان حالهم يقول : « لو لم يكن منا على الموالى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا لهم من الكفر وإخراجنا لهم من دار الإيمان » [٦] .

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٧٤ .

(٢) النظم الإسلامية ص ١٦٤ .

(٣) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٣٩١ .

(٤) Nicholson : A Lit. Hist. of The Arabs, P.S 47.

(٥) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٧٩ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٢

كان موالى العراق أكثر من موالى الشام رغبة فى تعلم اللغة العربية ، وأدى هذا إلى تأثر اللغة العربية باللغة الفارسية ، ودخول كلمات أعجمية إلى اللغة العربية وانتشار اللكنة الفارسية بين العرب مع فشو اللحن ، فكان عبيد الله بن زياد والى العراق ممن تميز باللكنة الفارسية [١] . وشعر أبو الأسود الدؤلى بالغيرة على اللغة العربية فاستأذن زياد بن أبية فى وضع علم النحو [٢] كما كانت الغيرة على اللغة العربية من العوامل التى أدت إلى حركة تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد . ويرى نيكلسون [٣] أن حركة التعريب هى فى الحقيقة إثبات لتقدم الكتابة العربية .

كان العرب يطلقون على الموالى من أبناء الفرس لفظ « الحمراء » كما كانوا يسمونهم العجم [٤] ، والأعجم فى اللغة العربية هو الأخرس أو الأخرز وهو ذو العين الضيقة . وقد عدد ابن عبد ربه [٥] عدة أمثلة لاحتقار العرب للموالى فى العصر الأموى ، فقد قدم نافع بن جبير بن معطم رجلا من الموالى يصلى به ، فعاب عليه العرب ذلك ، فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه : وكان نافع إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشى . قال : واقوماه ! وإذا قالوا : عربى ، قال : وابلوتاه ؟ وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله يأخذ ماشاء ، ويدع ماشاء . وكان العرب يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة ، حمار أو كلب ، أو مولى . وكان العرب لا يكنون الموالى بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ،

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٤١ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١١ ص ١٠٢ .

(٣) A Lit Hist. of The Arabs, P. 201.

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠١ .

(٥) العقد الفريد : جـ ٣ ص ٤١٢ – ٤١٣

ولا يمشون فى الصف معهم ، ولا يقدمونهم فى الموكب ، وإن حضروا طعاما قاموا على رءوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدع العرب مولى يصلى على الموتى إذا حضر أحد من العرب ، وكان العربى إذا أراد الزواج من بنات الموالى خطبها من مولاها وسيدها لا من أبيها أو أخيها ، وإن زوجها أبوها أو أخوها بدون رضاء سيدهم اعتبر العقد باطلا أما زواج المولى من عربية فهو جريمة لا تغتفر ، وللوالى أن يفرق بينهما فى الحال [١] ، « فقد تزوج عبد الله بن أبى كثير مولى بنى مخزوم بالعراق فى ولاية مصعب بن الزبير امرأة عربية ، ففرق مصعب بينهما » [٢] .

استخدم العرب الموالى فى الحروب كمشاة ورفضوا أن يشاركوهم فى امتطاء الجياد . وكان المختار أول من سمح لهم بركوب الخيل [٣] . وقد خدعه العرب وخوفوه من هرب الموالى أثناء القتال ونصحوه بأن يجعلوهم كما كانوا مشاة فاتبع نصيحتهم مما أدى إلى هزيمته [٤] وكان هناك عشرون ألفا من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق [٥] وكان العرب يعتقدون أن مهنتهم الأولى الحرب ، وأنهم إذا أشركوا مواليهم معهم فهذا استثناء ، فالموالى لم يخلقوا إلا للحرف والمهن الوضيعة ، كما قال عربى : « يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا » [٦] .

كان العرب يكرهون أن يقاسمهم الموالى العطاء . فثاروا فى وجه الوليد

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٣ . الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١١٤ .
(٣) الطبرى : جـ ٧ ص ١٤٧ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٠٣ .
(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ١٣٤ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٤

ابن عقبة فى خلافة عثمان لأنه أعطى العبيد والموالى نصيبهم من العطاء [١] على أن الموالى ما لبثوا أن ثاروا فى عهد عبد الله بن الزبير لانقطاع العطاء عنهم [٢] . وكان فرض المختار العطاء للموالى سببا لثورة العرب عليه . وكان الولاة الأمويون يرغمون الموالى على حمل الهدايا إليهم في عيدى النيروز والمهرجان [٣] ولم يقف اضطهاد الأمويين للموالى عند هذا الحد ، بل فرضوا عليهم الجزية رغم اعتناقهم الإسلام ، وكانت اصلاحات عمر بن عبد العزيز وإعفاء الموالى من الجزية سلاحا ذا حدين ، فقد هدأت معارضة الموالى ولكنها أيقظت فيهم آمالا لم تستطع الحكومات التالية أن تنفذها [٤] .

كان للموالى فضل كبير على الإسلام والعروبة ، فقد كان ترحيب الموالى بالعرب عاملا هاما فى سهولة فتح الأمصار . وكان الموالى يحملون دائما أعباء الحرف والمهن ، وقامت على أكتافهم النهضة الزراعية والصناعية والتجارية ، كما وقف الموالى وراء العرب فى حروبهم المختلفة وقاموا بنصيب كبير فى الفتوحات الإسلامية وخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك . وكانت ميادين الحضارة الفارسية منهلا نهل العرب منه الكثير ، فقد قلد العرب الفرس فى طعامهم وملابسهم وموسيقاهم وغنائهم ونظم الحكم والإدارة ، فقد كانت الموالى أكثر حضارة وأعظم نظما اجتماعية فسادت حضارتهم .

تمتع الموالى فى العصر الأموى بنظام اجتماعى يعد أفضل من مثيله فى الدولتين البيزنطية والفارسية . فكان النظام الفارسى اقطاعيا يقوم على طبقتين اجتماعيتين : أولهما الطبقة الأرستقراطية وتشمل الدهاقين الذين كانوا يملكون الأرض ويستأثرون بالخير ويكونون حلقة الاتصال بين الأكاسرة

---

(١) الطبرى : جـ ٥ ص ٦٢ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ١٨٨ .
(٣) اليعقوبى : جـ ١ ص ١٩٤ .
(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٥٨ .

والأهالى [١] وثانيهما طبقة الشعب وتتألف بدورها من طبقات متحاجزة تحاجزا تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض [٢] . وأدى هذا النظام إلى ظهور مزدك الذى نادى بأن : « الله جعل الأرض لعباده بالسوية ، فتظالم الناس واستأثر بعضهم على بعض ، ونحن قاسمون بين الناس ، ورادون على الفقراء حقوقهم فى أموال الأغنياء » [٣] . ولما جاء الإسلام قضى على نظام الطبقات الفارسى . ويعترف جوزى [٤] بذلك فيقول : معاذ الله أن أنكر فضل بنى أمية على الأمة العربية وبعض حسناتها على الأمم المغلوبة كالفرس مثلا ، فقد ألغوا النظام القديم المبنى على تفاوت الطبقات ، وساووا بينهم فى الحقوق والواجبات ، ويرى كريمر [٥] أن الموالى كانوا يتمتعون نظريا بالحقوق والميزات التى تمتع بها العرب الخلص .

كان للموالى نصيب أكبر من نصيب العرب فى الوظائف العامة ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالإدارة المالية [٦] ، فكان عامل خراج وكاتب زياد بن أبيه من الفرس [٧] . بل إن مصعب بن الزبير الذى عرف بكراهيته للموالى ولى أحد رجال الفرس أمر خراجه [٨] . وظل شريح قاضيا على الكوفة خمسا وسبعين سنة من عهد عمر بن الخطاب إلى عهد الحجاج ، وكان من أصل فارسى [٩] . وكان عبيد الله بن زياد يقرب الموالى ويجفو العرب ، كما أنشأ جيشا من الموالى سماه « المحاربة » ليحارب بهم العرب [١٠] كذلك أسند

---

(١) كريمر : الحضارة الإسلامية ص ٧٨ .
(٢) العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ٩١ .
(٣) ابن نشوان : الحور العين ص ١٤٢ .
(٤) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٥ .
(٥) الحضارة الإسلامية ص ٧٩ .
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦ .
(٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٤٤ .
(٩) الدميرى : حياة الحيوان جـ ١ ص ٢٦ .
(١٠) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٢ .

المختار بن أبى عبيد الثقفى إلى الموالى ، الوظائف وأعد جيشا منهم [١] .

وصفوة القول أن الثروة كانت مركزة فى أيدى الفرس فضلا عن الإدارة التى حرصوا على بقائها فى أيديهم [٢] ولم يكن هناك مبرر لشكوى الموالى من امتناع العرب عند تزويج بناتهم لأحد منهم ، فقد كان الفرس زمن الدولة الساسانية يمنعون زواج العرب من الفارسيات أما شكواهم من تعريب الدواوين فلا محل لها ، إذا احتفظ العرب بالموظفين الموالى الذين يجيدون العربية ، فضلا عن بقاء نفس النظام الإدارى الفارسى القديم ، مع بعض التعديلات لمسايرة التطور .

## ثالثا – أهل الذمة :

الذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الإسلام من غير المسلمين وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . فإن تقاليد الإسلام ، كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام ، فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ومن الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى اتباع الملل المعترف بها وهى : المسيحية واليهودية ، والمجوسية ، والسامرية ، والصابئة .

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

(٢) Sykes. Hist of Persia, VI, P. 533 .

ويوضح معاملة الرسول للمسيحيين عهده لأمير ( أيله المسيحى ) فقد جاء فيه : ( بسم الله الرحمن الرحيم ، وهذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنه بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد والنبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر ) (١) .

لما تم العرب فتح الأمصار رحب بهم أهل الذمة ، فقد أملوا فى الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية ، والخلاص من ظلم حكامهم ، والاعفاء من الخدمة العسكرية ، والتمتع بالحرية الدينية التى يسمح بها الاسلام مقابل دفع الجزية . وكان ترحيب أهل الذمة عاملا على نشر الإسلام ، فإن هذا الدين لم يقابل عدوا قويا (٢) فقد دعا العرب المسلمون أهل الذمة إلى الإسلام ، وأعلنوا أن المحارب إذا أسلم يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولذا دخل فى الإسلام جموع هائلة من أهل الذمة ، واعتقد بعضهم أن توفيق العرب فى الفتوح هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم (٣) . وأما من بقى من أهل الذمة على دينه ، فقد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب (٤) وكانت كتب الصلح صورة صافية لتسامح المسلمين .

كان على أهل الذمة طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين واجبات ولهم فى مقابلهم حقوق . أما **الواجبات** : فكان على أهل الذمة أن يدفعوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) S.L. P cole Studies in a Mosque, P. 81

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥ .

(٤) Shedd. Islam and the Oriental Ghurches, P. 97

الجزية ، على الموسر ٤٨ درهما وعلى متوسط الحال ٢٤ درهما ، وعلى الفقير ١٢ درهما [١] مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين وكان يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان ، أحدهما مستحق والآخر مستحب . ويشمل الشرط المستحق ستة أمور يجب على أهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح فى الإسلام ، وألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا بنكاح ، وألا يحولوا مسلما عن دينه ، وألا يعينوا أهل الحرب ، أما الشرط المستحب فتشمل أيضا أمورا ستة ، فعليهم لبس الغيار وشد الزنار ، وأن تكون مبانيهم أقل ارتفاعا من مبانى المسلمين ، وألا يسمعوا المسلمون أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو إظهار الصلبان والخنازير ، وإخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم ، وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير [٢] وكان على أهل الذمة ألا يحدقوا ببيعة أو كنيسة ، ولكن يجوز بناء ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة [٣] ، كما كان على فلاحى الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والإرشاد وضيافة أبناء السبيل [٤] .

أما حقوق أهل الذمة فهى الكف عنهم والحماية لهم [٥] ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم [٦] وفى الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تتم عن تسامح وعطف وكرم . فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية بينما هم معفون من الصدقات [٧] وكانت الجزية

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٢٢ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٤) الطبرى : جـ ٤ ص ١٨٤ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧

(٧) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٠

تساوى ما يدفعه المسلم من صدقة [١] وكانت مقابل عدم إسلامهم والسماح لهم بالبقاء على دينهم [٢] وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان [٣] . وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المسلمون عليهم ، فكان المسلمون لا يقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يسبوا ذراريهم ، بل كانوا يكتفون بطردهم من بلاد المسلمين [٤] وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنبا إلى جنب ، فقد اشتركوا مع المسلمين فى تخطيط المدن الإسلامية الجديدة ، وعاشوا جميعا فى سلام .

**أما عن معاملة المسلمين للمجوس** ، فقد اختلف المسلمون فى اعتبار المجوس من أهل الكتاب ، فالماوردى [٥] يذكر أن « أهل الكتاب هم اليهود والنصارى وكتابهم التوراة والإنجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم وإن حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصابئة والسامرة إذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقدهم » . ويؤكد البلاذرى [٦] أن المجوس من أهل الكتاب . أما أبو يوسف [٧] فيروى أن الرسول وأبا بكر وعمر أخذا الجزية من المجوس ، وأن عليا قال : أنا أعلم الناس بهم كانوا أهل كتاب يقرأونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم . أما الشهرستانى [٨] فيذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب . ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية ، وإن لم يستحل

---

(١) الطبرى : جـ ٤ ص ١٩٨ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٥ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ – ٧٠ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .

(٦) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

(٧) الخراج ص ٧٤ .

(٨) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٨ .

مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم [١] وظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة فأبو يوسف حفظ لنا خبر أخذ عدى بن أرطأة عامل عمر بن عبد العزيز فى العراق الجزية من المجوس [٢] .

وجد أهل الذمة من مصلحتهم تعلم اللغة العربية ، وكان تسامح العرب مع أهل الذمة سببا فى إقبالهم على تعلم لغتهم والعمل بالنظم العربية [٣] . حتى أصبحت اللغة العربية بمرور الوقت لغة معظم المسيحيين [٤] أما مجوس العراق وفارس فكانوا يتحدثون باللغة الفهلوية [٥] وحرص المجوس عند إسلامهم على تغيير أسمائهم إلى أسماء عربية وعلى تعلم اللغة العربية [٦] .

تمتع أهل الذمة بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج وارتبطت بالفعل قضاياهم فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين ، أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم .

كان عدد كبير من أهل الذمة يشتغل بفلاحة الأرض ، فقد ترك عمر ابن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية . ومن المهن التى اشترك فيها النصارى واليهود الطب ، فقد كان القسس يعالجون المرضى ، وكانت الأديرة مراكز للعلاج من الأمراض ، واشتهرت بعض الأديرة بالمياه الكبريتية [٧] . كذلك نبغ أهل الذمة فى التجارة والصناعة فكان اليهود

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٥ .

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠ .

(٤) Shedd : Islam and the Oriental Churches, P. 97.

(٥) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ١٣٧ .

(٦) Shorter Encycl of Islam, P. 299.

(٧) الشابشتى : الزيارات ص ١٩٦ .

يحترفون الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن [١] . وكان الصناع وأصحاب الحرف ، وأهل الطبقة العاملة من أهل الذمة أسرع الناس إلى الإسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة [٢] .

كان لحياة أهل الذمة الإجتماعية فى الدولة العربية الإسلامية فى رأى المستشرقين المجحفين ناحيتان : ناحية سيئة تميزت بالمضايقات ، وناحية حسنة حفلت بمظاهر التكريم وحسن المعاملة . ونبدأ بذكر **المضايقات التى ذهب إليها هؤلاء المستشرقين الظالمين** . يتهم ( جوزيف هل ) [٣] العرب فيذكر أن نظم الضرائب التى وضعوها تدل على أن غرض الفتح ليس نشر الإسلام بل الاستيلاء على ثروة أهل البلاد . كما يتهم ( فان فلوتن ) [٤] العرب بأنهم اعتقدوا أن أملاك أهل الذمة وأرضهم كانت ثمنا لمنحهم حرية البقاء على أديانهم وأنها جزاء من الله للمؤمنين منهم . أما ( فون كريمر ) [٥] فيزعم أن السكان غير المسلمين لم يكن لهم حقوق تقريبا ، وأنه كان عليهم أن يعطوا ويقدموا الأموال للحكومة الجديدة بقصد معونة الجيش والمحافظة عليه بصفة خاصة . أما ( دوذى ) [٦] فيذهب إلى أنه رغم تسامح المسلمين ، إلا أنهم لم يضعوا المسيحى والمسلم فى صف واحد ، بل نظروا إلى النصرانى كما ينظرون إلى جنس منحط . ويتهم جوزى [٧] العرب ظلما بأنهم فرضوا الضرائب الباهظة على أهل الذمة ، ونظروا إليهم نظرتهم إلى بقرة حلوب ومورد جديد للإثراء ، وعاملوهم كمعاملة يهود أوروبا فى العصور الوسطى أو فى روسيا .

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٢٠٥ .
(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢ .
(٣) The Arab Civilization p. 47.
(٤) السيادة العربية ص ٤٣٠ .
(٥) الحضارة الإسلامية ص ٦٩ .
(٦) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٤٠١ .
(٧) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٣ .

هذه هي اتهامات المستشرقين المجحفين للعرب في معاملتهم لأهل الذمة ، ولكن يشوبها كثير من المبالغات . والحقيقة أن أهل الذمة تعرضوا لقليل من المضايقات في فترات قصيرة جدا في الدولة العربية الإسلامية ، ولكنهم تمتعوا دائما بكثير من المميزات ومظاهر المعاملة الحسنة .

اشترط **عمر بن الخطاب** على أهل الذمة لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وأمرهم أن يجعلوا في أوساطهم الزنارات ، وأن تكون قلانسهم مضربة وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل [١] ، وكان يرمى عمر من وراء ذلك إلى سهولة التمييز بين أهل الذمة والعرب ، من جهة ، وإلى تشجيع الذميين على اعتناق الإسلام من جهة أخرى .

تمتع أهل الذمة في عهد عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وفي العصر الأموى منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إلى عصر عبد الملك بن مروان ، بالحرية الدينية والتسامح . ولكن أهل الذمة في العراق في عصر الحجاج بن يوسف والى عبد الملك عانوا الكثير من سياسته ، فقد ظن بعض أهل الذمة أن إسلامهم سيخلصهم من دفع الجزية فأقبلوا على الإسلام وخرجوا من قراهم إلى مدن العراق ، ولكن الحجاج ختم أسماء قراهم على أيدهم وأعادهم إليها بالقوة [٢] . ووضع عبد الملك ضرائب استثنائية على أهل الذمة وجعل الجزية في الجزيرة بقية دخل أهل الذمة . وحاول بعض أهل الذمة الفرار من الجزية فترهبنوا لعلمهم باعفاء الرهبان فيها ، ولكن الحجاج فرض الجزية على جميع الرهبان ، كما كان يشتد على أهل الذمة إذا ما تأخروا في دفع الجزية [٣] وقام الحجاج بإقصاء العمال الذميين عن

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ٢٩ .

وظائف الدولة بالعراق [١] . ولكننا نعلم أن مظالم الحجاج امتدت إلى كثير من المسلمين أيضا .

تضايق أهل الذمة فى **عهد عمر بن عبد العزيز** من بعض قراراته ، ولذا يصفه جولدتسيهر ظلما [٢] بالخليفة المتعصب . أما ميور [٣] فيرى أن غيرة عمر على الإسلام هى التى دفعته إلى مضايقة النصارى واليهود . كتب عمر إلى عدى بن أرطأة عامله على العراق : « مروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم . ويلبسوا الأكسية ، ولا يتشبهوا بشىء من الإسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين » [٤] . وكتب عمر رسالة أخرى جاء فيها : « لا يركب نصرانى سرجا ، ولايلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ، ولا يمشين بغير زنار من جلد ، ولا يمشى إلا مفروق الناصية ، ولا يوجد فى بيت نصرانى سلاح إلا أخذ » [٥] . وأمر عمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة [٦] . ويذكر المستشرق ترتون أن عمر أمر أهل الذمة بأن يفسحوا المجال للمسلمين فى الطرقات وأماكن الاجتماع ، وحتم عليهم أن يحملوا شعارا معينا على أكتافهم ، يكون لونه أزرق للمسيحيين وأصفر لليهود ، وأسود أو أحمر للمجوس ، ويجب أن تكون بيوتهم أقل ارتفاعا من بيوت المسلمين . وكانت الكنائس والبيع التى سمح لأهل الذمة بالاحتفاظ بها موضوعا لنزاع حاد ، وقد أزيل بعضها وحرم إصلاح البعض الآخر ، بحيث أصبحت خرابا . ورغم ذلك كله ، كان عمر يصر على التحاق الذميين بالجيوش الإسلامية [٧] .

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٨١ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٨١ .

(٣) The Caliphate, P. 307.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٣٦ .

(٥) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٦٣ .

(٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٥ .

(٧) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٢٠٠ .

ولكننا لا نوافق هؤلاء المستشرقين المجحفين على آرائهم فقد اشتهر عمر بالعدل والتسامح . كما سنرى .

هذا . بينما اعترف بعض المستشرقين للمسلمين بحسن معاملتهم فى هذا العهد ، فيقول أرنولد [١] أن المسلمين لم يألوا جهدا فى معاملة رعاياهم من المسيحيين ، كما أكد بارتولد [٢] أن النصارى كانوا أحسن حالا تحت حكم المسلمين ، إذ أن المسلمين – كما يذكر جولد تسيهر [٣] اتبعوا فى معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل ويذكر ( شد ) [٤] أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تتميز بالتسامح ، ويمتدح جوزى [٥] بنى أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة بالحسنى .

والحقيقة التاريخية أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية تماما ، فضلا عن حسن المعاملة ، فقد كان التسامح شعار الإسلام . ولم يكن الفتح العربى حربا صليبية . ويدلل أرنولد [٦] على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة ، وهو البطريق النسطورى يشوع ياف الثالث كان قد بعث بها إلى رئيس أساقفة الفرس ، وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التى أتبعها العرب فى نشر الإسلام : فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه إلى ساداتهم السابقين الفرس من الضرائب [٧] . ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشربهم الخمر [٨] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٦٥ .
(٢) الحضارة الإسلامية ص ١٩ – ٢٠ .
(٣) العقيدة والشريعة ص ٣٨ .
(٤) Islam and the Oriental Churches .
(٥) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٥ .
(٦) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥ .
(٧) لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .
(٨) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٦٦ .

تفاوتت درجات المعاملة الحسنة التى لقيها أهل الذمة باختلاف الخلفاء والولاة ، وقد اعترف أهل الذمة لعمر بن الخطاب بتسامح ولاته حين سألهم عن ذلك ، فقالوا : ما تعلم إلا وفاء وحسن ملكه [١] . وكان فى وصية عمر عند وفاته نصيب لأهل الذمة ، فقد أوصى بأن « يوفى لهم بعهدهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم » [٢] . ولدينا وثيقة هامة تدل على تسامح العرب الفاتحين ، كتبها بطريق النساطرة إلى نصارى العراق وفارس جاء فيها : « إن العرب الذين منحهم الله زمام العالم فى هذه الآونة أصبحوا فى صفنا كما تعلمون وهم لا يضطهدون المسيحية بل يمتدحون عقيدتنا ويحترمون قسيسينا وقديسينا ، ويساعدون كنائسنا وهياكلنا » [٣] وسار عثمان بن عفان وولاته بالأمصار على سيرة ولاة عمر فى التسامح مع أهل الذمة ، فقد كان – على سبيل المثال – الوليد بن عقبة يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم الخمر والخنازير كل شهر ، وضمن لهم أرزاقهم شهريا ، كما تمتع أهل الذمة فى خلافة على بن أبى طالب بالمعاملة الحسنة ، فقد أعطى النصارى من العطاء وساواهم بالعرب والموالى [٤] . وكان يوصى عماله فى كل مكان بأهل الذمة [٥] خيرا وأمر عاملا له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم [٧] واشتكى يهودى عليا إلى شريح قاضى البصرة فأنصفه شريح من الخليفة مما أدى إلى إسلام اليهودى وقتاله فى صفوف على [٨] .

---

(١) الطبرى : جـ ٢ ص ٢١٨ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٢١ .

(٣) Shed; Islam and the Oriental Churches, P. 110.

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣١ .

(٥) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٥٩ .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٧) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٦ ص ٣٦ .

(٨) Lammens : Etudes sur le Regnedu Calife Omaiyade Muoaw ier, P. 309.

افتتح معاوية بن أبى سفيان عهدا جديدا من التسامح مع أهل الذمة فقد عين لولد يزيد مربيا مسيحيا ، وبالتالى كلف يزيد كاهنا مسيحيا بتثقيف ولده خالد [١] وعامل المختار بن أبى عبيد الثقفى أهل الذمة معاملة حسنة ، وكان يزعم أنه سيزوج ابنته للمسيح [٢] . أما الحجاج الذى اتهمه المؤرخون باضطهاد أهل الذمة ، فقد كان عامله بخراسان يبنى لأهل الذمة البيع ، وقد سمح له الحجاج بذلك [٣] وكان الأخطل الشاعر المسيحى يدخل المساجد فى دمشق والكوفة فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فيقف المسلمون إجلالا » [٤] .

كذلك امتاز عهد عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهل الذمة . فنفى بارتولد [٥] عن عمر بن عبد العزيز منعه النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة . كما ذكر دوزى [٦] أن المسلمين لم يتمسكوا بتنفيذ شرط تجديد بناء الكنائس التى تهدم ، ويرى أن هذا الشرط وغيره لم يكن يطبق بحذافيره إلا فى أحوال استثنائية نادرة ، والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته ، فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه [٧] كما نهى عمر عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التى تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم [٨] .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) انظر كتابنا ( المختار الثقفى ) ، سلسلة أعلام العرب .

(٣) ابن النديم : الفهرست جـ ٢ ص ٤٦٧ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧١ .

(٥) الحضارة الإسلامية ص ٧١ .

(٦) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

(٧) الطبرى جـ ٨ ص ١٤١ .

(٨) الطبرى : جـ ٨ ص ١٣٩ .

وكتب عمر إلى عامله بالكوفة أيضا أن يعطى أهل الذمة ما بقى من خراج الكوفة ، فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ، ثم ختم رسالته بقوله : « قو أهل الذمة فاننا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين » [١] . وكان عمر يجعل صدقات بنى تغلب – القبيلة المسيحية – فى فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال [٢] .

تمتع أهل الذمة فى الدولة العربية الإسلامية بنصيب كبير من **الوظائف** وقد أيد ديمومبين [٣] هذا الرأى بقوله : إن أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة فى حياة الدولة الأموية وكثر عددهم فى الدواوين والمصالح وزاد بارتولد [٤] عليه بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور . كذلك كان لليهود نصيب فى الوظائف العامة ، فقد كان كاتب أبى موسى الأشعرى والى العراق يهوديا ، وكان يركن إليه ولا يثق بغيره ، ورفض أبو موسى ما أمره به عمر بن الخطاب من عزل هذا الكاتب اليهودى [٥] ويكفى اليهود فخرا أن سمير اليهودى قام بضرب الدراهم فى خلافة عبد الملك بن مروان وأنها سميت باسمه ( الدراهم السميرية ) [٦] .

لم يكن **النظام المالى** الذى عومل به أهل الذمة فى العصر العربى الإسلامى قاسيا أو ظالما . فذكر ( فون كريمر [٧] أنه لم يلاحظ فى نظام الضرائب شيئا مجحفا ، ويرى ( فان فلوتن ) [٨] أن الضرائب ليست فادحة

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .
(٢) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٢ .
(٣) النظم الإسلامية ص ١٦٧ .
(٤) الحضارة الإسلامية ص ٢١ .
(٥) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣ .
(٦) المقريزى : كتاب النقود القديمة الإسلامية ص ٣٥ .
(٧) الحضارة الإسلامية ص ٨٣ .
(٨) السيادة العربية ص ٢٠ .

بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابا لأهل الذمة ، فهى نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم ، وقد فرض الإسلام على المسلم الصدقة ( الزكاة ) حتى يتكافأ الذمى والمسلم فى الواجبات وكانت الجزية أكثر قليلا من صدقة المسلم فى حين يقوم المسلم بأعباء الجندية . وكان نظام الجزية عادلا ، فقد كان حسب مقدرة الفرد المالية ، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال ، كما أعفا النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان ، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء .

رابعا – الرقيق :

عرف الفقهاء المسلمون الرق بأنه عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر . وترجع تسميته بأنه ( عجز ) إلى أن الرقيق لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما . أما أنه ( حكمى ) فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال الحسية من الحر . أما الأفرنج فيعرفون الرق بأنه حرمان الفرد من حريته الطبيعية بحيث يصبح ملكا للغير [١] . وقد سمحت التوراة بالرق إلا أن العبد كان يسترق سبع سنين يصبح بعدها حرا . وعرف الرومان واليونان الرق ، وقد منح القانون الرومانى للسيد حق قتل رقيقه ، وكثر رقيق الرومان حتى فاقوهم فى العدد ، وجاءت المسيحية فتحسنت حالة الرقيق . ثم جاء الإسلام فاحتفظ بنظام الرقيق القديم الذى أقرته التوراة من قبل ، ولكن الإسلام هذب هذا النظام وأزال ماكان يشوبه من شوائب . وكان العرب فى الجاهلية يغزون بعضهم بعضا ويسترقون رجال ونساء أعدائهم . وعندما دخل العرب المسلمون العراق والشام ومصر كانت عامة السكان تشكو من الرق والاستعباد ، فجاءهم الإسلام رحمة ونجدة .

---

(١) أحمد شفيق : الرق فى الإسلام ص ٧ .

كان معظم طبقة الرقيق فى المجتمع الإسلامى من أسرى الحروب خلال الفتوحات العربية الإسلامية فى العراق وفارس والشام ومصر وغيرها ، وخير القرآن الكريم المسلمين بين قتل الأسرى أو فدائهم أو المن عليهم بإطلاق سراحهم بغير فداء ، أو الاسترقاق [١] . ولم يسترق العرب الفاتحون إلا حاميات المدن التى قاومهم مقاومة عنيفة ، وكان المسترقون من الأسرى يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس وتوزع أربعة الأخماس الباقية بالتساوى على الجند وتزايد عدد الرقيق بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة النطاق فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك .

كان أسرى الحروب يوزعون على المحاربين المسلمين بعد إرسال الخمس إلى الخليفة فى حاضرة الدولة ، وكان الأسرى يعدون أحيانا بالألوف بحيث كانت حصة المسلم المحارب تصبح عظيمة مما يضطرهم إلى بيع أسراهم بدراهم قليلة للأسير الواحد ، وخاصة إذا لم يكن المحارب يملك مزرعة يستخدم فيها هؤلاء الأسرى ، أو يمتهن حرمة يحتاج فيها إلى من يساعده ، ففى هذه الحالة يصبح الأسير عالة على سيده .

زاد عدد الرقيق زيادة كبيرة فى العراق ، فكان يوجد عند الواحد من العرب عشرة أرقاء أو مائة أو ألف ، بل كان بيت الفقراء من عامة الناس لا يخلو من عبد أو أكثر يقومون بالخدمة بسبب رخص أسعار الرقيق نتيجة تكاثرهم . وكان الأمير ووجوه القوم يسيرون فى طرقات البصرة والكوفة وخلفهم مئات العبيد فيؤلفون موكبا عظيما وكان الأرقاء يختلفون فى أشكالهم وألوانهم ، منهم أسود اللون وهم أسرى فتوح الهند أو أصفر اللون وهم عبيد الصين أو التركستان [٢] .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٩ ص ٧٥ .

على أن الأمر الذى يجدر ملاحظته أن العبيد لم يكونوا جميعا من الأسرى ، بل كان منهم من صار شراؤه من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة فى أرجاء الدولة العربية الإسلامية فى ذلك الحين . وكان العرب يشترونهم لاستخدامهم فى زراعة الأرض أو مساعدتهم فى حرفهم أو خدمتهم فى قصورهم وبيوتهم ومساعدتهم فى حروبهم مع ملاحظة أن العربى لا يسترق إطلاقا ، ولم تخالف هذه القاعدة إلا فى حالات نادرة ، منها ما فعله الأمويون بعد إخماد ثورة يزيد بن المهلب فقد باعوا النساء والأطفال فى أسواق الرقيق خلافا للمعتاد [١] .

احتفظ القرآن بنظام الرق فى دائرة ضيقة ونصح بحسن معاملة الرقيق وبالعمل على تحريرهم . قال الرسول : « لا يقولن أحدكم لمملوكه عبدى أو أمتى ، ولكن يقول فتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى وربتى ، ولكن يقول سيدى وسيدتى » وحبب الإسلام للمسلمين عتق رقيقهم وجعله كفارة عن كثير من الذنوب والآثام ، فضلا عما فيه من تقرب لله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾ [٢] ، وجاء فى الحديث الشريف : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجة » . أما الذنوب التى جعلت كفارتها عتق الرقيق فهى عديدة ، أبرزها كفارة القتل الخطأ كقول المولى عز وجل : ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ، ومنها الكفارة عن الحنث فى اليمين .

ولكن العتق لم يكن يقطع الصلة بين السيد ورقيقه ، بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى « الولاء » فالمعتق مولى للعاتق ، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع الدية من مولاه إذا ارتكب جناية ، وثانيهما أن يرث السيد

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٥٧ .

(٢) سورة البلد الآيات ١١ — ١٣

معتقه . فقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عماله : « مولى العتاقة يورث ولا يرث » [١] ومن أهم العوامل التى أدت إلى تحرير العبيد هى الأحوال الإقتصادية [٢] . إذ أن الاحتفاظ بالعبيد كان يكلف غاليا إذ يستلزم إطعامه وإكساءه فى حالة عمله أو بطالته ، فإعتناق العبد كان يخلص السيد من أعباء مادية وخاصة فى الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية . وكان السيد يتحايل أحيانا على التخلص من أعباء الانفاق على الرقيق ، فيمنحهم حرية العمل مع الاحتفاظ بحقوق الاسترقاق .

كان الرقيق محروما من بعض ما يتمتع به أسيادهم ، فكانت حقوق الرقيق فى الأمور المدنية أقل من حقوق الأحرار ، فقد كان عليهم أن يحملوا فى أعناقهم ختوما تشير إلى رقمهم ، ولم يكن لهم أن يتزوجوا أكثر من زوجتين والطلاق عندهم طلقتان ، وكانت عدة الأمة شهران ولا تجوز شهادة الرقيق . وإذا ارتكب الرقيق جريمة قتل فلأهل القتيل أن يقتلوا العبد القاتل أو يأخذوه بقيلهم أو يطلبوا دية كاملة من سيده ، أما إذا قتل العبد فإن ديته تختلف حسب قيمته ، ولا يجوز أن يقتل الحر بالعبد . ولكن إلى جانب ذلك تمتع الأرقاء بحسن المعاملة ، وخاصة إذا قارنا ذلك بحالتهم قبل الفتوحات العربية الإسلامية ، كما أصبح الرقيق اجتماعيا أفرادا فى الأسر العربية .

كان العرب يطلقون إسم ( عبد العين ) على العبد الذى لا يخدم إلا ما دامت عليه عين مولاه [٣] ، وكانو يسمون العبد الذى يشتغل فى الأرض ( القن ) [٤] . وكان العرب يستخدمون آلافا من الرقيق فى الزراعة . وجعل عمر بن عبد العزيز رقيق الخمس فى خدمة ذوى العاهات والعميان [٥] .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٣٦ .
(٢) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة ص ٦١ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٢٩ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٣ .
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٥ .

فقد كانت الدولة تمتلك رقيق الخمس وأصله حصتها من أسرى الحرب الذين لم يسرحوا أو يوزعوا على الجند المسلمين ، وتتمتع الدولة بكافة الحقوق التى يتمتع بها الأفراد على رقيقهم ، فلها أن تبيعهم أو تستخدمهم فى الأعمال المختلفة أو تعتقهم ، كما أنها كانت مسئولة عما يرتكبون من جرائم ، كما كانت مسئولة عن طعامهم وملابسهم ، وكانت تدفع لهم ثلاثة دراهم فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

تمتع الرقيق بكثير من المميزات ، فكان للرقيق الذين يشتركون فى القتال نصيب فى العطاء [1] . وقد ساوى عمر بن الخطاب بين الحر والعبد فى الرزق فجعل لكل منهما مديى حنطة وقسطى زيت وقسطى خل فى كل شهر [2] وكان الوليد بن عقبة والى عثمان بن عفان بالعراق يقسم للولائد والعبيد مما أدى إلى غضب الأحرار [3] .

كان من حق الرقيق امتلاك الأموال ، بل لهم أن يمتلكوا عبيدا ، ولكن أموال العبيد ترجع إلى سيدهم عند بيعهم أو موتهم . ولهم أن يعتنقوا ما شاءوا من أديان والقيام بشعائرها ، ونبغ من الرقيق عدد كبير فأصبحوا من العلماء والرواة ، وحاز بعضهم ثقة أسيادهم فبرزوا فى ميادين التجارة والصناعة والزراعة .

وكانت روح الإسلام تنص على حسن معاملة الرقيق ، فمن أحاديث الرسول الكريم : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » ، ومنها : « أتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٤ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦٥ .

(٣) الطبرى : جـ ٥ ص ٦٢ .

فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإنه ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياهم » . وكان من أعمال المحتسب فى الولايات الإسلامية ملاحظة وتطبيق هذه القواعد الإسلامية على معاملة الرقيق [(١)] . وأباح الإسلام زواج الرقيق ، فقال الله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ [(٢)] . وقال عز وجل أيضا : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ [(٣)] .

وقال الرسول ﷺ : « من أعتق أمة ثم تزوجها كان له أجران » . وأباح الإسلام للسيد أن يزوج رقيقه لمن يشاء من الأحرار والأرقاء ، ولم يبح له التفريق بعد إتمام الزواج لو تزوج العبد بغير إذن سيده [(٤)] . وأعفى الإسلام الرقيق من الرجم وجعل عقاب جلد الرقيق نصف عقاب الحر .

كان هناك نوعان من الرقيق هما : **الخصيان والجوارى** . والخصاء ليست عادة عربية بل هى شرقية . وكانت شائعة فى العراق زمن الأشوريين والبابليين . وقد نهى الرسول عن الخصاء فقال : « خصاء أمتى الصوم ، والصوم وجاء » وللخصاء أغراض [(٥)] أبرزها استخدام الخصيان فى دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من إتخذ الخصيان لخدمته [(٦)] ويذكر الجاحظ أن الخصى كان منتشرا بين العبيد والأحرار وبين

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ .

(٢) سورة النساء : آية ٢٥ .

(٣) سورة النور : آية ٣٢ .

(٤) الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ص ٣٧ .

(٥) البيهقى : المحاسن والمساوىء جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٣١ .

العرب والعجم . كما يذكر الجاحظ أيضا [١] أن الصابئة بالعراق كانوا قبل الفتح العربى يخصون أبناءهم ويوقفونهم على بيوت العبادة .

كان مصدر **الجوارى** فى الإسلام سبى الفتوح ، فما يقع من النساء فى أيدى الفاتحين العرب يعتبر « سبيا مسترقا » يقسم مع الغنائم [٢] . ولا يفرق فيمن استرقفن بين والدة ووالدها ، وإذا كان فى السبايا ذات أزواج بطل نكاحهن بالسبى حتى ولو سبى أزواجهن من قبل [٣] وكان مصير هذه السبايا أما الخدمة أو الاستيلاء أو البيع أو الاهداء . فكثيرا ما نعتبر الجوارى من أعظم الهدايا عند العرب [٤] . وكان بعض الجوارى يقمن بالخدمة فى قصور وجوه العرب أو الغناء والرقص ، وزاد عددهن إلى درجة كبيرة ، فقد كان المغيرة بن شعبة والى معاوية بن أبى سفيان يملك ستين أو سبعين أمة [٥] . ولما تعود الناس اقتناء الجوارى اشتغل النخاسون فى استجلابهم من أقصى بلاد الترك والهند وأرمينية والروم والسودان صغارا وكبارا يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن . وكان تعليم الجوارى وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة ، فإذا ما اشترى أحدهم جارية ولاحظ عليها أمارات الذكاء ثقفها وعلمها رواية الشعر أو الغناء .

ذكر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان مميزات كل جارية فقال : « من أراد أن يتخذ جارية للتلذذ فليتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية . ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية » [٦] .

---

(١) الحيوان : جـ ١ ص ٥٣ — ٥٦ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٠ .
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٩ ص ٧٥ .
(٥) المرجع السابق جـ ١٤ ص ١٣٨ .
(٦) السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ١٤٨ .

أما التسرى فهو اقتناء الجوارى للتمتع بهن ، وكثيرا ما يعقب التسرى الزواج ، فإذا ولدت الجارية لأحدهم تزوجها وأصبحت ( أم ولد ) وكان العرب يكرهون زواج الجوارى ولكنهم كانوا يتسرونهن للفراش وكانت السربة أقل منزلة من الزوجة ولكن علاقتها بزوجها شرعية . ويرى السيد أمير على [١] . أن اختلاط العرب بالجوارى كان له أثره السيء على الحياة الإجتماعية الإسلامية ، إذ ساعد الرقيق الجوارى على انحطاط مستوى الحياة الفكرية والأخلاقية ، فقد أدى التزاوج إلى ظهور بعض أنواع النسل المنحط .

وهكذا كان الرقيق يختلفون اختلافا كبيرا من حيث الأصل والمهن ، ولم يكونوا موزعين بإنتظام بين الأفراد والعشائر ، كما أنه لم تكن لهم محلات للسكنى خاصة بهم ، غير أنهم كونوا طبقة خاصة خاضعة لنفس القواعد الإجتماعية والقانونية التى تقيد سلوكهم وتميزهم عن غيرهم . ومما زاد فى تماسك هذه الطبقة وتميزها أن أفرادها كان يفضل الزواج من أفراد طبقتهم ، الأمر الذى أدى إلى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم . وقد تعلم معظم أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الإسلام ، وبذلك ضاقت الهوة التى كانت تفصلهم عن أسيادهم العرب .

* * *

---

(١) مختصر تاريخ العرب ص ١٧٣ .

## ٣ - الأسرة العربية الإسلامية

كانت الأسرة فى الدولة العربية الإسلامية هى نفس الأسرة الأصلية التى كانت قبل ظهور الإسلام وكانت الأسرة تتكون من الأبوين والأبناء والأحفاد والرقيق ويرأسهم جميعا الأب . وقد إهتم الخلفاء والولاة على مر العصور بالمحافظة على كيان الأسرة ورفع مستواها المادى والمعنوى . كتب الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى ولاته يبين له ما يحتاجه كل رب أسرة فقال : « لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته » [١] . وكان زياد ابن أبية ، الوالى الأموى ، يجلس ليفصل فى الخصومات بين الأزواج ، وأبدى استعداده لدفع صداق من لا تعجبه امرأته [٢] .

### مركز المرأة فى الأسرة والمجتمع :

كانت المرأة العربية المسلمة ذات مركز اجتماعى ممتاز ، فى الأسرة خاصة ، وفى المجتمع العربى الإسلامى عامة . وقد تمتعت المرأة بكثير من المميزات الإقتصادية التى أدت إلى رقى مستواها الاجتماعى ، فقد كان للنساء خلال الفتوحات العربية الإسلامية نصيب من الفيء والغنائم [٣] وفرض عمر لكل مسلمة فى كل شهر مديى خيطة وقسطى زيت وقسطى خل مثلها فى ذلك مثل الرجل المسلم [٤] وأعفيت المرأة غير المسلمة من دفع الجزية وإذا ملكت امرأة أرض خراج فإنها لا تدفع عنها سوى الخراج [٥] . وكانت النساء يمارسن كثيرا من أنواع النشاط الإقتصادى .

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧١ .

(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١٥٢

(٣) اليعقوبى . جـ ٢ ص ١٢٢

(٤) البلاذرى · فتوح البلدان ص ٤٦٦

(٥) المرجع السابق · ص ٤٥٢

كانت عادة عزل النساء شائعة عند الفرس منذ قديم الأزمان . **ولكن مشكلة الحجاب لم تظهر فى بداية الفتح الإسلامى ، فقد كان** المسلمون والمسلمات يتمتعون بقوة الإيمان والتقوى والصلاح ، ولكن ماكادت تبدأ الخلافة الأموية وتنتشر الحضارة ويختلط العرب بالأجناس الأخرى وخاصة بالفرس حتى برزت مشكلة الحجاب إلى الوجود . والمراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه ، ولم يعرف البدو الحجاب ، فكان رجالهم يجلسون مع النساء فيتحادثون ويتسامرون [١] ويرى فون كريمر [٢] . أن نظام الحريم لم يظهر سوى فى عهد الخليفة الأموى الوليد الثانى الذى أدخل فى بلاطه كثيرا من التقاليد البيزنطية ، وعين الخصيان أمناء فى قصره ، وكان الاغريق أول من اهتموا بالخصاء وكانت النساء فى العصر العربى الإسلامى يجلسن إلى خطابهن ولا يرون فى ذلك بأسا [٣] وكانت عائشة بنت طلحة ، زوجة مصعب بن الزبير ، لا تستر وجهها عن أحد ، فعاتبها مصعب فى ذلك فقالت : ( إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ) .

برزت فى الدولة العربية الإسلامية عدة نساء كان لهن مركز ممتاز ، فى مقدمتهن السيدة عائشة أم المؤمنين ، زوجة الرسول الكريم ، فقد اشتهرت بتفوقها فى الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب ولعبت دورا كبيرا فى موقعة الجمل . كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبى بكر ، زوجة الزبير ابن العوام . وأم عبد الله بن الزبير ، فقد اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧٥ .

(٢) Orient Vnder the Caliphs, p. 171.

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١ .

ومن أشهر النساء فى عصر الدولة العربية الإسلامية ، عكرسة بنت الأطرش التى اشتركت فى الحرب بين على ومعاوية ، وكانت تحرض الجند على معاوية . وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان فى المدن الحصينة والمعسكرات [١] .

ومن النساء الشهيرات سكينة بنت الحسين بن على ، فكانت من أجمل النساء وأرقهن ، وكانت تخالط الرجال الأتقياء والأدباء وعلماء الدين والشعراء .وبعد مقتل زوجها مصعب بن الزبير تقدم عبد الملك بن مروان يطلب الزواج منها ، لكنها أبت وتزوجت عبد الله بن عثمان بن عبد الله وكان متزوجا من أخت مصعب ، وماتت سكينة سنة ١١٧ هـ [٢] .

وتعتبر عائشة بنت طلحة بن عبد الله من النساء الشهيرات ، وقد تزوجت عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ثم مصعب بن الزبير ، اشتهرت بالجمال والعفة والأدب وعلم التنجيم ، وكانت لها منزلة كبيرة عند مصعب ، فكانت نساء العراق يقصدنها طالبات وساطتها عند مصعب ليعفى أزواجهن من بعض ما عليهم من ضرائب . وبعد مقتل مصعب خطبها بشر بن مروان والى عبد الملك على الكوفة ، ولكنها تزوجت عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى [٣] .

ومن شهيرات النساء أيضا هند بنت أسماء بن خارجة ، وقد كانت تتمنى الزواج من عبيد الله بن زياد لكنه مات ، ثم تزوجت بشر بن مروان حتى إذا مات تزوجها الحجاج ، ثم طلقها فخطبها عبد الملك بن مروان فاشترطت عليه أن يقود الحجاج الجمل الذى يحمل هودجها من العراق إلى الشام [٤] ومنهن أيضا هند بنت النعمان بن المنذر ، وكانت قد بنت بالحيرة

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٤٦ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٧ ص ١٦٥ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٠ ص ٥١ - ٥٤ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٣٩ .

ديرا ترهبنت فيه وسكنته دهرا طويلا حتى عميت فى أواخر حياتها ، وزارها سعد بن أبى وقاص عند الفتح ، ثم جاءها المغيرة بن شعبة حين ولاه معاوية الكوفة فعرض عليها الزواج منه فرفضت ، ثم زارها الحجاج بن يوسف ولكنه غضب من غرورها فأخرجها من دارها وطالبها بالخراج [١] .

اشتهرت بعض النساء بالزهد والتصوف بجانب الصلاح والتقوى ، مثل رابعة العدوية ، ومعاذه العدوية ، وبعض نساء الخوارج كالبلجاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة . وأبرزهن أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ، « وكانت من أعيان مصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة » وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ وأصبح قبرها مزارا لأهل العراق [٢] .

وبرزت بعض النساء فى ميادين السياسة ، منهن أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك . وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة الوليد ، الذى كان يستشيرها فى أمور الدولة الهامة .

كانت نساء الخوارج أبرز النساء فى العصر العربى الإسلامى ، فقد امتزن بالتقوى والورع والشجاعة والأدب والإجتهاد [٣] فكانت نساء الخوارج تخرج مع رجالهن فتتلقى ويلات الحرب إلى جانبهن فى الميدان بصورة لانجدها فيما سبق من فتوح إسلامية وغزوات [٤] وقد وجه زياد بن أبية وابنه عبيد الله اهتمامهما إلى منعهن من الاشتراك فى الحروب فقبض ابن زياد على البلجاء فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . ولكن ذلك لم يمنع نساء الخوارج من الاشتراك فى الحروب ، فكانت امرأة من الخوارج مع قطرى

---

(١) الشابشتى : الديارات ص ١٥٦ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٨ .
(٣) العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ١٨٠ .
(٤) سهير القلماوى : أدب الخوارج ص ١٣٧ .

ابن الفجاءة تدعى أم حكيم من أشجع الناس وأجملهم وجها وأحسنهم بدينهم تمسكا (١) . وفى عهد الحجاج بن يوسف ثار عليه شبيب بن يزيد الشيبانى وكانت زوجته غزالة وأمه جهيزة تحاربان معه جنبا إلى جنب (٢) وقد نذرت غزالة أن تدخل مسجد الكوفة فتصلى فيه ركعتين وتقرأ فيهما سورة آل عمران ، فجاهدت حتى تحقق لها ما نذرت ، وهرب الحجاج أمام الخوارج . فسخر أهل العراق منه وقالوا (٣) .

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى     بل كان قلبك فى جناحى طائر

## تقاليد الزواج :

كانت تقاليد الزواج فى المجتمع العربى الإسلامى تدل على مركز المرأة الإجتماعى الممتاز . ولم يكن تعدد الزوجات عيبا كبيرا فى ذلك الحين ، كما لم يكن زواج المرأة بعدة أزواج على التوالى غريبا ، فبين النساء العربيات من تزوجت أربعة أو خمسة أزواج على التوالى (٤) وكان العرب يفضلون الزواج من القرشيات ، فإن لم يتحقق ذلك فالعربيات ، وكانوا يقولون : « ولا تحمل لستين إلا قرشية ، ولا تحمل لخمسين إلا عربية » (٥) .

يبدأ الزواج فى المجتمع العربى الإسلامى بالخطبة ، وكانت هناك نسوة تخصصن فى التوفيق بين الرجال والنساء وهن ما نسميهن فى وقتنا الحاضر ( الخاطبات ) وكن يجلسن غالبا فى المساجد (٦) . وبعد مرحلة الخطبة تبدأ

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٦ ص ٦ .

(٢) اليعقوبى : جـ ٣ ص ١٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٤) Perron : Femmes Arabes, P. 358.

(٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٥ ص ٨٥ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٠٧ .

مرحلة دفع الصداق ، وقد اختلف قدره بقدر حالة الزوجين الاجتماعية . وكان العرب يدفعون الصداق نقدا وعينا . ولكن معظم المسلمين كانوا يدفعون الصداق نقدا ويقدمون بعض الهدايا عينا . وكانت عبارة « ساق إلى المرأة صداقها » ترجع إلى وقت أن كان العرب يدفعون الصداق من الأبل [١] واحتفظ العرب فى العصر الأموى بهذه العادة فإن الفرزدق مهر النوار بمائة ناقة حمراء [٢] دفع مصعب بن الزبير لسكينة بنت الحسين خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثلها [٣] . ودفع عمر بن عبيد الله لعائشة بنت طلحة مليون درهم نصفهم صداقها والنصف الآخر هدية لها [٤] وبعث الحجاج إلى عروسه هند بنت أسماء بمائة ألف درهم وثيابا كثيرة [٥] .

يبين لنا زواج فاطمة بنت محمد تقاليد الزواج الإسلامية . فقد خطب كل من أبى بكر وعمر بن الخطاب فاطمة من الرسول فاعتذر فى رفق . وأشار بعض الصحابة على على بن أبى طالب أن يخطب فاطمة من أبيها فقال لها الرسول : إن عليا يذكرك ، وقال له : أهلا وسهلا ، وكانت هذه علامة الرضا . وكان صداق فاطمة وغيرها من بنات الرسول خمسمائة درهم وكانت فيما جهزت به فاطمة سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ، وإناء للشرب يطلق عليه إسم ( تور ) ، وقربة ، ومنخل ، وقدح وأهدت بعض النساء إليها بردين مزينة بالفضة والزعفران [٦] . وقد تزوج على فاطمة فى شهر رجب بعد مقدم النبى المدينة بخمسة أشهر ، ودخل بها بعد عودته من غزوة بدر . وكانت فى الثامنة عشرة .

---

(١) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص ٧ .

(٣) المرجع السابق : جـ ١٠ ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق : جـ ١٠ ص ٥٥ .

(٥) المرجع السابق : جـ ١٨ ص ١٣٠ .

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٤٨ .

كان الزواج أحيانا لأغراض سياسية ، فكان يقصد من بعض عقود الزواج ربط القبائل العربية بعضها ببعض فقد حرص الحجاج بن يوسف على الزواج من اليمن ومضر (١) . وزوج الحجاج ابنه محمدا من ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس الكندى « رغبة فى شرفها ، مع ما كانت عليه من جمالها وفضلها فى جميع حالتها ، وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يدا على من تأواه » (٢) كذلك زوج الحجاج أخته زينب من ثقيف ، فخيرها بين ثقيفين ، أحدهما شاب فى السابعة عشرة من عمره . والآخر شيخ كبير ، فاختارت الشيخ ثم طلبت من أخيها توليته شرطة البصرة فاستجاب لطلبها (٣) .

ويعلل المؤرخون (٤) غضب عبد الله بن الزبير لزواج أخيه مصعب من سكينة بنت الحسين بما دفعه مصعب من أموال طائلة لعروسه فى مهرها ولكننا نرى أن الدافع إلى غضبه عدم رغبته فى مصاهرة أخيه لبنى هاشم فى الوقت الذى يقوم هو فيه باضطهاد وجهاهم وخاصة محمد بن الحنفية (٥) .

اتبع العرب المسلمون فى العصر الأموى كتاب الله وسنة رسوله فى زواجهم ، فما غالوا فى تقدير المهور ، ولا طلبوا من الزوج شروطا قاسية ما دام الزوج صحيح البدن عفيفا نزيها ، وكانوا يعتقدون أن المتزوج أسعد بالا وأهنأ عيشا من الأعزب ، ولا سيما إن شاركته زوجته بؤسه وسعادته . أما الشروط التى كانت يطلب العربى توفرها فى زوجته ، فنراها واضحة فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٥٩ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٦ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ٦ ص ٢٧ .
(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٨٢ .
(٥) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٣٥ .

عبارة لخالد بن صفوان أحد وجوه العرب فى العصر الأموى ، فقد قال : « أطلب لى زوجة أدبها الغنى وذللها الفقر ، لا ضرعة صغيرة ولا عجوزا كبيرة ، قد عاشت فى نعمة . لها عقل وافر وخلق طاهر وجمال ظاهر .. كريمة المحتدر رخيمة المنطق ، لم يدخلها صلف » (١) .

وكانت أميرات البيت الأموى خاضعات لجميع الأحكام الإسلامية ، فهى عرضة للطلاق ولاحتمال الضرائر . خطب محمد بن الوليد بن عقبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فقال عمر : « ... وقد زوجناك على مافى كتاب الله فى إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٢) .

## حفلات الزواج :

كان للزواج عند العرب يومان ، يوم الأملاك وهو يوم العقد ، وفيه يجتمع ذوو الفتاة فى ساحة دارهم ، ويقدم أقارب الفتى . وإذا التأم جمعهم خطبهم ولى الفتى خطبة رقيقة ، ثم يرد عليه ولى الفتاة فى خطبة قصيرة يضمنها الرضا ، ثم تنحر الجزر ، وتمد الموائد ويسمع الغناء من مجالس النساء ، وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة واليوم الثانى يوم الغناء وفيه يتبارى العرب فى الاحتفال ، فيلعب الفتيان بالرماح ويتسابقون على الخيل ، ويبسطون الأنماط فى الدار ويشدونها على الجدران ، ويجلس النساء على النمارق وتجلى الفتاة وتلبس الحلى . ثم تسير فى حشد من أترابها ، ثم تغنى النساء فتشيد بمآثر آبائها ومحامد قومها . وإذا انقضى ذلك الحفل أخذ النساء فى الانصراف وودعن الفتاة بقولهن : باليمن والبركة وعلى خير طائر (٣) .

---

(١) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١٤٨ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٥ .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٤٩ .

حرصت النساء على التجمل بوسائل الزينة المختلفة . فكانت النساء تحرص على تقعيص شعورهن [١] ، وكن يدهن أيديهن فى الشتاء بدهن يسمى « دهن البان » ويستعملنه طوال السنة فى ملابسهن وخمرهن [٢] ونصح أسماء بن خارجة ابنته هند عندما زوجها الحجاج فقال : فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل [٣] . وكان المحتسب يعاقب النساء اللاتى يصبغن شعورهن بالخضاب ولا يمنعهن من الخضاب بالحناء [٤] كذلك حرصت النساء على التحلى بأجمل الحلى والمجوهرات المصنوعة من الذهب والفضة وسائر الأحجار الكريمة .

**الجوارى فى البيت العربى :**

عرف العرب فى العصر العربى الإسلامى نظام الجوارى ، فقد ملك العرب فى الجاهلية عددا كبيرا منهن ، وكانت فتوح العرب سببا فى وقوع كثير من بنات الأمصار المفتوحة الأحرار فى أيدى الفاتحين العرب [٥] ووزعت الجوارى كغنائم على المحاربين . ولما انتهت الفتوحات ، كان العرب يشترون عددا كبيرا من الجوارى من أسواق النخاسة المنتشرة فى جميع الأمصار . وكانت فتوحات الوليد بن عبد الملك شرقا فى بلاد ما وراء النهر والهند ، وغربا فى المغرب والأندلس ، مصدرا هاما لآلاف الجوارى ، وكانت هذه الجوارى ترد على الولاة فيفرقونها فى وجوه الناس [٦] . وكان العرب يكرمون جواريهم ، فكان يزيد بن المهلب – مثلا – والى العراق « يعطى الجارية من جواريه مثل سهم ألف رجل » [٧] .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠ .
(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٧٠ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٨ ص ١٢٨ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٤ .
(٥) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٣٦ .
(٦) الأصفهانى : الأغانى جـ ٩ ص ٧٥ .
(٧) الطبرى : جـ ٨ ص ١١٦

تفرع عن نظام الجوارى **نظام التسرى** ، والتسرى اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن ، وكانت العرب تحتقر أبناء الجوارى ، ثم ضعفت هذه الكراهية لما كثر التسرى بالجوارى . وقد نهى عمر بن الخطاب عن بيع أمهات الأولاد وهن الجوارى اللاتى ينجبن لأسيادهن وكان هؤلاء الأبناء يلقون الكثير من احتقار العرب وكانت السرية أحط منزلة من الزوجة ، ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية .

لم يكن المسلمون أول من اقتنى السرارى ، فهذه العادة كانت شائعة عند الرومان قبلهم . وكثرت رغبة المسلمين فى التسرى عند انتشار الحضارة ، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى ، وتكاثر الجوارى أضعف النسل العربى ما فى ذلك شك ولا شك ولا ريب ، والاستكثار من الجوارى فى فجر العصر العربى الإسلامى لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما استقرت الفتوح ، وعظم التمدن ، صاروا يبتاعونهن ويغالون فى دفع أثمانهن ، وكانت أسعارهن تتضاعف إذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وإجادة الغناء .

كان يختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة ألوف أو مائة ألف دينار ، وقد اشترى سعيد بن عبد الملك ( الزلفاء ) الجارية الشهيرة بمليون درهم ( ٧٠ ألف دينار ) ، واشترى يزيد بن عبد الملك سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية ضياء بخمسين ألف دينار .

**الطعام :**

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصرا على الألبان ، وما يستخرج منها كالجبن والزبد ، ومن التمر والحبوب واللحوم ، يأكلونها على أبسط مايكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الإبل . وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة ( كالثريد ) فإنه

يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة ، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة ، أو من الدقيق والسمن والعسل كالوضيعة ، وكان هذا طعام الأغنياء .

كان المسلمون فى صدر الإسلام يكتفون بالقليل من الطعام الذى لم يجاوز لونا أو لونين وكان خير طعامهم اللحم . وكان الرسول ومعظم الصحابة يقلون من الطعام ، لا لفقر أو شح ، ولكن زهدا فى الدنيا ، وكما قال صاحب الفخرى [١] « واعلم أنهم لم يتقللوا فى أطعمتهم وملبوسهم فقرا ولا عجزا عن أفضل لباس وأشهر مطعم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم ، وكسرا للنفس عن شهواتها ، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها ... » .

كان طعام العرب خلال حكم الخلفاء الراشدين وبداية العصر الأموى بسيطا محدودا ، يكاد ينحصر فى اللحوم والثريد بجانب ما اعتادوا عليه فى شبه الجزيرة العربية من تمور وألبان [٢] . وأظهر العرب عند الفتوحات جهلهم بألوان الطعام الفارسية والرومانية ، فقد وجدوا فى خزائن كسرى بعض الكافور فحسبوه ملحا ووضعوه فى خبزهم [٣] . وظنوا الخبز المرقق رقع ثياب [٤] . وكان أبو موسى الأشعرى لا يأكل الدجاج لقلتها فى الجزيرة العربية ، وجهل العرب المناخل فكانوا يأكلون الحنطة بنخالها [٥] . ولكن بتوسع الفتوح ، واستقرار الأمور ، زادت الثروة ، وعم الترف بين الناس ، فبدأ العرب يتأنقون فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وقلدوا الفرس والرومان فى أكثر أسباب الترف والحضارة .

---

(١) الفخرى : ص ٧٠ - ٧١ .
(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٣ ص ١٩٨ .
(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٣٣ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٤٦ .
(٥) مقدمة ابن خلدون : ص ١٤٣

لم تكد تمضى أعوام على ظهور الدولة الأموية حتى زاد اتصال العرب بمكان الأمصار الإسلامية فعرفوا كثيرا من ألوان الطعام وأدواته . تفنن العرب فى معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة للشهية . فكانوا يغطون اللحوم والثريد بطبقة من الفلفل ، وكان العرب لا يعرفون الفلفل قبل فتح فارس [(١)] ، وتعلم العرب من الفرس : الكوز والجرة والابريق والطشت والخوان ، والكعك والفالوذج واللويزنج والزنجبيل والقرفة والجوز واللوز ، وحرص العرب على تقليد الفرس فى طعامهم وولائمهم ، فقد أراد الحجاج ابن يوسف أن يولم وليمة احتفالا بختان ولد له فاستحضر بعض الدهاقين ليسألهم عن ولائم الفرس [(٢)] .

كان أول وجبات الطعام فى الصباح ، وهى وجبة خفيفة تتألف من الألبان والسكر أو العسل ، ثم الفطور عند شروق الشمس ، ثم الغذاء عند الظهيرة . ثم العشاء بعد صلاة العصر . وكان لكل مناسبة طعام خاص فكان يطلق لفظ الوليمة على طعام العرس ، والنقيعة على طعام الزفاف ، والأعذار على طعام الختان ، والخرس على طعام الولادة ، والنقيعة على طعام القادم من السفر . والوكيرة على طعام الاحتفاء ببناء الدور ، والمأدبة على طعام الضيوف [(٣)] .

عرف العرب كثيرا من أدوات المائدة فبعد أن كان العرب فى عصر الخلفاء الراشدين يأكلون بأيديهم ، تعلموا من الفرس استعمال الفوط والملاعق ، وكانت الملاعق تصنع من الخشب غالبا . كما جلبوا من الصين بعض الملاعق الفخار والخزف ، وكانوا يجلسون على الكراسى أمام المائدة التى يغطونها بمفرش من القماش . وكان الطعام يقدم إليهم فى صحاف توضع

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٨٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ١٢٢ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٩٢ .

على جلود مغطاة بالقماش . وكانت أهم الأوانى الكرحة وهى إناء صغير ، والصفحة وتسع طعام فرد واحد ، والمكتلة وتكفى رجلين أو ثلاثة ، والقصعة وتكفى أربعة أو خمسة ، والجفنة وتكفى ما بين سبعة أو عشرة أفراد ، والدسيعة وهى وعاء كبير [١] .

كان أفضل الأطعمة الثريد وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم ، ومنها اللمزة وهو الخبز يكسر على السمن ، والكوتان وهو الأرز والسمك ، والأطرية وهو طعام كالخيوط من الدقيق ، والشعيرية وهو طعام كالخيوط صار فتلها فى حجم الشعير ، والعجة وهو طعام متخذ من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى ومن أشهر الأطعمة فى الشام فى العصر الأموى الفول النبوت بالزيت ويباع مع الزيتون . والترمس المملح ، والزلابية وتصنع من العجين ، والناطف ويصنع من الخرنوب . ولم تكن الخضر مستعملة على نطاق واسع كما هو الحال الآن .

* * *

---

(١) الألوسى . بلوغ الأرب جـ ١ ص ٣٨٧ .

## ٤ – المجالس الاجتماعية

### مجالس الخلفاء الراشدين :

كانت مجالس الخلفاء الراشدين فى المسجد أو فى المنزل ، وتتميز بالبساطة والسذاجة ، على نحو الحياة البسيطة التى كان يحياها أى عربى فى عهدهم ، فكانوا يقعدون على حصير أو جلد ويلتفون بعباءة أو نحوها ، فيدخل الناس عليهم فى حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل ، وكان عمالهم فى الأمصار على نحو ذلك ، على أن العمال نظرا لإقامتهم فى المدن الكبرى التى عمرها الفرس أو الروم استعملوا فى عملهم بعض مظاهر الأبهة للتأثير على الرأى العام .

كان الولاة يعقدون مجالسا اجتماعية فى أمصارهم . فكان الوليد بن عقبة والى عثمان بن عفان فى الكوفة – على سبيل المثال – يعقد مجالسا يرفه فيها عن نفسه وعن أهل الكوفة ، فأتى بساحر « فاجتمع الناس عليه ، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها . ويعمل أعاجيب » (١) ثم ولى عثمان سعيد بن العاص على الكوفة بدلا من الوليد « وأمره بمداراة أهلها ، فكان يجالس قراءها ووجوه أهلها ويسامرهم » (٢) . ولكن حدث فى أحد هذه المجالس أن أفلت لسان سعيد فقال إن السواد بستان قريش فهب فى وجهه وجوه الكوفة وضربوا رئيس شرطته ، فامتنع سعيد عن عقد مجالس السمر ، فكان أهل الكوفة يعقدون المجالس بعيدا عن رقابة سعيد . وكانت هذه المجالس عاملا هاما فى إثارة روح الفتنة ضد عثمان (٣) .

---

(١) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٤٢ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٥٧ .

## مجالس الخلفاء الأمويين :

خرجت الدولة العربية الإسلامية فى العصر الأموى عن بساطتها وسذاجتها . بعد أن انتهت مرحلة الفتوحات العربية الإسلامية ، وأصبحت الدولة العربية تضم أمصارا كثيرة كانت تتبع الدولتين الرومانية والفارسية وتدرج الخلفاء والأمراء إلى مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب ، وبدأ بذلك معاوية ابن أبى سفيان ، وحذا أمراؤه حذوه فى العراق ومصر ، وزادوا عليه بأن اقتبسوا كثيرا مما كان يتبعه أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وقد اتبعوا هذه السياسة تعزيزا للملك ، وإدخال الرهبة فى قلوب الأعداء ورسلهم . وأصبح الخليفة لا يصل إليه أصحاب المصالح والناس إلا بعد شيء من العناء ، وبعد أن يمر على حجاب وحرس مما لم يكن موجودا مثله فى عهد الخلفاء الراشدين .

اختلفت مجالس الخلفاء الأمويين الاجتماعية باختلاف شخصياتهم وميولهم . فمعاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ، وعبد الملك ابن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، لم يكونوا يجلسون للمنادمة والاستماع إلى الغناء والموسيقى ، وإنما كانوا يعملون ويجلسون للنظر فى أمر الملك وتعزيز مرافق الدولة ، بخلاف غيرهم وخاصة فى أواخر العصر الأموى ، ممن كانوا يجلسون للمنادمة والاستماع إلى ألوان الطرب والغناء .

كان الأمويون الأول حكاما نشطاء أكفاء ، فخصصوا شطرا كبيرا من يومهم للأعمال الإدارية ، على حين قضوا الأمسيات والليالى فى السمر . ثم إنهم عشقوا فى بادىء الأمر سماع القصص التاريخية ، وفضلوا منها خاصة أساطير الجنوب ، وهذا فضلا عن إنشاد الشعر .

ولكن سرعان ما تطور السمر البرىء وأصبح استمتاعا ، فاستدعوا الموسيقيين من مكة والمدينة ، وارتشفوا النبيذ بدلا من شراب التفاح والورد اللذين استعملا من قبل . ويرى المؤرخ ( جوزيف هل ) [١] أن هذه

---

(١) الحضارة العربية ( ترجمة الدكتور العدوى ) ص ٧٣ .

المجالس لم تكن عديمة الأهمية بالنسبة للحضارة العربية ، إذ هيأت الفرص للفنانين والشعراء لعرض مواهبهم أمام الخليفة ، الذى جلس وفق العادة الفارسية خلف ستار شفاف مسدول وسط القاعة ، ويفصله عن الضيوف والشعراء والفنانين ويستمع إلى الموسيقى والغناء .

فى العصر الأموى ، جلس الخلفاء فى القصور ، بعد أن كان عمر ابن الخطاب يجلس للناس فى المسجد ، وقد استعملوا بعض القصور الرومانية ، كما بنوا لهم قصورا خاصة ، فقد بنى معاوية قصر الخضرة فى دمشق ، ونصب الخلفاء الأمويون فى هذه القصور الأسرة والكراسى ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب والحرس .

كان معاوية أول من اتخذ الأسرة ، قلد بها بطارقة الروم فى الشام ، وكذلك الستور والطنافس . أما الكراسى فكان أول من استخدمها زياد ابن أبية والى معاوية على العراق . واقتبس الأمويون عن الروم والفرس مظاهر الأبهة كالطراز ونقش الأشعار فى صدور المجالس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الأسرة من الأبنوس والعاج والذهب .

كان مجلس الخليفة ينعقد فى قاعة أو بهو كبير على جدرانه الستائر الحريرية ، يكسو أرضه بساط أو أكثر من الديباج أو نحوه ، وفى أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع ، ويسدل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو الخليفة القائم ، أو بأشعار وآيات وأحاديث ، فى وسط القاعة سرير أو كرسى يجلس عليه الخليفة مصنوع من العاج أو الأبنوس ومطعم بالذهب .

ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون فى وسط القاعة سترا يفصل بينهم وبين الجلساء وطبعا كانت تختلف هيئة المجلس فى الشتاء عما كانت عليه فى الصيف ، فيزاد عليه شتاء مواقد النار يحرق فيها الند والعود .

كان الاستئذان على الخليفة فى عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب

ويقول : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثا ، فإن لم يؤذن له لم يعدها . فلما كان العصر الأموى ، أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة حسب طبقاتهم ، وفى أوقات معينة ، لكل طبقة من الجلساء أو الأدباء أو الشعراء أو غيرهم ، أما فى المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم .

وأول من رتب المراتب فى الدخول على الخليفة زياد بن أبية والى العراق ، فقد أشار حاجبه عليه بذلك ، وقد اقتبس هذا النظام عن الفرس ، فجعل الأذن للناس على البيوتات ثم على الأعمار ثم على الآداب وصار ذلك سنة فى الاستئذان على الخلفاء الأمويين ، فإذا استأذن جماعة فى الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولا لأشرفهم نسبا ، إذا تساووا فى النسب قدموا أكبرهم سنا ، فإذا تساووا فى السن قدموا أكثرهم أدبا .

إذا وفد ناس على الخليفة الأموى أو أحد أمرائه ، وقفوا ببابه يلتمسون الإذن ، فإما أن يأذن لهم أو يصرفهم ، فإذا صرفهم عادوا ثانية وثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . وكان الداخلون على الخليفة يجلسون فى المواضع اللائقة بهم ، وبمراتبهم ، ويتولى إجلاسهم الحاجب أو الآذان ، وكانت الرتبة الأولى بعد الخليفة الأموى لبنى أمية ، فيجلسون على الأسرة ، ثم لبنى هاشم فيجلسون على الكراسى .

فى مطلع العصر الأموى ، كانت الدولة مازالت على بساطتها . فكان الخليفة لا يزال يشبه شيخ القبيلة ، فكان الناس يخاطبون الخليفة فى هذا العهد باسمه أو كنيته . ولكن سرعان ما تشبهت الدولة الأموية بالدولتين الرومانية والفارسية ، فبدأ الولاة الأمويون يعظمون أمر الخليفة ، وينزهون مجلسه عن مجالس سائر الناس ، واقتبس زياد بن أبية الكثير عن تقاليد الفرس ، فمنعهم من الكلام فى حضرة الخلفاء على الاطلاق واتبع عبد الملك بن مروان هذه القاعدة أيضا ، ثم عمد الخلفاء بعد ذلك فمنعوا أن يخاطبهم الناس كما كانوا

يخاطبون أسلافهم ، أو يعظوهم وهم على المنابر ، أو أن يطالبوهم بما كانوا يطالبون به غيرهم من الناس من تقوى وصلاح أو الكف عن عمل شيء ما .

كان لا يدعى لأحد فى حضرة الخلفاء ، ولا ينهض الداخل إلا إذا نهض الخليفة . ومن آداب المجالس أن لا يأمر فيه أحد غير الخليفة ، وإذا نهض نهض سائر الحضور . وإذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى إشارة يعرفونها فينصرفون ، فكان معاوية إذا أراد صرف الناس قال : « إذا شئتم » ، أو ( العزة لله ) . وكان ابنه يزيد يصرف جلسائه بقوله : ( على بركة الله ) . أما عبد الملك فكان يحمل فى يده خيزرانة فإذا ألقاها من يده عرف جلساؤه أنه يريد انصرافهم فينصرفون . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى [1] .

## مجالس الأدب والشعر فى قصور الخلفاء :

عقد الخلفاء الأمويون مجالس أدبية خاصة لأهلهم وأصدقائهم حضرها نخبة من فحول الشعراء والأدباء وطائفة من الشاعرات . وكانت هذه المجالس تخلو من الشراب والغناء وإن كانت لا تخلو من مداعبات الخلفاء وآرائهم فى الأدب والأدباء . نرى هذا واضحا فى المجلس الذى جمع معاوية بن أبى سفيان وليلى الأخيلية ، وعزة صاحبة كثير فى مجلس عبد الملك بن مروان .

استمع الخلفاء الأمويون فى أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب وسير الفرسان العرب فى الجاهلية ، فكانوا يعقدون المجالس يحضرها الأدباء من أهل الأخبار والنوادر والأدب والشعر ، يحدثون الخليفة بما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم ، كما كانوا يستمعون للشعراء ويجيزونهم ، ولكن أخبارهم قليلة مع الشعراء والأدباء . وكان أعظم شعراء البلاط الأموى

---

(١) انظر كتاب ( تاريخ الإسلام ) للدكتور حسن إبراهيم الجزء الأول ، ص ٥٣٠ وما بعدها .

الأخطل ، وهو شاعر مسيحى ، وكان يدخل المساجد تفوح منه رائحة الخمر ، فيقف له المسلمون إجلالا .

من أشهر من استمع من بنى أمية إلى الشعراء يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن يزيد ، أما عمر بن عبد العزيز فكان يكره الاستماع إلى الشعراء أو منحهم الصلات مدفوعا بصلاحه وورعه . أما هشام ابن عبد الملك فقد دفعه إلى عدم إعطائه الشعراء ما اشتهر به من شح وبخل . أما الوليد بن عبد الملك فقد شغل بالفتوحات والعمارة عن كل شىء كما أن الغناء والموسيقى صرفت بعض الخلفاء عن الأدب والشعر .

## مجالس الموسيقى والغناء :

لم يكن الغناء والموسيقى شيئا مستحدثا عند العرب قبل ظهور الإسلام ، فقد كان لتردد أشرافهم على بلاط كسرى وقيصر أثر بعيد فى حياتهم الاجتماعية ، فنعموا بسماع الموسيقى والغناء ، وكان لطبيعة بلادهم أثر واضح فى تقدم الغناء . فلما ظهر الإسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل فى تلاوة القرآن الكريم . ولكن الخلفاء الراشدين انصرفوا عن الغناء إلى الانشغال بالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام حتى تحولت الخلافة إلى الأمويين ، وانتشر شعراء الغزل فى الحجاز من أمثال عمر بن أبى ربيعة وقيس ابن دريح ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، ومال الناس إلى أشعارهم وتغنوا بها [1] .

استمع الخلفاء الأمويين الأوائل إلى أحاديث التاريخ والأدب والشعر ، أما سائر الخلفاء فلم يروا كبير أمر فى الاستماع إلى المغنين والمطربين والموسيقيين ومما لاشك فيه أن استماع الخلفاء إلى الغناء الموسيقى ساعد على تقدم هذين الفنين فى العصر الأموى .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٣٢ .

كان معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد لا يظهرون للندماء ، بل كان بينهم وبين الندماء حجاب ، حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب . فقد تأخذ نشوة الطرب بلبه فيقوم بحركات لا يطلع عليها إلا خواص جواريه . بينما كان بعض الخلفاء الأمويين يظهرون للندماء والمغنين ، ولا يخيلون بإتيان حركات تثيرها نشوة الطرب فى نفوسهم . وكان يزيد بن عبد الملك يبالغ فى المجون بحضرة الندماء ، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى ، وأذن للندماء فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه ، فلم يتورعوا فى الرد عليه ، وحذا حذوه الوليد بن زيد . وفى عهد الوليد الثانى أغرم الناس بالموسيقى والغناء فكانوا ينفقون ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخليفة يدعوهم إلى دمشق من أقاصى البلاد [١] .

ينتقد المؤرخ ( جوزيف هل ) [٢] مجالس الغناء التى عقدها بعض الخلفاء الأمويين ، فيذكر أن تأثر الخلفاء بالغناء والموسيقى وهم وراء الستر كان يأخذ صورا سقيمة ، ولا سيما عندما يستخف بهم الطرب . فقد بلغ بيزيد الثانى الطرب أثناء سماعه غناء معبد مطرب مكة فقفز واقفا ورقص حول القاعدة . أما الوليد الثانى ، الذى أقام فى أحد قصور اللهو فى بادية الشام ، فقد اعتاد عندما تعزف الموسيقى أن يجلس فى قاعدة كبيرة ، فى وسطها حوض عظيم ، نصفه مملوء بالماء والآخر بالنبيذ . وكان غناء معبد يستخف بلبه فى بعض الأحيان ، بدرجة تجعله يطيح عباءته جانبا ، ويقفز إلى الحوض حيث يملأ فمه بالنبيذ ، وعندئذ كان العبيد يهرعون إليه بملابس أخرى نظيفة ، وبالروائح والمساحيق ويختتم الحفل دائما بإغراق الهدايا على المغنى ، والتنبيه عليه بأن يحفظ ما شاهده طى الكتمان إلى الأبد . ولم يكن

---

(١) انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٢٥ - ٣٢ .
(٢) الحضارة العربية ص ٧٣ .

الوليد مغرما بالموسيقى والغناء فحسب ، وإنما كان هو نفسه موسيقيا ومغنيا ، ثم إنه أجاد الشعر والعزف على العود .

## مجالس الولاة الأمويين :

كان زياد بن أبية والى معاوية على العراق يعقد كثيرا من مجالس السمر ، فكان يجمع حوله حلقة من « النبلاء » كل مساء [١] . وسار زياد على سيرة معاوية فى الجلوس على السرير والناس تحته ، وإقامة الحرس والشرط والبوابين [٢] . وكان فى اتخاذه مقلدا لمرازبة الفرس ، وكان السرير يصنع من الأبنوس والصندل أو العاج أو الذهب ، وكان عبارة عن مقعد أو كرسى كبير [٣] . وكان زياد يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة ، ويحضر وجوه المصريين مجالسه فيدخلون عليه على السابقة والشرف ، ويسمرون عنده جالسين على الكراسى ، وكان يتناول الطعام معهم ، وكان زياد جادا فى مجالسه فكان « لا يداعب أحدا فى مجلسه ولا يضحك » [٤] ولكن كان لزياد ، رغم ذلك ، نديم ماجن يدعى حارثة بن بدر ، وكان الناس يعاتبون زيادا على منادمته له [٥] . وكان زياد لا يشجع الشعر ، بل هرب الفرزدق منه إلى المدينة [٦] .

سار عبيد الله بن زياد سيرة أبيه فى عقد المجالس ، وأراد حارثة بن بدر أن يكون نديمه وجليسه كما كان نديم أبيه ، ولكن ابن زياد طلب منه أن ينادمه سرا فى الليل ، ثم مالبث أن أصبح مقربا إليه ، فكان ينادمه ليلا

---

(١) Wellhansen : The Arab Kingdom, p. 128.
(٢) اليعقوبى : جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ١٨٢ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٦٠ .
(٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص ١٧ .
(٦) الطبرى : جـ ٦ ص ١٣٤ .

ونهارا [١] . كذلك اتخذ ابن زياد من أحمد النصيبي المغنى نديما ، وكان ينادمه ويستمع إلى غنائه سرا [٢] .

ولعل أبهى مجالس الولاة الأمويين هى مجالس بشر بن مروان ، فقد كان بشر أديبا ظريفا يحب الشعر والسمر والسماع [٣] . وكان بشر فى مجالسه يجلس على فرش صغير وعن يمينه ويساره مرافق وعلى رأسه إكليل ريحان ، ويجلس حنين المغنى المشهور أمامه على كرسى [٤] . وكان بشر يرتدى فى مجالس السمر غلالة رقيقة صفراء وملاءة مصقولة وكان لا يسمح بدخول أحد عليه أثناء السمر والغناء [٥] ولكن بشرا سرعان ما وجد فى عمه روح بن زنباع معكرا لصفو مجلسه ، وقال لندمائه : « أخاف إن انبسطنا أن يكتب روح إلى أمير المؤمنين بذلك ، وإنى أحب من الأنس مايحبه مثلى » ، وما لبث بشر أن لجأ إلى حيلة تخلص بها من ابن زنباع فغادر العراق إلى الشام [٦] . وبجانب هذه المجالس المرحة التى عقدها بشر هناك مجالس الشعر ، فقد كان يجتمع عنده الفرزدق وجرير والأخطل ، وكان بشر يغرى بينهم فيتهاجون ويتسابون [٧] .

كذلك كان للحجاج بن يوسف مجالسه ، ففى الشتاء يجلس والناس أمامه على الكراسى [٨] . أما فى الصيف فيجلس فى حديقة قصره فى مدينة واسط على سرير بجوار بركة ماء [٩] . ولم يكن الحجاج يظهر لندمائه البشاشة إلا إذا دخلت عليه ليلى الأخيلية [١٠] . وكانت تدور على الجالسين

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢١ ص ٢٥ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٥ ص ١٥٣ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٣ .
(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ١٧٣ .
(٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٥ ص ١٢٠ .
(٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٤ .
(٧) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧٦ .
(٨) الطبرى : جـ ٧ ص ٢٥١ .
(٩) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٦٦ .
(١٠) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٨١ .

أطباق كثيرة من الرطب (١) . وكان الحجاج يحب سماع الشعر وخاصة من جرير ، وقد أوفده الحجاج إلى عبد الملك وبعث معه ابن الحجاج ليوصى الخليفة به ، ولكن عبد الملك أبى الاستماع إلى جرير « وكان لا يسمع من شعراء مصر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية » (٢) .

كانت لمجالس الولاة أيضا تقاليد وآداب ، وقد ساروا فيها سيرة أكاسرة الفرس ، واقتبسوا منهم نظام الحجاب (٣) . وكان زياد أول من رتب الدخول فى المجالس ، « فقد قال زياد لحاجبه عجلان : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأسنان ، ثم على الآداب . قال : فمن تؤخر ؟ قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم ؟ قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف وكسوة الصيف فى الشتاء » (٤) . وحدد زياد لحاجبه أربعة أشخاص يدخلهم فى الحال : « هذا المنادى إلى الله فى الصلاة لا تحجبه عنى ، فلا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه فشر ماجاء به ولو كان فى تلك الساعة ، ولرسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله على وإن كنت فى لحافى ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد » (٥) وكان زياد أول من اتخذ الحرس ، والشرطة ، والبوابين محتذيا حذو معاوية . وكان يشترط فى صاحب الشرطة أن يكون « شديد الصولة قليل الغفلة » ، وأن يكون صاحب الحرس « مسنا عفيفا مأمونا لا يطعن عليه » . أما الحاجب فيجب أن يكون « عاقلا فطنا قد خدم الملوك قبل أن يتولى حجابتهم » (٦) . أما بشر بن مروان فكان لا يحتجب ولا يغلق دونه الأبواب ، وكان يقول : « إنما يحتجب النساء » (٧) .

---

(١) القالى : الأمالى جـ ١ ص ٨٦ .
(٢) البيهقى : المحاسن والمساوىء جـ ١ ص ١٢٢ .
(٣) البيهقى : المحاسن والمساوىء جـ ١ ص ١٢٢ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٦٧ .
(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٧١ .
(٦) اليعقوبى : جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٩ ص ٧ .

## مجالس العامة فى العراق :

اختلفت أماكن مجالس العامة الاجتماعية ، فقد كان بعضهم يعقدونها فى المساجد أو الجبانات [١] . والبعض الآخر يعقدونها فى البيوت أو الحانات أو الأديرة أو كناسة الكوفة أو مربد البصرة . وكان للبدو مجالسهم الخاصة وكان يتحدث فيها رجالها إلى النساء ولا يرون فى ذلك بأسا ، وكثيرا ماكان الأخطل الشاعر هو ضيف الشرف فى هذه المجالس [٢] . وكانت حفلات الزواج مجالا طيبا لعقد المجالس وسماع الغناء [٣] . وكانت تعقد بعض المجالس الجادة البريئة فى الدور ، فكانت مجالس أهل البصرة تدور حول ( الكلام والزهد ) [٤] ، وكان الأحنف بن قيس زعيم البصرة ( يعقد كثيرا من المجالس ويقول لمجالسيه : جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ) [٥] . فقد كانت من عادات أهل العراق التشبيب بالنساء فى المجالس . وكثيرا ماتكون الشطرنج وسيلة التسلية فى هذه المجالس الجادة [٦] وكان المهلب بن أبى صفرة يقول : خير المجالس ما بعد منه مدى الطرف وكثرت فيه فائدة الجليس . أما الأحنف ابن قيس فقال : ( أطيب المجالس ما سافر فيه البصر واتدع فيه البدن ) [٧] .

وبجانب هذه المجالس الوقورة كانت هناك مجالس ماجنة . فكانت الأديرة بالعراق مركزا لكثير من مجالس المسلمين والنصارى على السواء فقد كانت الأديرة تمتاز بالبساتين والأشجار والرياحين والحانات والغناء ، فضلا عن إتاحة الفرصة لاختلاط النساء بالرجال [٨] . وعرف أهل العراق

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٦٤ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ١٧٥ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٦ .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٨٨ .
(٦) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٢ ص ٩٣ .
(٧) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٨) الشابشتى : الديارات ص ٦٠ .

« السماوية » وهي سفينة يركبونها فى الأنهار للنزهة والخلاعة [١] بل إن هذه المجالس الماجنة كانت منتشرة فى عهد الحجاج بن يوسف رغم ما نعرفه عنه من تقوى ووقار ، ولكنه سمح بها ولم يعاقب عليها [٢] . وحفلت الكوفة بكثير من المجان حتى إن الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعث يطلب ندماء له من الكوفة [٣] .

**كانت مجالس القصاص** من أبرز مجالس العراق . فكان القاص يجلس فى المساجد أو البيوت ويقص على الناس القصص والتواريخ ، والأساطير وهى تعتمد غالبا على الخيال حتى تكتسب صفة التشويق والترغيب . وكانت من أبرز هذه القصص تدور حول أحد تجار الكوفة وهو على بن آدم ، فقد كان مغرما بجارية فوضع كتابا حوى قصصا تدور حول غرامياته ، فأصبحت هذه القصص على لسان أهل الكوفة فى مجالسهم [٤] . وكان فى هذه الحلقات تنفيس عما فى نفوس أهل العراق . ففى عهد زياد منع التجول فى البصرة بعد العشاء [٥] فنظم الشاعر ابن مفرغ كثيرا من قصائد هجاء زياد فكان أهل البصرة يتغنون بها فى مجالسهم [٦] . وفى أواخر الحكم الأموى للعراق نشط الدعاة العباسيون فكان هؤلاء الدعاة يجلسون فى مساجد الكوفة يتحدثون عن مفاسد الأمويين وذكر السواد ومن يلبسه [٧] .

ومن أشهر مجالس أهل العراق الإجتماعية ، ما كان يعقد فى مريد **البصرة وكناسة الكوفة . وكان مريد البصرة سوقا للابل ومحبسا للخيل** [٨] ثم أصبح محلة عظيمة سكنها الناس كما أصبحت مكانا مختارا

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٦١ .
(٢) البيهقى : المحاسن والمساوىء جـ ٢ ص ١٦٥ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٣ ص ٧٦ .
(٤) المرجع السابق : جـ ١٤ ص ٤٩ .
(٥) الطبرى : جـ ٦ ص ١٢٥ .
(٦) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٧ ص ٥٤ .
(٧) اليعقوبى : جـ ٣ ص ٨١ .
(٨) ياقوت : المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ٣٩٢ .

لمفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء وكان يبعد عن البصرة ثلاثة أميال (١) . أما كناسة الكوفة فقد كانت إحدى ضواحيها ، واتفقت مع المربد فى كونها مكانا لمجالس الشعراء والخطباء وأصبح هذان المكانان مثل سوق عكاظ فى الجاهلية اتخذ جرير والفرزدق والأخطل وراعى الإبل حلقة بأعلى مربد البصرة يجلسون فيها ويجلس الناس حولهم (٢) . وشغل الشعراء الأربعة بالتفاخر بين قبائلهم ، وكان راعى الإبل يتحيز أحيانا للفرزدق على جرير (٣) . وسمع الأخطل فى الشام بتهاجى الفرزدق وجرير بالمربد فقصد إلى العراق حيث بدأت سلسلة جديدة من تهاجى الأخطل وجرير (٤) وكان الفرزدق أثناء هذا التهاجى يركب بغلة ويرتدى حلة جميلة بينما يركب جرير فرسا ويلبس درعا وحلة تسمى « بيضة » ويتقلد سيفا (٥) .

والحقيقة أن هؤلاء الشعراء كانوا يتخذون من إشعال نار هذه العصبيات وسيلة للهو واللعب (٦) وكان أهل العراق يقبلون على هذه الحلقات للتفرج والتسلية ، وكانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحد ما فى جعبته من سهام ، وتمضية أوقات الفراغ أكثر من اهتمامهم بالعصبيات القبلية ، فكانوا يصفقون لهذا تارة ولذلك أخرى ، وكان يكثر بينهم الهرج والتصفير والتصفيق على نحو ما يفعل الناس الآن فى المسارح ، وكان أهل العراق يجدون فى هذه النقائص والمناظرات عوضا عن تأخر الغناء والموسيقى فى العراق (٧) . وكان المربد مقصدا لشعراء الأمصار الإسلامية ، فقد قصد الكميت الفرزدق ليعرض عليه الهاشميات وهناك دارت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ١٢ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٠ ص ١٦٩ .
(٣) المرجع السابق : جـ ٧ ص ٤٦ .
(٤) المرجع السابق : جـ ١٠ ص ٢ .
(٥) ابن المثنى : النقائض بين جرير والفرزدق جـ ٢ ص ٢٧ .
(٦) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٨٢ .
(٧) المرجع السابق .

المغامرات العصبية بين الكميت الذى تعصب للنزارية ، ودعبل الذى تعصب للقحطانية (١) .

## المجالس الاجتماعية فى بلاد الحجاز :

لم تزدهر الموسيقى والغناء فى الأمصار الاسلامية مثلما ازدهرت فى بلاد الحجاز فى العصر الأموى (٢) . كان الحجاز هو المكان الذى خرج منه الفاتحون العرب ثم عادوا إليه وبين سباياهم مئات الجوارى الفارسيات والروميات اللاتى تربين فى بيوت الملوك والأمراء فأجدن الغناء والموسيقى ، ونقلن ذلك إلى الحجاز وصبغته بالصبغة العربية ، وكان لهذا الفضل فى تأسيس مدرسة الغناء فى الحجاز . ولاشك فى أن قيام الخلافة الأموية فى الشام ، ويأس أهل الحجاز من عودة حاضرة الخلافة إلى مصرهم وانشغال أهل العراق بمعارضة الأمويين ، صرف فتيان الحجاز ، بما لهم من مال وفير وجاه ، عن الامارة والخلافة والسياسة ، إلى اللهو والغناء (٣) .

تغيرت مظاهر مدينتى الحجاز تغيرا كليا فى عهد الأمويين . فأما المدينة – العاصمة المنسية – فقد لجأ إليها إذ ذاك عدد كبير ممن أرادوا أن يكونوا بمنأى عن الاضطرابات السياسية أو رغبوا فى أن يتمتعوا بما كسبوا من غنائم حروب الفتح دون أن يعكر صفوهم أحد . وحذا الكثير من الأغنياء الجدد حذوهم . وانتشرت فى المدن القصور التى تعج بالخدم والرقيق الذين يوفرون لسادتهم كل وسائل الترف والنعيم . أما مكة فلم تكن أقل من أختها المدينة اجتذابا لمحبى الترف والترفيه ، وكان الحجاج من جميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية يجلبون معهم فى كل سنة مبالغ مالية كبيرة ، وأصبحت مكة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٩ .
(٢) ابن سلمة : كتاب الملاهى وأسمائها ص ٦٩ .
(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢١٤ .

والمدينة مركزا للمجالس الاجتماعية والغناء والموسيقى ، وقصدهما القيان الفارسيات والروميات ، وانتشر الشعر الغزلى [١] .

وصف الأصفهانى فى كتابه ( الأغانى ) [٢] فى مواضع مختلفة كثيرا من مجالس الحجاز الاجتماعية ، فقد انتشرت فى الحجاز بيوت القيان التى كان يقصدها الأثرياء حيث يستمعن إلى أنغام الموسيقى وأعذب الأغانى ، وحيث يرتدوا الألبسة الملونة وقد اتكأوا على أوسائد المربعة ، يستنشقون عبير البخور ، ويرتشفون الشراب فى أوانى من الفضة . وكان من أبرز شخصيات هذه المجالس السيدة سكينة بنت الحسين بن على التى اشتهرت باتقان الغناء والشعر وابتكار الأزياء إلى جانب ما اتصفت به من جمال وذوق وسرعة بديهة وروح مرحة فكهة ، وقد ابتكرت طريقة لتصفيف الشعر انتشرت بين النساء والرجال على حد السواء وتسمى ( الطرة السكينية ) وظلت منتشرة حتى نهى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز عنها . أما السيدة الثانية فهى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله وكانت تمتاز بالجمال والكبرياء والروح العالية وهى الصفات الثلاث التى كان يقدرها العرب فى المرأة .

### الغناء والموسيقى :

شغلت بلاد العراق فى العصر الأموى بالفتن والثورات التى ألهتهم عن الغناء والموسيقى ، كما غلب روح التصوف والزهد على عدد كبير من أهل العراق . وشغل أهل البصرة بالفقه وعلم الكلام . وكان لهذه العوامل أثرها فى عدم ازدهار الغناء فى بلاد العراق ، فأصبحت الحجاز موطنا للغناء والموسيقى ، بينما أصبحت العراق مركزا للحياة الفكرية والعقلية .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٢٩٥ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١ ص ١٥٧ .

وكان بعض أهل العراق الذين يحبون الاستماع إلى الغناء لا يجدون فى بلادهم حاجتهم ، فكانوا يقصدون الحجاز فيسخر أهلها من جهل أهل العراق بأنواع الغناء [١] . ولم يكن فى العراق سوى مغن واحد مشهور هو حنين النصرانى [٢] . وكان وقار شعراء العراق دافعا لنساء العراق للرحيل إلى الحجاز لسماع غزل عمر بن أبى ربيعة الذى أدرك هذه الحقيقة فرحل إلى البصرة حيث أقام بها [٣] .

أحب العرب منذ فجر تاريخهم سماع الأنغام الشعبية التى تهز النفوس وتحرك المشاعر . وكان العرب يحبون الإنصات إلى الغناء ويعتبرون أنه من سوء الأدب أن يتكلم المرء أثناء الغناء . فقال شاعرهم :

لو كان لى أمر قضيت قضية     إن الحديث مع الغناء حرام

كان الغناء عند العرب على ثلاثة أوجه ، النصب والسناد ، والهزج أما النصب فغناء الركبان والقينات ، أما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، أما الهزج فالخفيف كله . وهو الذى يثير القلوب . وكانت هذه الأوجه من الغناء منتشرة فى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، فهى مجامع أسواق العرب [٤] .

لم يشجع الاسلام الغناء والموسيقى فى أول عهد الدولة العربية الإسلامية لتغلب النزعة الدينية على الخلفاء الراشدين وانهماكهم فى تثبيت دعائم الدولة ، وانشغالهم فى الفتوحات الاسلامية . فلما قامت الدولة الأموية فى دمشق بدأت تشجيع الغناء والموسيقى ، وقد عقد الخلفاء مجالس خاصة لسماع أشهر المغنين فى عصرهم ، فكانوا ينشدونهم الأبيات موقعة على الألحان فيطربون لسماعها .

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١١٨ .
(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٨٦ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ١٠٤ .
(٤) المرجع السابق .

كانت أشهر آلات الموسيقى العربية الدفوف المربعة ، والطبول ، والعود وكانوا يسمونه الكران أو المزهر أو البربط [١] وبعد الفتوحات العربية الاسلامية تعلم العرب بعض الآلات الفارسية والرومانية ، فاقتبس العرب عن الفرس بعض آلاتهم مثل الناى والطنبور والطبل والصنوج ، وكان الطنبور أكثر الآلات استعمالا عند الفرس [٢] .

بدأت بالفتوحات الاسلامية مرحلة امتزاج الموسيقى والغناء العربى بموسيقى وغناء الفرس ، فقد أصبح كثير من أهل العراق الفرس موالى للعرب ، ونقل العرب بعض المغنين الفرس إلى الحجاز ، ومن أبرزهم نشيط الفارسى ، وطويس ، وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر ، فعلموا العرب العيدان والطنابير والمعازف والزمامير ، وسمعوا شعر العرب ولحنوه ووضعوا له الموسيقى [٣] . وهكذا كان الشعر عربيا والموسيقى فارسية ، ولعب الفرس الدور الأول فى تقدم الغناء فى الحجاز بينما حرموا بلاد العراق من فنونهم . وكان سعيد بن عبيد من أبرز المغنين الذين نقلوا غناء الفرس إلى غناء العرب ، فقد أعجب بما سمع من غناء البنائين الفرس الذين جلبهم عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة [٤] كما أن عبيد الله بن سريج كان أول من صنع عوده على نمط عيدان الفرس ، وقد اقتبسه أيضا من البنائين الفرس [٥] .

أشهر المغنين فى العصر الأموى ( طويس ) مولى بنى مخزوم ، وكان بيد النقر بالدف ، كما كان عالما بأنساب أهل المدينة ، وهو أول من غنى

---

(١) ابن سلمة : كتاب الملاهى وأسمائها ص ٨٠ .

(٢) ابن خردازبه : كتاب الملاهى ص ٩٥ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ٨١ - ٨٢ .

(٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٩٥ - انظر أيضا كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين .

بالمدينة غناء يدخل فى الايقاع ، وهو بناء ألحان الغناء على موقعها وميزاتها وكان أهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء .

ومن أشهر المغنين أيضا ، أبو مروان الغريض وهو من مولدى البدير ، اشتهر بالغناء والأدب . وقد تتلمذ عليه ابن سريج وأبدع الغريض فى الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه عن الجن . ومن المغنين المشهورين حنين النصرانى وقد نشأ بالحيرة واشتغل فى صباه بحمل الفاكهة والرياحين إلى بيوت أصحاب القيان والمطربين فى الحيرة ، فاستمع لأنواع عديدة من الغناء كان لها أثرها الكبير فى حياته الفنية ، وقد زادت ثروته من وراء اشتغاله بالغناء ، حتى إنه قيل لحنين : أنت تغنى منذ خمسين سنة ما تركت لكريم مالا ولا دارا ولا عقارا إلا أتيت عليه . فقال : بأبى أنتم إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس أفتلومونى أن أغلى الثمن [(١)] . وقد رحل ابن محرز مغنى الحجاز المشهور إلى الكوفة فأراد أن يكون له نصيب فى أموال أهل العراق ولكن حنينا أراد أن يستمر فى احتكار الغناء بالعراق ، فمنح ابن محرز ما كان يطمع فيه من مال حتى يخلو له جو العراق [(٢)] .

واشتهر بالغناء أيضا أحمد النصيبى الذى عاش بالعراق فى عهد عبيد الله بن زياد ، وكان « صاحب الأنصاب وأول من غنى بها ، وعنه أخذ النصب فى الغناء ، وكان يغنى بالطنبور فى الاسلام ، وله صنعة كثيرة حسنة لم يلحقها أحد من الطنبوريين ولا كثير ممن يغنى بالعود ، وكان مواخيا لأعشى همدان مواصلا له ، فأكثر غنائه من أشعاره » [(٣)] . وكان بالحيرة بعض المغنين « وكانوا يغنون غناء الحيرة بين الهزج والنصيب وهو إلى النصب

---

(١) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١١٨ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

أقرب » [١] وكان عدد المغنين بالعراق قليلا ، ولذا استقدم أهل العراق ابن سريج من الحجاز فكان يغنى ويعزف فى دار الشعبى الفقيه والراوية المشهور [٢] .

* * *

(١) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢١ ص ١٢١ – انظر أيضا كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم ، وفجر الإسلام لأحمد أمين .

# ٥ – أخلاق وعادات المجتمع

## الأخلاق الاجتماعية :

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم العربية خلال الفتوحات ، فى الشام والعراق ومصر ، فى ظل راية الاسلام وحاولوا جهدهم أن يتخلوا عن عصبيتهم القبلية وارتباطهم بقبائلهم . متخلين عن قيود الجاهلية . وقد اجتهد الاسلام فى أن يخلع عن العربى المسلم الثوب القبلى وأراد له أن يشكل فى أثواب أخرى كأن يتجه نحو عصبية الفكرة وشعائر الدعوة ، وأن يمضى فى طريقه إلى إنشاء أمة جديدة ترتبط بقرابتها الفكرية ، وتوحدها غاياتها المذهبية .

ولكن هذا المجتمع الجديد كان لابد له من خطى يتعثر بها واتجاهات متقاربة أو متضاربة ينشعب إليها ، وكان لابد فى دور التجربة من أن يتقلب فى كثير من الأوضاع ويتخذ كثيرا من الأشكال ، وتتعاقب عليه النزعات والرغبات . ولذلك بدأ هذا المجتمع وكأنما يخضع لطائفة من التشكلات : بعضها تشكل صادق وبعضها تشكل كاذب ، بعضها ضعيف لا يلبث أن يطويه شكل آخر قوى ، بعضها يعتمد على المدن التى سكنها الفاتحون وبعضها يعتمد على المواقع التى خاضوها والأمجاد التى حققوها ، وبعضها يعتمد على الصحبة وبعضها يعتمد على القرابة ، بعضها سياسى وبعضها اقتصادى ، وبعضها زمنى وبعضها اجتماعى .

هذا المجتمع كان من التعقيد ومن السعة والاختلاط بالأقوام واللغات والديانات بحيث لم تقو بذور هذه الأنماط من التشكل الاجتماعى أن تستغرقه ، وأن تقنع رغباته وتسد حاجاته ، فكان لابد أن تعرض له – قبل أن يتسم بالاستقرار – هزات ورجات ، وكان لابد له أن يتبلور فى

صور وتشكلات كثيرة قبل أن يتخذ صورته النهائية . وسيكون لاتساع الدولة آثار كثيرة فى صياغة المجتمع وتحديد طبقاته [١] .

كانت أخلاق أعضاء المجتمع العربى الاسلامى – مثله مثل أى مجتمع فى التاريخ – مزيجا من الخير والشر ، ومن الزهد والمجون . أما الخير والزهد فقد امتاز به أهل الكوفة خاصة ، فكان يقال « خذوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة » [٢] . وكان على بن أبى طالب يقول عن الكوفة : « كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه » . وكان سلمان الفارسى يقول عن أهل الكوفة : ( إنهم أهل الله والكوفة قبة الإسلام يحن إليها كل مؤمن ) [٣] .

انتشر الزهد فى العراق عامة وفى الكوفة خاصة فى صدر الخلافة الأموية ، فقد وجد كثير من النساك الذين سموا بالعباد أى الذين يعكفون على عبادة الله . وكانت كلما مالت الحياة العامة نحو المصالح المادية والملاذ الدنيوية ، وجد هؤلاء الذين نشدوا المثل العليا الاسلامية أسبابا وبواعث تدفعهم إلى إبداء استهجانهم وسخطهم ، متخذين لأنفسهم موقفا خاصا لا يحيدون عنه ، وهو نبذ كل غاية دنيوية [٤] وكان نمو حركة الزهد والتصوف فى العراق متأثرا ببعض المبادىء اليهودية والمسيحية [٥] . ولاشك أن فشل ثوراث أهل العراق ضد بنى أمية من جهة وقسوة الولاة الأمويين من جهة أخرى كانا عاملين لانتشار الزهد فى العراق .

أما بعض أهل البصرة فقد تميزوا بالشر والمجون ، فقد كان يقال ( أهل البصرة لا يفتحون باب هدى ولا يغلقون باب ضلالة ) [٦] . وفى خلافة

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٤٩ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٩٩ .

(٣) المرجع السابق : جـ ٧ ص ٢٩٨ .

(٤) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٣٠ .

(٥) Nichoison : Alit. Hist of the Arabs, P. 110.

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٤٩ .

معاوية بن أبي سفيان انتشر الفسق والمجون فى جميع أنحاء البصرة [١] .
ووصف زياد بن أبية هذه المفاسد فى خطبته البتراء التى ألقاها فى مسجد الكوفة فقال : ( إنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من تركككم هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ) [٢]
وتميزت بعض عامة أهل العراق بحب الاستطلاع ومعرفة الأسرار [٣] .
وكانوا كما قال معاوية عنهم ( يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرىء شيعة لنفسه ) [٤] . كما امتازوا بالافراط فى جميع نواحى الحياة . فقد أراد الوليد ابن عبد الملك أن يبنى مسجدا بدمشق ( فقال الوليد لأصحابه ، أقسمت عليكم لما أتانى كل رجل منكم بلبنة . فجعل كل رجل يأتيه بلبنة ورجل من أهل العراق يأتيه بلبنتين فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق .
قال : يأهل العراق تفرطون فى كل شيء حتى فى الطاعة ) [٥] . سأل الحجاج بن يوسف كاتبه زاذان فروخ عن طباع أهل العراق فقال عن أهل الكوفة : نزلوا بحضرة أهل السواد فأخذوا من صنافتهم وسماحتهم . وقال عن أهل البصرة : نزلوا بحضرة الخوز فأخذوا من مكرهم وبخلهم [٦] وكان زياد بن أبية يقول : أهل الكوفة أكثر طعاما ، وأهل البصرة أكثر دراهم [٧] .

---

(١) الطبرى : جـ ٦ ص ١٢٤ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ١٤٩ .
(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢١١ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٨٢ .
(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ٩٩ .
(٦) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١١٤ .
(٧) المرجع السابق : ص ١٦٥ .

أما أهل الحجاز ، فقد تحدثنا عن حياتهم وعن مجالس الغناء والموسيقى خلال حديثنا عن المجالس الاجتماعية فى الفصل السابق ، فقد انتشرت بيوت القيان فى كل من مكة والمدن ، وشغل كثير من أهل هاتين المدينتين بالغناء والموسيقى وأنواع اللهو المختلفة ، نتيجة تدفق الثروات على بلاد الحجاز من سائر الأمصار المفتوحة ، كما أن انتقال العاصمة من المدينة بالحجاز إلى دمشق بالشام جعل الحجازيين ينصرفون عن الاشتغال بالسياسة إلى اللهو والطرب ، فحفلت بلاد الحجاز فى العصر الأموى بشعراء الغزل والمطربين والمطربات ومحبى الاستماع إلى الموسيقى والغناء .

وإذا تركنا أهل العراق ، وأهل الحجاز ، وانتقلنا إلى دمشق عاصمة الدولة العربية الاسلامية فى العصر الأموى ، لوجدنا طرقها الضيقة وقد ازدحمت بالدماشقة ، يخبون فى سراويلهم الواسعة وقد انتعلوا الأحذية الحمراء المدببة ( المراكيب ) وعلت رؤوسهم العمائم الكبيرة وأخذوا يتدافعون بالمناكب مع البدو الذين صبغت الشمس وجوههم وقد لبسوا الجبب الفضفاضة ووضعوا فوق رؤوسهم الكوفية والعقال ، وقد ترى هنا أو هناك الدمشقى الغنى من طبقة الأشراف . وقد امتطى صهوة جواده والتحف بعباءة من الحرير الأبيض وتسلح بسيف أو مزارق . ويعبر فى الطرقات عدد قليل من النسوة كلها منقبات فى حين يسترق البصر أخريات غيرهن من خلال نوافذهن المشبكة إلى الأسواق والميادين الهامة . وترى بائعى الشراب والحلوى وقد علت أصواتهم كأنما ينافسون ضجيج المارة والعدد العديد من الحمير والابل المحملة بمختلف حاصلات الصحراء والمزارع . وكان العرب فى هذه المدينة ، شأنهم فى غيرها من المدن ، يعيشون فى أحياء منفصلة حسب قبائلهم . وكان باب كل بيت يؤدى من الشارع إلى ردهة يتوسطها حوض ماء كبير ينبعث الماء فيه من نافورة فيحدث رذاذه ما يشبه النقاب . وإلى جوار هذا الحوض ترى شجرة برتقال أو ليمون ، وتحيط الحجرات بفناء الدار ، وفى البيوت الكبيرة تجد إلى جوارها رواقا [1] .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٢٨٦ .

ونترك العراق والحجاز والشام ، ونرحل إلى مصر ، وهناك نجد الفسطاط مركز المجتمع الاسلامى الجديد ، وقد أراد عمر بن الخطاب ، كما أراد البصرة والكوفة ، أن تكون الفسطاط معسكرا للجند ، ولكن الذى يحدث فى البصرة والكوفة والفسطاط أن تحولت هذه المعسكرات إلى مدن عامرة ، ومضت مظاهر الترف تشق طريقها إلى حياة الجند ، وانتهت حياة الجند إلى الاستقرار ، واستمر عمر بن الخطاب يكتب إلى جنده يوبخهم وينصحهم ، ولكن توبيخ الخليفة أو نصحه لم يستطع أن يغالب هذه الموجة التى غمرت المسلمين بفعل ما كان من آثار الأجواء الجديدة فى عيونهم وقلوبهم (١) .

أما الاسكندرية فقد كانت تضم أخلاطا من الناس وكان يغلب عليها الطابع البيزنطى ، نتيجة وقوعها على ساحل البحر المتوسط ، كما أن مركزها التجارى فى شرق هذا البحر وثق صلاتها بأوروبا ، ولذا كثر عدد الروم فى الاسكندرية وأضفوا عليها طوابعهم اللغوية والثقافية والاجتماعية .

آمن العرب المسلمون بالتفاؤل والتشاؤم ، فكانوا يسمون أولادهم بأسماء الحيوانات تفاؤلا من ذلك وكان الرجل إذا ولد له ذكر يتعرض لزجر الطير والقال ، فإن سمع إنسانا يقول حجرا أو رأى حجر سمى ابنه به ، وإن سمع إنسانا يقول ذئب أو رأى ذئبا تأول فى المولود الفطنة والمكر والكسب ، إن رأى حمارا تأول فيه طول العمل والقوة والجلد وقد أطلق على الحجاج وهو صغير اسم « كليب » (٢) . وكان يخرج فى صحبة كل جيش منجم ليخبرهم عن اليوم السعيد الذى يبدأون فيه المعركة (٣) .

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ١٤١ .

(٢) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ١٥٨ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٠ .

وكان أهل كل قطر إسلامى يعتقدون أن المطر إذا أصاب باب الحرم المواجه لبلادهم كان الخصب والمطر فى تلك السنة فى قطرهم ، وإذا عم جوانب الحرم كان المطر والخصب عاما فى سائر الأمصار [١] ، وكان معظم العرب يتشاءمون من نعيق الغربان ، وكان زياد بن أُبية في مقدمة من يعتقدون فى ذلك [٢] . أو يتشاءمون من بعض الأيام فكان أهل العراق مثلا — يتشاءمون من يوم الأربعاء فلا يغزون أو يتاجرون أو يسافرون فيه [٣] .

وخلاصة القول فى الأخلاق الاجتماعية ، أنها اختلفت من مصر إسلامى إلى آخر ، فالأخلاق فى بلاد العراق التى شهدت الحكم الفارسى وسيادة التقاليد والنظم الاجتماعية الفارسية ، تختلف حتما عن الأخلاق الاجتماعية فى الشام ، ومصر التى خضعت للحكم الرومانى فترة طويلة . بل أن العرب الذين خرجوا خلال الفتوحات العربية الاسلامية فى عهدى أبى بكر وعمر قد استقروا فى الأمصار المفتوحة وتزوجوا من نسائها ، وأصبح الجيل الثانى يحمل خليطا من الدماء ومزيجا من الأخلاق والنظم الاجتماعية .

## الخمر والنبيذ :

كانت عادة شرب الخمر شائعة فى الأمصار التى فتحها العرب والإسلام حرمها لما فيها من أضرار جسيمة ، وأقام الحدود على شاربيها وعاقبوا بائع الخمر .

كانت عادة شرب الخمر شائعة فى الأمصار التى فتحها العرب المسلمون وخاصة العراق والشام ، وظلت هذه العادة منتشرة بين بعض

---

(١) الجاحظ : الحيوان جـ ٣ ص ٤٣ .

(٢) الطبرى : جـ ٦ ص ١٢٣ .

(٣) ابن قتيبه : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٤٥ .

الأهالى من غير المسلمين فى بعض الأمصار بعد الفتح الاسلامى ، وخاصة فى العصر الأموى . وقد اختلفت الفقهاء فى تحليل أو تحريم النبيذ . فقد تناول بعض الخلفاء الأمويين النبيذ وقالوا أنه غير محرم ، ووافقهم على ذلك بعض فقهاء العراق ، بينما كان يحرم فقهاء الحجاز النبيذ وسائر أنواع الخمور . وقد بحث ابن عبد ربه [١] هذه المسألة ثم ذكر أن تحريم الخمر مجمع عليه بحيث أنه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء . ولكن النبيذ كان موضع الاختلاف . ثم ذكر ابن عبد ربه أن الخمر حرمه القرآن والنبيذ قد حرمه السنة ، وما كان محرما بالكتاب فلا يحل منه لا قليل ولا كثير . وما كان محرما بالنسبة فإن فيه فسحة أو فى بعضه . فقال البعض : قد جعل الله فيما أحل عوضا مما حرم فحرم الربا وأحل البيع وحرم السفاح وأحل النكاح . وحرم الديباج ، وأحل الوشى . وحرم الخمر وأحل النبيذ غير المسكر . ولذا ذهب بعض الناس إلى أن نبيذ التمر ليس خمرا واحتجوا فى ذلك بقول عمر : ما انتزع بالماء فهو حلال ، وما انتزع بغير الماء فهو حرام .

أجمع فقهاء الحجاز على تحريم النبيذ ، بينما أحل فقهاء العراق شربه . ويذكر ( جولدتسيهر ) [٢] أن الفقهاء فى المشرق أعملوا ذكاءهم ليحدوا من دائرة هذا المنع الذى يتسع لأشربة أخرى ، وذلك بواسطة التفسير ، فسعوا إلى إثبات أنه فيما عدا خمر العنب لا تحرم الأشربة الأخرى مثل نبيذ التفاح والتمر . وتطرفت فرقة البيهسية من الخوارج فكانت تحلل شرب الخمر فيقولون : « إن السكر من كل شراب حلال الأصل موضوع عمن سكر منه ، وكل ما كان من ترك صلاة أو شتم فهو موضوع عن صاحبه لا حد فيه ولا حكم ، ولا يكفر أهله بشىء من ذلك . ما داموا فى حال السكر . وقالوا أن الشرب الذى هو حلال الأصل لم يأت فيه من التحريم ولا إقلال

---

(١) العقد الفريد : جـ ٦ ص ٣٥٢ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٦١ .

أو اكثار أو سكر »[١] وبطبيعة الحال هذا رأى غريب لا يختلف عن غيره من الآراء الغريبة التى كانت تعتنقها فرق الخوارج المختلفة .

سجل ابن عبد ربه فى كتابه ( العقد الفريد )[٢] رسالة بعثها عمر ابن عبد العزيز إلى عامله بالبصرة عدى بن أرطأة يتحدث فيها عن الأشربة المختلفة ، وهى : « .. وإن رجالا منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون : شربنا طلاء . بلا بأس علينا فى شربه . ولعمرى أن فيما قرب مما حرم الله بأسا ، وإن فى الأشربة التى أحل الله : من العسل ، والسويق ، والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحة عن الأشربة الحرام » . أما المؤرخ ابن عبد الحكم[٣] فينفى بشدة كل ما ذكر عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من إحلال النبيذ .

كانت بلاد الحيرة أكثر البلاد حانات ، فيروى الأصفهانى[٤] أخبار ( الأقيشر ) ذلك الكوفى الخليع الماجن الذى أدمن شرب الخمر ، فكان يمدح أهل الكوفة ولا يأخذ منهم غير خمسة دراهم ، فيجعل درهمين منها ليكرى بغل يركبه إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهما للطعام . كما يحدثنا الأصفهانى أيضا[٥] عن حانة بالكوفة هى حانة ( ابن رامين ) كان يقصدها أهل الكوفة لسماع الغناء وشرب النبيذ وكان شراب أهل الكوفة الزبيب حتى حكم زياد بن أبى سفيان فشربوا التمر[٦] وقد نصح عامر بن مسعود والى الكوفة ، بعد موت الخليفة الأموى يزيد بن معاوية فقال : « إن لكل قوم أشربة ولذات فأطلبوها فى مظانها وعليكم بما يحل ويحمد ، وأكسروا شرابكم

---

(١) ابن نشوان : الحور العين ص ١٧٦ .
(٢) العقد الفريد : جـ ٦ ص ٣٥٩ ، ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٦٦ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٩٧ .
(٤) الأغانى : جـ ١٠ ص ٨٦ .
(٥) الأغانى : جـ ١٠ ص ١٢٨ .
(٦) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٧١ .

بالماء وتواروا عنى بهذه الجدران » [١] وكانت طبقة تجار الكوفة أكثر طبقاتها إقبالا على شرب النبيذ [٢] وكان من واجب المحتسب فى كل بلد إسلامى أن يمنع الناس من المجاهرة بشرب الخمر [٣] .

أغرق بعض الخلفاء الأمويين المتأخرين فى شرب الخمر وخاصة النبيذ مثل يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . واشتهر بعض الولاة بشرب الخمر ، مثل الوليد بن عقبة والى عثمان بن عفان بالعراق [٤] وبشر بن مروان الذى يتهمه الأصفهانى [٥] أنه كان يؤدى مهام عمله وهو ثمل كما اتهمه البلاذرى [٦] بأنه طلق زوجته لأنها لا تشاركه الشراب . ولكن هناك من الولاة ممن اشتهروا بمحاربتهم الخمر ، مثل زياد بن أبية الذى منع دخول الخمر إلى بلاد العراق أثناء حكمه ، ومثل الحجاج بن يوسف الذى رفض دعوة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك إلى مشاركته شرب النبيذ [٧] .

كان النبيذ يصنع من أنواع عديدة من الفاكهة ، وخاصة العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش ، ومن الذرة ، ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق صناعته ، فقد يكون عصير بعض ثمار الفاكهة أو منقوعها وقد يضيفون إليه العسل ثم يضعوه على النار ، وكانوا إذا أقبلوا على شربه صفوه ، وتناولوه فى أقداح كبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه فيما بعد .

## الأعياد والمواسم والحفلات :

كان المسلمون فى جميع الأمصار الاسلامية يحتفلون بأربع ليال من

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٦٠ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٢ ص ٩٥ .
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٣٧ .
(٤) صلى الوليد صلاة الصبح وهو سكران فصلاها أربع ركعات ( اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٤٢ ) .
(٥) الأغانى : جـ ١٨ ص ٧٠ .
(٦) أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٧٧ .
(٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٣٣ .

السنة وهى : ليلة أول رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتا العيدين [١] وكانوا يقيمون احتفالات كبيرة فى عيد الفطر والأضحى ، وعيد المولد النبوى . وحرص المسلمون فى بلاد العراق على الاحتفال بأول المحرم وباليومين التاسع والعاشر منه ، فكان بنو أمية فى اليوم العاشر من المحرم يلبسون الملابس الجديدة ويتزينون ويتكحلون ويقيمون الولائم ، بينما الشيعة ينوحون ويبكون أسفا لقتل الحسين [٢] ، وكانت شيعة العراق تقصد كربلاء للزيارة والتجارة ، وقد بذل الولاة الأمويون جهدهم فى منع الشيعة من زيارة كربلاء ، واشتد هذا المنع فى خلافة هشام بن عبد الملك بعد ثورة زيد بن على [٣] . وكان العرب المسلمون يتزينون فى أعيادهم بأحسن الثياب ويتسابق فرسانهم فى هذه الأعياد على الخيل .

حرص الفرس على الاحتفال بأعيادهم القديمة ، وأبرزها النيروز والمهرجان . وكان النيروز أول أيام الربيع ، وفيه يرش الناس بعضهم بعضا بالماء ويتبادلون الهدايا [٤] . أما المهرجان فهو ابتداء أيام الشتاء . وكان الولاة الأمويون يطلبون من الدهاقين – أى كبار الملاك الفرس – تقديم الهدايا فى عيدى النيروز والمهرجان ، وبلغت قيمة الهدايا التى حملت إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام عشرة ملايين درهم [٥] .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم فى جو من الحرية والتسامح ، وكان المسلمون يشاركونهم فى أعيادهم وخاصة النصارى منهم ، فقد كانت هذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين ، وخاصة أن الأديرة كانت تحفل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة [٦] ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد

---

(١) الدميرى : حياة الحيوان جـ ١ ص ٨١ .
(٢) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٢٩ .
(٣) الكليدار : تاريخ كربلاء ص ٩٣ .
(٤) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٥ .
(٥) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٩٤ .
(٦) الشابشتى : الديارات ص ٦٠ .

الفرس ، وبين الأعياد المسيحية والفصول ، فقالوا أن الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد بربارة وقت الأمطار ، وعيد الصليب وقت قطاف العنب . ومن أمثال الناس فى ذلك : ( إذا جاء عيد بزيارة فليتخذ البناء زمارة ) أى ليمكث كل فرد فى بيته ، و ( إذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس ) [١] .

أما اليهود فكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه ( عيد رأس هيشا ) ، كما يحتفلون بعيد ( صوماريا ) وهو عيد الصوم العظيم ومدته خمس وعشرين ساعة ، وعيد ( المظال ) ومدته ثمانية أيام يجلسون فيها تحت ظلال النخل وأشجار الزيتون ، وعيد الفصح أو الفطر وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير [٢] .

كان أبرز ما يميز الأعياد مواكب الخلفاء والولاة . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب فى العصر الجاهلى ، فلما ظهر الاسلام كان الخلفاء الراشدون يمشون بين الناس كسائر المسلمين ، لا حرس أمامهم ، ولا حاجب خلفهم . وأول من اتخذ المواكب ولاة الأمصار . تقليدا لحكام الروم والفرس ، حتى لا يشعر الأهالى بأنه تغير شيء مما اعتادوه من أبهة وأقام معاوية حراسا يرفعون الحراب بين يديه ، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التى يصلى فيها خوفا من الاغتيال ، واقتدى به ولاته ، فاتخذ زياد بن أبية فى العراق رجالا يمشون بين يديه بالأعمدة أو الحراب ثم أصبح المسير بالحربة تقليدا .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٢ .

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ص ٣٦١

## وسائل التسلية وشغل أوقات الفراغ :

كان الصيد معروفا فى الجاهلية ، ولكنه كان قاصرا على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ ، فلما اختلط العرب بالروم والفرس بعد الفتوحات الاسلامية اقتبسوا عنهم كثيرا من طرق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير ، وهى الباز والشاهين والعقاب والصقر ، يعلمونها صيد الطير . واقتنى العرب الفهود والكلاب لصيد الغزلان وحمر الوحش .

اهتم بعض الخلفاء الأمويين بالصيد ، وكانوا يرون أنه يحقق فوائد كثيرة ، إذ كان الصيد يؤدى إلى تمرين الجند على الركض والكر ، ويعودهم الفروسية ، ويدربهم على الرمى بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس ، ويقلل المبالاة بإراقة الدماء ، كما أن الصيد رياضة تساعد على المحافظة على الصحة [١] . واشتهر من الخلفاء الأمويين الذين أغرموا بالصيد يزيد بن معاوية فقد كان يمتلك أعدادا كثيرة من الطيور والجوارح والفهود ، والقرود ، وكان يعتبر الصيد لونا من ألوان اللهو ، فكان يلبس كلاب الصيد أساورا من الذهب ، ووهب كل كلب عبدا يتوفر على خدمته .

كان السباق عادة شائعة بين الأمم المعاصرة للعرب الأقدمين ، وكان العرب فى العصر الجاهلى يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك ، وكثيرا ما نشبت الخلافات والحروب بسبب السباق ، وكانوا يرسلون خيلهم إلى الحلبة – وهى ميدان السباق – عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها فى السبق بعضها على بعض .

وبعد انتشار الاسلام بالغ العرب فى اتخاذ الميادين واستكثروا الخيول وتفننوا فى تضميرها ، وكان لمعاوية بن أبى سفيان حلبة يخرجون إليها فى أيام

---

(١) الفخرى : ص ٥٤ .

معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق أجازوه ، وقصب السبق قصبة يغرسونها فى آخر الحلبة فمن سبق إليها واقتلعها فهو الفائز . وأصبح سباق الخيل من أبرز وسائل التسلية فى المجتمع العربى الاسمى وخاصة فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك . فقد أقام عدة حلبات للسباق ، وكان يستجيد الخيل للسباق . ويبذل فى اقتنائها الأموال ، واشترك فى السباق فى عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء ، وكان له فرس نال شهرة كبيرة اسمه ( الزائد ) ، وكانت الأميرات الأمويات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن فى السباق (١) .

ومن الخلفاء الأمويين الذين اهتموا بسباق الخيل الخليفة الوليد بن يزيد . فكات لديه من الخيل ألفا ، أسبقها فرس اسمها ( السندى ) وكان ميدان السباق يومئذ فى الرصافة من أرض الشام ، ولهم فيها ميادين كثيرة ، ولمحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها هى أحسن ما نظم فى هذا الموضوع ومن الخلفاء الذين لم يهتموا بالسباق الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فقد بعث إلى ولاته بالأمصار الاسلامية ينهاهم عن « ركض الخيل فى غير حق » (٢) .

ومن أنواع التسلية عند العرب . الكرة ، وكانوا يتدافعونها بالصوالجة والقلة والمغلاة ، وهما عودان يلعب بهما الصبيان ، فيرمى الصبى بالقلة فى الهواء ثم يضربها بمقلاء فى يده ، وهى خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلة فى حركتها . وإذا وقعت كان طرفاها مجافيين للأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضها بالمقلاء فيضربها فى الهواء فتستمر ماضية (٣) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨٨ وما بعدها . وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم جـ ١ ص ٥٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٥ .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٤٩ .

الملابس :

لم يكن الرسول وأبو بكر وعمر بن الخطاب يتأنقون فى ملبسهم ، بل اشتهروا بالزهد والتصوف . فقد كان أبو بكر يلبس فى خلافته الشملة والعباءة . قدم إليه ملوك اليمن وعليهم الحلل الموشاة بالذهب والمحلاة بالتيجان ، فلما رأوا ما عليه من الزهد والتواضع والنسك ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم من ملابس فاخرة .

وكان المسلمون فى صدر الاسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف بالطعام والملبس ، فكان الخليفة فى عهد الخلفاء الراشدين يمشى فى الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب غليظ ، وفى رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف ، وفى يده درة يستوفى الحد بها . وكان عمال عمر إذا وفدوا عليه لبسوا جبة صوف وتعمموا بعمامة دكناء . فكان سلمان الفارسى عامل عمر على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير . وكان أبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف ، فلاموه على ذلك وقالوا له : إنك بالشام وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك . فقال : ما كنت أترك ما كنت عليه فى عهد الرسول ﷺ (١) .

بعد الفتوحات العربية الاسلامية ، واستقرار الفاتحين فى الأمصار التى كانت خاضعة للفرس والروم ، تأثر العرب بما شاهدوه من حضارة ومدنية . وأقبلوا فى العصر الأموى على الوشى الذى كان يجلب من اليمن والكوفة فاتخذ الناس منه جلبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس . وقد بلغ من ولع الخليفة سليمان بن عبد الملك بالوشى أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه إلا فى الوشى . وأغرم هشام بن عبد الملك أيضا بالوشى ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٤١٣ .

واجتمع عنده ١٢ ألف قميص وعشرة آلاف تكة حرير ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على سبعمائة جمل .

اختلفت ملابس العرب والمسلمين باختلاف مهنهم ودرجاتهم الاجتماعية وثرائهم . فيذكر الجاحظ [1] أنه « كان لكل قوم زى : فكان من يدخل على أصحاب السلطان يلبس المبطنة أو الدراعة أو القباء أو الباز ويعلق الخنجر ، وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود ، وكان القضاة يلبسون القلانس العظام حتى ولو كانوا فى قيظ الصيف . وكانت هناك ملابس خاصة بمجالس الطرف واللهو والمنادمة ، فكانوا عادة يرتدون غلالة رقيقة ألوانها زاهية مصقولة ويضعون على رؤوسهم أكاليل من الريحان [2] وكان من يمارس الرياضة وخاصة الجرى يرتدى « قميص قوهى رقيق قد حسر على فخذيه » [3] وكانت هناك ملابس للعقاب ، فقد أراد عمر بن عبد العزيز عقاب يزيد بن المهلب والى العراق فأمر بأن يلبس « ثياب مشمرة وقلنسوة بيضاء » [4] . وكان الجند المشاة يلبسون القمصان المحبوكة على أجسامهم إلى ما تحت الركبة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وكان بعض الجند يلبسون الأقبية فوق الدروع [5] . وكان الزهاد يلبسون الملابس الصوفية ، يقلدون فى ذلك رهبان النصارى [6] . وكان وجوه المسلمين يلبسون فى دورهم الأكسية ، وإذا خرجوا منها لبسوا المطارف [7] . وكانت أشهر ملابس العامة القميص والطيالسة والعمائم والميذر [8] . ولبس العرب

---

(١) البيان والتبيين : جـ ٣ ص ٦٠ – ٦٢ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٣) الطبرى : جـ ٧ ص ١٨٢ .
(٤) اليعقوبى : جـ ٣ ص ٤٤ .
(٥) ابن الأثير : الكامل . جـ ٤ ص ٩١ .
(٦) ابن قتيبه : عيون الأخبار جـ ١ ص ١٩٨ .
(٧) المرجع السابق .
(٨) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ٩١ .

« البجاد » وهو كساء مخطط ، ولبسوا « التيان » وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة ، وقد اقتبسوها عن الفرس ، واستعملها الملاحون العرب (١) .

كان لباس البدو مؤلفا من قباء طويل مشقوق من الوسط ، ومتدل إلى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ، ويصنعونها من وبر الجمل ، وكانوا يرتدون فى الحرب أو عند ركوب الخيل أردية خاصة ، فيلبسون السروال عادة ، ورداء قصيرا بدلا من الثياب الفضفاضة .

أما ثياب المرأة العربية فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق من الرقبة عليه رداء قصير يلبس عادة فى البرد . وإذا خرجت المرأة من بيتها ترتدى الحبرة وهى ضرب من برود اليمن ، وهى ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقى ملابسها من التراب والطين ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

اختلف لباس الرأس باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ولكن الغالبية العظمى وضعت على رؤوسها العمامة ، وكانت تختلف فى حجمها تبعا للسن والمركز العلمى والاجتماعى ، وجرت العادة أن يلقوا بالطيلسان فوق العمامة ، وهو منديل كبير يتدلج على الكتفين ليقى الرقبة من حرارة الشمس . وكان البدو يلبسون عمامة خفيفة من القماش المطوى ، وكانوا يشدون بالعمائم أوساطهم عند الاجتهاد . وكان أهل العراق يلبسون القلانس فى الصيف ولا يلبسونها شتاء إلا إذا دخلوا على الولاة أو وجوه الناس لأن فى ذلك تعظيما وإجلالا لهم (٢) . وكان أهل البصرة يكورون العمامة على

---

(١) Dozy : Dictionnaire des Noms des Vetements, p. 55 .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ٦٠ .

رؤوسهم [١] ، وكان التجار يلبسون قلنسوة سوداء طويلة ، وكان ارتداء الحجاج بن يوسف لعمامة خز حمراء سببا فى انتشار هذا النوع من العمامة بين أهل العراق فكانوا يلبسونها على قباء أصفر [٢] .

أما أهل الذمة فقد حدد الخليفتان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز أنواع ملابسهم . فأمرهم عمر بن الخطاب ألا يتشبهوا بالمسلمين فى ملابسهم وهيئتهم ، وأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات وهى الخيط الغليظ المعقود فى وسطه ، وأن تكون قلانسهم طوالا مضربة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية [٣] . أما عمر بن عبد العزيز فقد نهى أهل الذمة عن لبس القباء والطيلسان والسراويل وأمرهم أن تكون الزنارات من الجلد [٤] . وكان المحتسب يراقب تنفيذ أهل الذمة لهذه التعاليم بدقة [٥] .

تميزت الملابس فى العصر الأموى بالطراز ، فقد كان من عادة الأكاسرة أن يرسموا أسماءهم أو علامات تميزهم فى طراز أثوابهم بخيوط من الذهب ، وجاء الخلفاء الأمويون فاكتفوا بكتابة أسمائهم ، وكان للخلفاء والولاة دور معدة لنسج أثوابهم فى قصور تسمى دور الطراز [٦] . وكان الولاة والجند يرتدون زيا طرز عليه اسم الخليفة ، وكان إذا رفع الوالى راية العصيان أزال اسم الخليفة من ردائه .

### شعائر الموت :

لم تمدنا المصادر العربية القديمة بصورة واضحة عن شعائر الموت

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٨ .
(٢) الطبرى : جـ ٤ ص ٤٨ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .
(٤) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٦٣ .
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ .
(٦) Dict Det. des Noms. des Vet., P. 55.

ومراسم الدفن ، ولكن يغلب على ظننا أنها لم تتغير كثيرا عما عليه الآن . ذكر الجاحظ [١] الاحتفال بدفن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فقال أنهم سووا عليه قبره بالأرض وجعلوا على ضريحه خشبتين من زيتون أحدهما عند رأسه والأخرى عند رجليه . ثم قام والده يؤبنه ويطلب له الرحمة والمغفرة ويشهد الناس على رضائه بما أقسم الله عليه . وأخذ الناس بعد تشييع جنازته يعزونه ويرجون له الصبر والسلوان .

كانت النساء فى الجنازات يتزاحمن لتوديع الفقيد ، وكن يقمن المناحات ويضربن صدورهن بالنعال تعبيرا عن حزنهن [٢] . وكان المسلمون يحرصون على السير خلف الجنازات إلى المقابر ، ويستمر قراءة القرآن عند القبر ثلاثة أيام [٣] . اختصت كل قبيلة بحى خاص بها فى كل مدينة ، وحرصت على بناء مقبرة يقتصر الدفن فيها على أبناء هذه القبيلة . وكانت بعض المجالس تعقد فى الجبانات ، وكانت بعض هذه الجبانات مراكز لخروج الثوار وخاصة فى العراق [٤] .

* * *

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٣ .

(٤) انظر كتابنا : ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣١٩ .

# الباب الثالث

## حضارة الاقتصاد


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

## ١ - الزراعة وملكية الأراضى فى الدولة الاسلامية

### بين إيجار الأرض والمزارعة والمخابرة :

نبدأ الحديث عن هذا الموضوع برواية بعض الأحاديث النبوية التى يتخذها البعض حجة يستند إليها فى النهى عن المزارعة وكراء الأرض . ونحن إذا تتبعنا كتب الحديث علمنا أن الروايات التى ورد فيها النهى عن مزارعة الأرض وكرائها ، أو جاء فيها أن من كانت له الأرض فليزرعها بنفسه أو يمنحها أخاه ليزرعها ، إنما رويت عن ستة نفر من الصحابة هم : رافع ابن خديج عن أبيه قال جاءنا أبو رافع من عند رسول الله ﷺ فقال : « نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان يرفق بنا ، وطاعة الله وطاعة رسوله أرفق بنا ، نهانا أن يزرع أحدنا إلا أرضا يملك رقبتها ، أو منيحة يمنحه رجل » [١] .

عن جابر بن عبد الله : « نهى رسول الله ﷺ عن كراء الأرض » ، « نهى عن المخابرة » ، « نهى رسول الله ﷺ أن يؤخذ للأرض أجر أو حفظ » ومن كانت له أرض فليزرعها فان لم يزرعها فليزرعها أخاه [٢] .

وروى أبو هريرة « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه » . وقال أبو سعيد الخدرى : « إن النبى ﷺ نهى عن المزابنة والمحاقلة » ، والمزابنة اشتراء الثمر فى رؤوس النخل والمحاقلة كراء الأرض [٣] . وعن ثابت بن الضحاك وزيد بن ثابت : « نهى رسول الله ﷺ عن المخابرة . قلت : وما المخابرة ؟ قال : أن تأخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع » [٤] .

---

(١) أبو داود : جـ ٥ ص ٦٢ رقم ٣٢٥٥ .
(٢) مسلم : باب كراء الأرض جـ ٥ ص ١٧ - ١٩ .
(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢١ .
(٤) أبو داود : جـ ٥ ص ٦٧ رقم ٣٢٦٥ .

هذه هى الروايات التى يستند إليها من ذهب إلى أن الإسلام نهى عن المزارعة أو كراء الأرض بالنقود ، وأمر ألا يزرع الانسان أرضه إلا بنفسه أو يعطيها غيره مجانا ، وعلينا أن ننظر إلى هذه الروايات نظرة الناقد المستبصر .

لا يخفى على أحد أن الرسول ما كان مفتيا أو مرشدا وحسب ، بل كان فى نفس الوقت رئيسا لجماعة المسلمين مدبرا لأمورهم . ولم تكن مسألة مؤقتة عارضة ، تتعلق بالحياة الشخصية الذاتية لنفر يسير ، حتى يقوموا بحل مشكلتهم بأنفسهم ، ولكنها مسألة جماعية تؤثر فى حياة آلاف الأفراد ، فلابد أن يكون الرسول وخلفاؤه الراشدون قد وضعوا خطة عملية واضحة .

ويقول العالم الهندى أبو الأعلى المودودى (١) :

إن من له أدنى إلمام بسيرة الرسول وخلفائه وصحابته لا يخطر بباله أن الرسول كان من الذين يذمون شيئا ثم يذرونه نافذا رائجا ، أو أن الرسول كان يريد شيئا فيخالف الصحابة أمره ، أو كان الخلفاء الراشدون على علم بأن الرسول كان يريد أمرا وامتنعوا عن تنفيذه . أفلا يأخذنا العجب إذا سمعنا أنه ما كان أحد ، عدا هؤلاء الأصحاب الستة ، منذ عهد الرسول إلى وسط عهد معاوية ، أى لخمسين سنة متوالية تقريبا ، أن الرسول قد نهى عن مزارعة الأرض وكرائها ، وأنه ما زال الرسول نفسه ، وأجلاء الصحابة ، وأقرب البيوتات إلى الرسول يكرون أراضيهم ويزارعون عليها الناس ، وأنه ما زال هذا الطريق هو الرائج المطرد المعمول به عهد الخلافة الراشدة كله ؟

ثبت فى التاريخ الاسلامى أن المسلمين فتحوا شطرا من المدينة اليهودية ( خيبر ) عنوة ، وفتحوا شطرها الآخر صلحا . فجعل الرسول خيبر كلها على ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان للرسول ومن شهد خيبر من المسلمين

---

(١) المودودى : مسألة ملكية الأرض فى الإسلام ص ٥٤ .

النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، وكانوا ألفا وخمسمائة ، منهم ثلاثمائة فارس ولكل فارس سهمان ، وعزل النصف الآخر لأمور المسلمين . ثم أراد الرسول أن يخرج اليهود من أرض خيبر ، فقال اليهود للرسول : نحن أعلم بالأرض منكم ، دعونا نعمل فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها . فأقرهم الرسول وقال : « نقركم فيها على ذلك ما شئنا » . فظلوا يفلحونها ويزارعون عليها ، فكانت الأرض نصفها للحكومة ونصفها لأولئك المجاهدين الذين شهدوا خيبر مع الرسول ، فكان كل ما يأتى من حاصلها يقسم قسمين : قسم للحكومة وقسم لأصحابها هؤلاء . وكان سهم الرسول مع سهم غيره من المسلمين ، وكان الرسول يعطى أزواجه مقدارا معلوما من التمر والثمر والزرع كل سنة . وعلى ذلك بقى الأمر جاريا فى آخر أيام الرسول ، وفى عهد أبى بكر وأول عهد عمر .

هذه الرواية تثبت أن الرسول كان قد زارع اليهود على أرض خيبر ، وظل الأمر كذلك إلى أخريات أيامهم ، وفى عهد أبى بكر وأول عهد عمر ابن الخطاب .

عن محمد الباقر أنه قال : « ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع » . وزاد البخارى بعد نقل هذا الأثر أنه زارع على وسعد ابن مالك وعبد الله بن مسعود وعمر بن عبد العزيز والقاسم وعروة وآل أبى بكر وآل عمر وآل على وابن سيرين » . وقال عبد الرحمن بن الأسود كنت أشارك عبد الرحمن بن يزيد فى الزرع ، وعامل عمر الناس إلى أن جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر وإن جاءوا بالبذر فلهم كذا [١] . وقال أبو جعفر : « كان أبو بكر يعطى الأرض على الشطر » وقد روى ابن أبى شيبة عن على بن أبى طالب قوله : « لا بأس بالمزارعة بالنصف » . كما أقطع عثمان بن عفان لعبد الله بن مسعود فى النهرين . ولعمار بن ياسر ، وأقطع

---

(١) البخارى : باب المزارعة بالشطر جـ ٥ ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

جنابا صنعاء ، وأقطع سعد بن مالك قرية هرمزان ، فكان ابن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع (١) .

الأرض بقواها الطبيعية للزراعة لا توجد عادة صالحة للاستغلال دون جهد فى إصلاحها وفى إيصال الماء إليها أو حفر البئر بها وفى بناء بعض المرافق لكى تؤدى عملها . وعلى هذا الأساس ، فإن الأرض إذا لم يبذل فيها أى مجهود ممن وضع يده عليها أو كان استغلالها لا ينال من جهده الذى بذله فيها شيئا ، فى هذه الحالة يعتبر التأجير محرما ، وكل ما يناله الفرد من أخيه إنما هو استغلال له ، وحرمان للمجتمع من أن يحصل الحق الذى يعود إلى طبيعة الأرض التى خلقها الله للأنام .

أما إذا كان فى الأرض شىء من آثار الجهد الذى بذله صاحب الأرض ، وأن الزراعة فى الأرض تنال من جهوده وتنقصها ، فلاشك أن إضاعة حق صاحب الأرض فى مجهوداته أمر غير عادل ، فما ذنبه أنه بذل جهوده فى الأرض ، ولم يبذلها فى مجال آخر ؟ وما زلنا نحرص على أداء الديون ، ولا نحفظ جهد صاحب الأرض فى الأرض ؟!

ولذلك فإنه فى مثل هذه الحالة تؤجر أرض بالذهب والفضة ، ومقدار الايجار هنا ليس اقتطاعا من ريع الأرض وقواها الطبيعية ، ولكنه ثمن استهلاكات ما فى الأرض من رأس المال ، وحفظ لحقوق صاحب الأرض فى جهوده التى بذلها (٢) .

## الأراضى العامة فى الدولة الاسلامية :

كان هناك فى الدولة الاسلامية نوعين من أرض تعتبر ملكا مشاعا

---

(١) أبو يوسف : الخراج ( باب القطائع ) .

(٢) أبو سلیمان : نظرية الإسلام الإقتصادية ص ٥١ .

للجميع ، وهى أرض الحمى ، وأرض الارفاق . أما أرض الحمى ، فهى الأرض الموات التى يمنع أحياؤها حتى تبقى أملاكا عامة فتكون منبتا للكلأ ومرعى للماشية (١) . ويجرى على أرض الحمى أحكاما ثلاثة . أولها أن تكون للكافة ويساوى بين جميعهم ، الغنى والفقير ، والمسلم والذمى ، ويسمح لهم جميعا برعى خيلهم وماشيتهم . وثانيها أن هذه الأرض لو خص بها المسلمون اشترك فيها الأغنياء والفقراء ومنع فيها أهل الذمة . وثالثها أنه إذا خص بها الفقراء والمساكين منع عنها الأغنياء وأهل الذمة ، وفى جميع هذه الحالات لا يجوز لأحد من الولاة أن يأخذ من أصحاب الماشية شيئا مقابل رعيهم فى أرض الحمى (٢) وكان عثمان بن عفان « أول من حمى الحمى » (٣) . أما عمر بن عبد العزيز فقد كتب إلى ولاته : نرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة ... وإنما الامام فيها كرجل من المسلمين ، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء » (٤) .

أما النوع الثانى من الأراضى التى كانت ملكيتها فى الدولة العربية الاسلامية ملكية عامة جماعية ، فهى أرض « الارفاق » ، وهى أنواع ثلاث . أولها الصحارى والفلوات ، ويمكن للجميع النزول بها للاستيطان أو للراحة أثناء السفر بشرط عدم الاضرار بالآخرين ، ويكون النزول فيها حسب الأسبقية إليها ، والنوع الثانى أفنية الدور والممتلكات العامة ، فيسمح بالنزول فيها أيضا مع عدم الاخلال بمصالح الآخرين . والنوع الثالث أفنية الشوارع والطرق ويسمح باستعمالها حسب الأسبقية مع احترام الآداب والنظم العامة (٥)

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٦ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٧ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٧ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٨ .

وكان لكل قرية فى الأمصار الاسلامية مرعى ومحتطب ، ويسمح لأهلها باستعمالها بشرط ألا يضر البعض بمصالح البعض الآخر [١] ، وكان فى بعض المدن قطع أرض فضاء تسمى « الآرى » يسمح لجميع المسلمين أن يتركوا خيولهم فيها [٢] . أما المروج والجبال فهى ملك للجميع فيسمح لهم بالاستيلاء على ما فيها من ثمار وزرع [٣] .

## أنواع الأراضى فى الدولة الاسلامية :

كانت الأراضى التى تدخل فى حوزة حكومة الدولة العربية الاسلامية تنقسم بموجب الشريعة الاسلامية إلى خمسة أقسام :

( أولا ) أرض يسلم عليها أهلها . قال الرسول « إن القوم إذا أسلموا أحرزوا دماءهم وأموالهم » [٤] كما قال : « من أسلم على شىء فهو له » [٥] . وكان هذا المبدأ ينطبق على الأموال والأراضى . وقال أبو يوسف عنها [٦] : « فان دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضوهم لهم ، وهى أرض عشر ... » وقال أبو عبيد [٧] « كل أرض أسلم عليها أهلها فهم مالكون لرقابها » .

( ثانيا ) أرض يبقى أهلها على دينهم ويخضعون للحكومة الاسلامية بمعاهدة بينها وبينهم : أمر الرسول بأن يقوموا لهؤلاء حق القيام بكل ما صولحوا عليه من الشروط [٨] وقال أبو يوسف [٩] : « وأيما قوم من

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٥٩ .
(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣١٠ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٥٩ .
(٤) أبو داود : باب اقطاع الأرضين جـ ٤ ص ٢٦٢ .
(٥) أبو عبيد : الأموال ص ٢٨٢ .
(٦) الخراج : ص ٧٤ .
(٧) الأموال : ص ١٤١ .
(٨) أبو عبيد : الأموال ص ١٤٣ .
(٩) الخراج ص ٧٥ .

أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم وأن يؤدوا الخراج ، ويؤخذ منهم ما صولحوا عليه ، ويوفى لهم ولا يزاد عليهم » .

( ثالثا ) أرض ينقاد أهلها عنوة : وهؤلاء قد حاربوا المسلمين وقاوموهم حتى غلبوا على أمرهم ولم يذعنوا إلا مكرهين : قال أبو يوسف [1] : « أيما أرض افتتحها الامام عنوة ، فقسمها بين الذين افتتحوها ، فان رأى أن ذلك أفضل ، فهو فى سعة من ذلك وهى أرض عشر ، وإن لم ير قسمتها ورأى الصلاح فى إقرارها فى أيدى أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك ، وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم ، وهى ملك لهم يتوارثونهم ، ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ، ولا يكلفوا من ذلك ما لا يطيقون » .

( رابعا ) أرض لا تكون ملكا لأحد : وتشمل الأرض الموات التى مات أهلها عنها ، أو التى لم يكن لها ملاك . كما تشمل أراضى الصوافى وهى ما اصتفته الدولة من أراضى البلاد المفتوحة ، وتشمل عدة أنواع ، منها الأرض التى تخلى عنها أهلها ، أو أرض اصتفتها الحكومة بعد إخراج أهلها منها ، أو أرض مات أهلها أو هربوا ويصف ابن آدم الصوافى بأنها : « كل أرض ليست فى يد أحد » [2] . وكان المسلمون يتتبعون فى هذه الصوافى واحدة من ثلاث خصال : فللإمام أن يعمر هذه الأرض ويؤدى إلى بيت مال المسلمين عنها شيئا وتكون الفضلة له ، أو ينفق الامام عليها من بيت مال المسلمين ويستأجر من يقوم بفلاحتها ويكون فضلها للمسلمين ، أو يقطعها رجلا مسلما قادرا [3] .

( خامسا ) أراضى الاقطاع : كان الاقطاع نوعين . إقطاع تمليك وإقطاع استغلال . أما إقطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثة أقسام ،

---

(١) الخراج ص ٧٥ .
(٢) الخراج : جـ ١ ص ٨ .
(٣) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٨ .

أولها الأرض الموات ، فيقوم من حصل عليها باحيائها ، وثانيها الأرض العامرة ، وثالثها الأرض التى يوجد بها بعض المعادن . أما قطاع الاستغلال فيستغل صاحب الاقطاع أرض مقابل دفع العشر أو الخراج ولا يجوز أن ترث ذريته حق الاستغلال [١] ويجوز أن يمنح بعض العمال وجباة الخراج إقطاعيات بدلا من منحهم المرتبات الثابتة [٢] .

### نظم الزراعة والرى فى الدولة الاسلامية :

اهتم المسلمون بالزراعة والعناية بالأرض وتنمية الثروة الزراعية . ورغم أن طبيعة أرض الجزيرة العربية الجدباء كانت لا تسمح بالزراعة على نطاق واسع وتحتم اختيار الرعى حرفة أولى ، إلا أن مسلمى الجزيرة العربية قد اهتموا بالزراعة ، وللرسول عدة أحاديث شريفة تحث على الاهتمام بالزراعة ، منها قول الرسول ﷺ : « من زرع أو غرس غرسا فله أجر ما أصابت منه العوافى » . ومنها أيضا : « من أحيا أرضا ميتة فله أجر فيها ، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة » .

حتى إذا فتح العرب المسلمون كثيرا من الأراضى الخصبة التى كانت خاضعة للفرس والرومان ، والتى تمتاز عن أراضى جزيرتهم بالخصوبة ووفرة المياه ، أقبلوا على الزراعة بنهم وشغف واتخذوا الضياع وعمروا الأرض حتى أجهدوها وأنهكوها [٣] . وسرعان ما نسى العرب بداوتهم وأصبحت الزراعة حرفتهم الأساسية .

اهتمت الحكومة الاسلامية بنمو الثروة الزراعية اهتماما كبيرا ، وتجلى اهتمامها فى مظهرين : أولهما الاهتمام بالأرض ، وثانيهما التخفيف من أعباء

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٧ .

(٣) ابن قتيبه : عيون الأخبار جـ ١ ص ٢٥٣ .

الفلاحين . أما المظهر الأول ، فقد تجلى اهتمام الفاتحين بإعادة الأرض إلى أصحابها والقضاء على سيطرة الدهاقين الأرستقراطيين ، فأعادوا لهذه الطبقة المستضعفة من الفلاحين شعورها بذاتها وملكيتها ، وخلصوها من الاضطهاد والاحتكار (١) . واهتمت الحكومة الاسلامية بإحياء الأرض الموات وزيادة مساحة الأراضى المزروعة ، فكانت تسمح لكل من أحيا أرضا مواتا أن يمتلكها ويزرعها أو يؤجرها ويحفر الأنهار فيها (٢) . وإذا عطل أحد أرضه ثلاث سنوات فإن الحكومة كانت تسمح لأى فرد بأن يعيد إليها الحياة ثم تصبح ملكا له (٣) .

كذلك عملت الحكومة الاسلامية على تخفيف أعباء الفلاحين فأقبلوا على الزراعة بشغف مما أدى إلى نمو الثروة ، فأمر عمر بن الخطاب بأن يجعل الخراج على قدر ما يحتمل الفلاحون وألا يحمل أحدا فوق طاقته ، وأمره بأن يرفع الخراج عن الأرض التى لا تصلها ماء (٤) وكان إذا زرع فلاح أرضه الخراجية عدة مرات فى السنة لا يؤخذ منه إلا خراج واحد ، وإذا تعرضت المحصولات للآفات أو الغرق سقط الخراج عن صاحبها (٥) . وساوت الحكومة الاسلامية بين الأرض العاملة والأرض المعطلة فى الخراج حتى يرغموا صاحب الأرض المعطلة على إصلاحها وإحيائها (٦) كما أعفت الخضروات والأعلاف والبقول والنباتات التى تؤكل والقطن والكتان من الزكاة (٧) . ولاشك أن هذا الاعفاء شجع الناس على الاقبال على الزراعة

---

(١) الطبرى : جـ ٤ ص ١٨٣ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٣٧ .
(٣) ابن آدم : الخراج ص ٢٧ – ٢٨ .
(٤) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٢٩ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ .
(٦) أبو يوسف : الخراج ص ٢٧ – ٢٨ .
(٧) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٤ .

وتوفير الأقوات للناس والخامات الزراعية اللازمة للصناعة مما أدى إلى رخص الأسعار . وأعفت الحكومة الاسلامية ثمار الجبال والأودية من الخراج والعشر [١] . وفى هذا تشجيع للناس على الزراعة فى هذه الأماكن البعيدة غير المرغوب فيها مما يؤدى إلى زيادة الانتاج الزراعى ، كما أعفت البقر والابل من الصدقة ، والبقر عماد الفلاح فى أعمال الزراعة ، والابل هى الحيوانات التى تحمل غلاته ومحاصيله . ولم تساو الحكومة الاسلامية بين جميع الأراضى فى الخراج . بل كان الخراج يزيد وينقص تبعا لاختلاف جودة الأرض ، وقيمة المحصولات الزراعية ، واختلاف جودة أنواع كل محصول ، وتبعا لنظام الرى سواء كان من الأنهار أو الآبار أو الأمطار [٢] .

استخدم المسلمون لاستخراج المياه من الأنهار والآبار . الدلو ، والغرب ، والساقية ، وكان المسلمون زمن التحاريق يستخرجون المياه بالدواليب وهى تشبه السواقى [٣] . أما زمن الفيضان فكانوا ينصبون النواعير على الماء فتديرها الماء بنفسها . كما ينصبون العربات وهى طواحين يديرها الماء وتوضع فى سفينة تنتقل من مكان إلى آخر فى نهر دجلة [٤] .

* * *

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٤٠ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٢ .
(٣) أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٤٧ .
(٤) القزوينى : آثار البلاد ص ٣٠٩ .

## ٢ – التجارة العربية الاسلامية

### التجارة فى الاسلام :

لا تميز الشريعة الاسلامية بين المعاملات التجارية والمدنية ، ولا تفرق بين التاجر وغير التاجر فى الحكم ، ومعنى هذا أن الشريعة الإسلامية – وهى منزلة فى منتصف القرن السابع الميلادى – لا تعترف بإنفصال المعاملات التجارية عن المعاملات المدنية ، فأحكامها جامعة شاملة لجميع المعاملات دون تفرقة ، بخلاف القوانين الحديثة ، حيث نجد قانونا تجاريا خاصا مستقلا عن القانون المدنى .

وإذا قال أحد أن محمدا ﷺ كان تاجرا قبل أن يكون رسولا ، فنقول أن التجارة التى كان يزاولها ويقوم بها رسول الله تخالف نظم التجارة الحديثة ، إذ أنها كانت عبارة عن النقل والتوزيع ، أى نقل السلع والمحاصيل من مكة إلى الشام أو من بلد إلى آخر ، وتوزيعها بين المستهلكين توزيعا يراعى فيه العدالة والانصاف ، ويقصد به تدعيم الألفة والأخوة . وقد كانت تلك التجارة التى تشبعت بها مكة والطائف جميعا ، والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير ، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار . وكانت صادرات مكة السنوية ، على ما قدرها المستشرق ( سبرنجر ) توازى مائتين وخمسين ألفا من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهبا .

وفوق ذلك كله كان محمد ﷺ يقوم بالتجارة فترة قصيرة من الزمان لا لأجل الأرباح ، وإنما لأجل حياة التفكير والتأمل ، إذ ظل محمد ﷺ طول حياته أشد الناس زهدا فى المادة ورغبة منها ، والذين يتوقون إلى المال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغون لإرضاء شهواته ، ولم يعرف محمد طوال حياته شيئا منها .

روى ابن اسحق « ... وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات

شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه . وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة ، حتى قدم الشام ... فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا » (١) .

ضرب محمد ﷺ مثلا فى ميادين التجارة ، وحدد عمليا معنى التجارة وأشكالها وأساليبها . ومثل هذه التجارة وهى التى نريد أن نتبعها وأن نطبقها فى حياتنا الاقتصادية . وإذا طبقنا القاعدة المسلم بها فى أصول الفقه القائلة « لا ضرر ولا ضرار » فلا نتردد فى أن نقول إن التجارة فى بعض نظمها فى بعض دول العالم حرام ، وكل ما هو مضر ليس شرعيا لا فى الدين ولا فيما ينبغى أن يسن المشرع القوانين واللوائح .

إن التجارة ليست استغلالا وانتهابا لأعمال العاملين ، واستغلالا لحاجة المتبادلين والمشترين ، والاضرار بكل من المنتج والمستهلك باتباع أساليب الخداع والترويج ، ولكن التجارة خدمة يجب أن تكون فيها الأمانة والصدق ، ورعاية التقدير العادل لكل سلعة ، وكل منفعة (٢) .

اهتم الاسلام بشروط التجارة وخاصة الصورة العامة لعقود البيع ، أما التفاصيل فقد تركت للفقهاء ينظمونها حسب آرائهم . وأول شروط العقود هى اتفاق البائع والمشترى ، وقد يكون اتفاقا مدونا أو شفهيا ، والشرط الثانى أن يكون موضوع العقد تجارة نافعة حلالا . وعرف المسلمون

---

(١) سيرة ابن هشام ، الروض الأنف جـ ١ ص ١٢١ .

(٢) انظر كتاب ( الإنسانية ) للعالم الأندونيسى الدكتور قهر الدين يونس ص ١٠٩ .

فى فجر الإسلام عقود الرهون والودائع ، فكثيرا ما كان التجار يرهنون بعض أنواع تجارتهم ليحصلون على نفقات سفرهم إلى مدن أخرى للتجارة ، كما عرفوا نظام المقايضة وقد سمح بعض الفقهاء بالمشاركة بين المسلم والذمى على أن يكون المسلم حاضرا جميع عمليات البيع والشراء ولكنهم حرموا استدانة المسلم من الذمى [١] .

اتبعت الحكومة الاسلامية سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة الإسلامية ، ولم تحتكر تجارة أية بضاعة أو تمنع مبادلتها ، ولا ريب أن هذه السياسة أتاحت لبعض الأفراد فرصة احتكار بعض السلع ، غير أن احتكاراتهم كانت فى الغالب محلية مؤقتة فردية لا تدعمها امتيازات حكومية ، لذلك لم يكن لها تأثير مستمر على الأسعار أو شامل لكافة أنحاء الامبراطورية الاسلامية . وكان المسلمون عامة ينفرون من هذه الاحتكارات الفردية ، فهناك كثير من أحاديث الرسول تذم الاحتكار .

## بين الربا والتجارة :

الربا فى اللغة هو الزيادة ، والمراد به فى الآية كل زيادة لم يقابلها عوض جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [٢] وهاتان جملتان تعطيان حكمين متقابلين لعقدين متناقضين ، أولهما عقد المعارضة العادل الذى يقوم على تبادل المنافع بين الناس أى البيع وله ضماناته التى تحقق مصالح البائع والشارى وثانيهما عقد المراباة الذى ينص على زيادة لا مقابل لها عن طريق النص والشرط الظاهر .

---

(١) انظر فصل التجارة فى كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٦٤ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٧٥ .

هناك فرق كبير بين البيع والربا ، فالبيع هو أن يقدم البائع سلعة إلى المشترى ، فهناك تستقر بينهما قيمة لهذه السلعة ويتسلمها المشترى من البائع نظير هذه القيمة ، فهذه الصورة من التعامل لا تخلو من أحد الأمرين إما أن يكون البائع قد هيأ هذه السلعة للمشترى بجهده وبإنفاقه عليها من ماله أو اشتراها من غيره . فهو فى كلتا الصورتين يضيف أجرة جهده إلى رأس ماله الذى أنفقه على السلعة فى اشترائها أو تهيئتها ، فهذا هو ربحه .

أما الربا ، فهو أن يعطى الرجل رأس ماله رجلا آخر على أن يرده إليه بزيادة معينة ففى هذه الصورة من المعاملة تصبح الزيادة نظير التأجيل الذى قد تم الاتفاق عليه بين الرجلين كشرط فى المعاملة ، وهو ما يسمى « الربا » وكأن الربا مزيج من ثلاثة أجزاء : (١) الزيادة على رأس المال (٢) تحديد الزيادة باعتبار المدة (٣) كونها شرطا فى المعاملة ، فكل معاملة للدين توجد فيها هذه الأجزاء الثلاثة هى معاملة ربوية من غير شك [١] .

وهناك فروق خلقية واقتصادية تفرق بين التجارة والربا . ففى التجارة يستفيد كل من المشترى والبائع ، فيستفيد المشترى من السلعة التى اشتراها ، أما البائع فينال أجره على كفاءته وجهوده . أما فى المعاملة الربوية ، فيأخذ الدائن من المدين مقدارا معلوما من المال ينفعه وقد لا ينفعه . والبائع مهما أسرف فى ربحه فإنما يناله مرة واحدة ، لكن ربح الدائن فى المعاملة الربوية له سلسلة لا تنقطع بل تستفحل مع الأيام . والانسان فى التجارة والزراعة والصناعة يبذل كفاءته ووقته ثم ينال أجرهما ، ولكن فى المعاملة الربوية يصبح المساهم الأكبر فى كسب غيره بمجرد دفعه إليه مقدارا من المال زائدا عن حاجاته بدون أن يبذل معه شيئا من جهده ووقته ، فلا يكون بمنزلة المساهم الذى يشارك غيره فى الربح والخسارة معا ، بل هو شريك يدعى لنفسه ربحا بدون مبالاة لربح مدينه أو خسارته .

---

(١) المودودى : الربا ص ١١٢ .

## فائدة رأس المال :

يحرم الاسلام على رأس المال أن يكون وسيلة ذاتية لنيل كسب حرام من الفرد أو من المجتمع . ولذلك حرم الاسلام الربا فى الديون ، فلا زيادة لصاحب المال على إقراضه لماله . أما إباحة المشاركة برأس المال على الربح والخسارة ، فلا يمكن أن يفهم منها أنها تحليل الربح لرأس المال .

إن الربح الذى يناله المشارك برأس المال لا يقصد منه إلا أن يعود حق رأس المال إليه دون ظلم ، وأن يشجع على معاونة إخوانه ، فالفرد حين يعمل فى رأس ماله ، ويعمل معه سواه ، فإنه يقوم بالرقابة على رأس ماله والمحافظة عليه ، واستقطاعه من مجمل الكسب قبل أن يحصل هو أو العاملون معه على مكاسب أعمالهم .

فإذا كان الموقف من صاحب الدين ، أو العامل فى ماله هو أن حقوق كل منهما محفوظة ، فإن من يشارك برأس ماله ، ولا مقدرة له على المراقبة ، ولا ضمان له فى رجوع رأس ماله كاملا ، مثل دين الدائن إذا لم نوفر له وسيلة يقتطع بها جزءا من أرباح العامل فى ماله ، لمواجهة ما يحتمل من خسارة للمال . إذا لم نفعل ذلك ، فإننا نغلق طريقا من طرق الكسب الحلال أمام بعض العاملين الذين يحتاجون إلى رأس المال ليعملوا فيه ، ولا يستطيعون التداين ، لأنهم لا يملكون ما يكون ضمانا لرد ديونهم ، ولا نشجع صاحب المال على إعطائه للقادر على العمل به ، لأنه لا ضمان لديه يعتمده لإقراض المال لمن يحتاجه .

إن إعطاء صاحب المال – فى مثل هذه الحالة – جزءا من الأرباح إنما يقصد به الادخار لضمان الوفاء برأس المال فقط ، فلا يكون نصيب صاحبه هو الخسران المؤكد . ولهذا لم يحدد نصيب المشارك برأس المال ، لأن الحال هنا يختلف من عمل إلى آخر . وما على المسلم إلا أن يتوخى فيما يناله من الربح احتمالات الخسارة فى العمل أو التجارة التى شارك فيها بماله [١] .

---

(١) نظرية الإسلام الإقتصادية ص ٥٣ .

## المصارف والاسلام :

إن المصارف ، كوسيلة من وسائل المدخرات وتوظيفها وإقراضها وتوجيهها ، وتعتبر وسيلة هامة من وسائل الحياة الحديثة بضخامة مجتمعها وبإنتاجها الكبير . ويضاعف من أهمية المصارف فى الحياة الحديثة ما لها من مقدرة على الائتمان ، وتجميع النقود كل ذلك يجعل المصارف وسيلة ضرورية للحياة الحديثة .

والمصارف - بهذا المفهوم - لا تهتم بالحصول على أرباح مقتطعة من عمل العاملين باسم تأجير رأس المال ، بل إنها تعتبر نفسها وسيلة لتجميع المدخرات ، وخلق الائتمان ، وتوزيع القروض ، وتوجيه رأس المال فى المجتمع بما يحقق ازدهاره .

تقوم المصارف بكثير من الخدمات المشروعة التى هى نافعة للحياة المدنية والحاجات الاقتصادية ، فيجتمع فى خزاناتها ما يفضل عند أفراد المجتمع من المال ، فيستثمر فى الصالح العام ، ثم يوزع الربح على أحسن صورة ممكنة .

يدعو العالم الهندى المعاصر المودودى [١] إلى إلغاء الربا ، ويقترح أن تقوم المصارف باستخدام الأموال المودعة بها على شكل ( حساب جارى ) فى ناحيتين : أولا فى التعامل النقدى العادى بينها وبين المودعين ، وثانيا فى تقديم القروض القصيرة الأجل إلى التجار بدون الربا . أما الأموال التى تودع لدى المصارف لمدة طويلة فعلى المصارف أن توظفها - بإذن من المودعين - على طريق المضاربة فى الأعمال التجارية والمشروعات الصناعية والزراعية ، الحكومية أو الأهلية مما يحقق فائدتين عظيمتين : أولاهما أن

---

(١) الربا ، ص ١٩٢ .

مصلحة الرأسمالى ستتحد مع مصلحة التجارة ، وثانيهما التوفيق بين مصالح الرأسمالى والتجار والصناع ، مما يعود بالنفع على الجميع . ثم أن الأرباح التى تحصل عليها المصارف من هذه الرسائل ستوزعها بين مساهميها والمودعين فيها أموالهم بنسبة متفق عليها بينهم بعد أن تنقص مصاريفها الادارية (١) .

ولنرى كيف كانت حال المصارف فى الدولة الاسلامية ؟ كانت المصارف تسمى وقتئذ « حوانيت الصيارفة » وكان مركزها فى المساجد فى جميع المدن (٢) . وكان لنشاط الحياة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية أثره فى تدفق الأرباح التجارية على التجار . وأراد بعضهم أن يتمتع بهذه الفرص التجارية العظيمة ولكن عاقهم قلة ما فى أيديهم من أموال عن تحقيق غرضهم ، فلم يكن هناك وسيلة أخرى سوى الاقتراض . غير أن تحريم الاسلام للربا أعاق عمليات الاقتراض وأثر فى قيام المصارف ونمو أعمالها رغم أنه لم يمنعها ، ولذا اضطر الأتقياء إلى مزج أعمال المصارف بالتجارة ، فيبيعون المدينين بضائع بسعر أعلى من سعر السوق ، على أن يكون الدفع مؤجلا ، والفرق بين سعر السوق وسعر البيع هو فى الحقيقة الفائدة على ثمن البضاعة عن المدة التى تؤجل فيها الدفع عن ثمن الشراء (٣) .

وقد يكتفى المقرض بثقته فى طالب القرض أو قد يطلب منه رهنا ، وقد يكون الرهن دارا أو بناء أو عقارا أو حيوانا ، وله الحق فى استخدام هذا الرهن لمصالحه الخاصة . وهذه المنفعة التى يجنيها من الرهن يمكن اعتبارها فائدة على القرض المدفوع ، على أنه يجب المحافظة على الرهون . أما فى القروض الكبيرة فلابد من توافر الثقة أو بضمان شخصية معروفة . وإذا عجز المدين عن سداد دينه فى الموعد المحدد منح فرصة أخرى كما أمر القرآن

---

(١) تعاونت الدولة الإسلامية أخيرا على إنشاء ( البنك الإسلامى ) .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٤ .

(٣) انظر كتاب التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية للدكتور صالح العلى .

الكريم ، حتى إذا عجز مرة أخرى طولب الكفيل بسد الدين ، أو قد يلجأ الدائن إلى الحكومة لتجبى دينه بالقوة ، فكانت تصادر أملاك المدين أو تسجنه . ولاشك أن تحريم الربا كان ذا أثر فى عرقلة أعمال المصارف والائتمان ، كما أنه شجع أصحاب رؤوس الأموال المسلمين على توظيف أموالهم فى التجارة (١) .

**التسعيرة :**

عن أنس بن مالك قال : « غلا السعر فى المدينة على عهد رسول الله ﷺ فقال الناس : يا رسول الله ، غلا السعر ، فسعر لنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله هو المسعر ، القابض الباسط الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى ، وليس أحد منكم يطلبنى بمظلمة فى دم ولا مال » .

ومع هذا فلم يمنع ذلك الرسول أن يحظر أنواعا من المعاملات كان الناس يقولون عنها كما سبق أن قال رافع بن خديج : نهى رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعا ، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا وأنفع » .

يذكر ابن خلدون (٢) عوامل ثلاثة تؤدى إلى الغلاء وارتفاع الأسعار ، هى : « الأول كثرة الحاجة لمكان الترف فى العصر بكثرة عمرانه ، والثانى اعتزاز أهل الأعمال لخدمتهم وإمهان أنفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة أقواتها . والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع فى مهنهم فيبذلون فى ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة فى الاستئثار بها فيعتز العمال والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر فى ذلك » .

---

(١) انظر كتاب تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى للمؤلف ص ٣٦٤ ، تجد كثيرا من التفاصيل والإشارات إلى المراجع .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ .

فى الدولة الاسلامية ، كانت هناك بعض النظم الحكومية تؤثر تأثيرا غير مباشر على الأسعار ، فقد كانت الحكومة مثلا تجبى ضرائبها من الزراع نقدا وعينا ، وبذلك تخفف من أعباء الفلاحين فلا يبيعون محصولاتهم بثمن بخس ليحصلوا على المال اللازم لتسديد الضرائب . ولما كانت ضرائب الدولة ثابتة فقد كان هذا يؤدى إلى ثبات الأسعار بعض الشىء . ثم أن الحكومة كانت تدفع إلى الجنود وأسرهم مقدارا ثابتا من العطاء كان من شأنه أن يحدد القوة الشرائية لهؤلاء المقاتلة العرب المستهلكين . كما أن ما تمنحه الحكومة لهؤلاء المقاتلة من الحنطة والشعير والزيت وغير ذلك كرزق شهرى لهم ضيق مجال التلاعب فى أسعار هذه المواد الضرورية للمعيشة . واهتم حكام الدولة الاسلامية بالمحافظة على مستوى أسعار التجارة ، وعدم استغلال التجار لحاجة الناس إلى تجارتهم ، فكان بعضهم يعاقب التجار الجشعين بالقتل والجلد والتعذيب [١] .

ورغم ما نعرفه عن عدل عمر بن عبد العزيز وحزمه وعزمه ، إلا أن الأسعار ارتفعت فى عهده ارتفاعا كبيرا ، وقد سأل أحدهم عمر عن سر هذا الغلاء فقال : إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بدا من أن يبيعوا ويكسد ما فى أيديهم ، وأنا لا أكلف أحدا إلا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء ، واقترح البعض على عمر تسعير الحاجيات فقال عمر : إنما السعر إلى الله [٢] .

وهكذا عرف عمر بن عبد العزيز نظرية العرض والطلب وهى من أبرز النظريات الاقتصادية ، فقد كان معظم الولاة الأمويين يلقون كثيرا من الأعباء على الأهالى مما أدى إلى سوء أحوالهم فأقبلوا على بيع إنتاجهم الزراعى

---

(١) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٦٦ تجد تفاصيلا وإشارات إلى المصادر .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٦ .

والصناعى مما أدى إلى النشاط التجارى من جهة وانخفاض الأسعار من جهة أخرى ، فقد زاد العرض على الطلب . ولكن عدل عمر خفف الأعباء عن أهل الذمة والمسلمين على السواء فشعروا بالرخاء الاقتصادى ، فأقبلوا على التمتع بمحصولاتهم ومصنوعاتهم دون بيعها ، كما أقبلوا على شراء ما يحتاجونه من أنواع التجارة . فزاد الطلب على العرض .

## الأسواق فى الاسلام :

يعرف ابن خلدون (١) الأسواق بقوله : « إعلم أن الأسواق كلها تشمل على حاجات الناس ، فمنها الضرورى وهى الأقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه . ومنها الحاجى والكمالى مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى » . والحقيقة أن كلمة « سوق » تعنى فى المدن مجموعة من الحوانيت والمصانع التى تتركز فيها الحياة الصناعية والتجارية . كما تعنى الأسواق البسيطة التى تنتشر فى القرى (٢) ولم يكن من الضرورى أن تتجمع الأسواق معا فى جزء واحد من المدينة الاسلامية . فكل صنف له سوقه الخاص المنفصل عن الأسواق الأخرى . وقد حوت الأسواق كثيرا من المخازن لحفظ أنواع التجارة بها ، وحظائر لإيواء الدواب ، وخانات ( فنادق ) يأوى إليها الغرباء ، ويشرف على هذا كله المحتسب .

لعبت الأسواق دورا كبيرا ، فى حياة الدولة الاسلامية ، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية . فكانت السوق مركز البيع والشراء وبها تعقد الصفقات . وتقرر حالة البلاد الاقتصادية ، إذ أن السوق أبرز

---

(١) المقدمة ص ٢٥٥ .

(٢) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٢٤٩ .

ميادين تصريف الانتاج الزراعى والصناعى . كما أثرت السوق فى الحالة الاجتماعية ، ففيها يلتقى المسلمون وغيرهم بعضهم ببعض ، فيتعارفوا ويتحادثوا وفيها اختلطت عناصر السكان المختلفة من عرب وأعاجم . ومسلمين وأهل ذمة . وكانت السوق مركزا من مراكز الحياة السياسية ، ففيها تلاقى الناس تحت ستار التجارة بعيدا عن عيون رقباء الولاة والحكام فدبروا المؤامرات وحاكوا خيوط الفتن .

عرف العرب كثيرا من الأسواق فى الجاهلية والاسلام ، وكلنا نعرف ما كان لسوق عكاظ من شهرة داوية ، فقد كان مكانا مختارا للتجارة والأدب . ولذا حرص العرب بعد انتهاء الفتوحات العربية الاسلامية على إنشاء الأسواق فى الأمصار المفتوحة فزاد العمران واتسعت المدن . وأصبحت الأسواق بجانب أغراضها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مكانا لمفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، كما كان الحال فى مربد البصرة وكناسة الكوفة وغيرها [١] .

وضعت الأسواق الاسلامية تحت مراقبة دقيقة ، فبعد أن تغرب الشمس ويخيم الظلام تنتهى الحركة من السوق . فيحمل التجار تجارتهم إلى مخازنها ، وتخلو السوق من أهلها ، اللهم إلا الحراس الذين يجوبونها لحراستها من اللصوص [٢] . واهتم ولاة المسلمين بالتفتيش على الأسواق ، وخاصة على الأسعار والمكاييل والموازين . وكان يجلس فى السوق رجل يدعى « الناقد » وكانت حرفته تمييز الدراهم وفحصها حتى يعرف جيدها من رديئها ويضمن تمام وزنها [٣] . وكان على المحتسب مراقبة عمليات البيع حتى يمنع غش المبيعات وتدليس الأثمان والبخس والتطفيف [٤] . ويقوم

---

(١) انظر كتابنا : ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٧٢ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤١ .

(٣) الكرملى : النقود العربية ص ١٢ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

المحتسب باختيار الدلالين ويتوخى فيهم الأمانة والنزاهة . وكان ولاة الحسبة يراقبون جودة المصوغات ، ويراقبون الصاغة والحاكة والصباغين حتى لا يهربوا بأموال الناس أو حاجاتهم .

كان الرسول ﷺ يهتم بمراقبة الأسواق بنفسه ، أو يكلف بعض صحابته بهذه المهمة ، ويضع للحياة الاقتصادية والمالية من التشريعات ما يلائم نموها فى ظل العدالة ، والأمانة ، والصدق ، وحفظ حقوق العمل ومنع الربا . عن أبى سعيد الخدرى أن الرسول نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلبه ، أو ينظر إليه ، ونهى عن الملامسة ، والملامسة : لمس الرجل الثوب لا ينظر إليه . وعن أبى هريرة أن الرسول مر برجل يبيع طعاما فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى إليه [١] . أن أدخل يدك فيه ، فأدخل يده فيه ، فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس منا من غش » . وفى رواية مسلم فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس من غش فليس منى .

ومن وسائل رسول الله ﷺ فى حفظ حقوق العاملين وزجره عن استغلال جهلهم بحال الأسواق والأسعار ، أنه منع تلقى الركبان ، وبيع الحاضر للبادى ، وبيع الرجل على بيع أخيه . عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا يبيع بعضكم عن بيع بعض ، ولا تلقوا السلع ، حتى يهبط بها الأسواق » . وعن طاووس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تلقوا الركبان ، ولا يبع حاضر لباد » . قلت لابن عباس : ما قوله : « ولا يبيع حاضر لباد ؟ » قال : لا يكون له سمسارا .

---

(١) أى أشار إليه بعض الصحابة فى خفاء .

## الموازين والمكاييل والمقاييس :

عرف العرب الموازين منذ أيام الجاهلية ، وكان وزن الدراهم والدنانير فى الجاهلية مثل وزنها فى الإسلام مرتين ، وكانوا يتبايعون بأوزان هى الرطل ( ١٢ أوقية ) والأوقية ( ٤٠ درهما ) ، والنص ( نصف أوقية ) ، والنش ( ٢٠ درهما ) والنواة ( ٥ دراهم ) ، والدرهم الطبرى ( ٨ دوانيق ) ، والدرهم البغلى ( ٨ حبات ) . وأقر الرسول موازين مكة ، وكانت هذه الموازين التى أقرها الرسول هى التى تعامل بها العرب المسلمون فى عهد الدولة العربية الاسلامية . وبجانب هذه الموازين العربية ، وجدت بعض الموازين المحلية ، وخاصة الموازين الفارسية ، فكان البيع والشراء عند الفرس بالدراهم ، وكان وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكانوا يزنون الأمتعة بميزان يسمى ( المنا بشيراز ) وهو نوعان : أحدهما كبير وقدره ألف درهم ، والأخير صغير وزنه أربعون درهما [١] .

بعد الفتح العربى للعراق ، فرض عمر بن الخطاب على كل جريب من أرض السواد درهما وقفيزا ، وكان القفيز مكيالا يزن ثمانية أرطال ، وقيمته ثلاثة دراهم بوزن المثقال [٢] وكان الولاة المسلمون يقدرون ثمار الأرض بالوسق وهو ستون صاعا بصاع الرسول [٣] . ووزن الصاع خمسة أرطال وثلث الرطل ، وهو يساوى قفيز الحجاج والربع الهاشمى [٤] .

عرف المسلمون فى الدولة العربية الاسلامية عدة مكاييل . الغرق ( ١٦ رطلا ) ، المد ( واحد وثلث رطل بالحجاز ورطلين بالعراق ) ، المكوك ( ١٥ رطلا ) ، القسط ( اثنان وثلثين رطل ) ، المكوك ( ١٥ رطلا ) ،

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٢٦ - ٣٠ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤١ .

(٣) الشيبانى : الجامع الصغير للفقه ص ٢١ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٣٠ .

الكارة ( ٢٤٠ رطلا ) وأشهر المكاييل القفيز وهو الذى وضعه عثمان بن حنيف بأمر عمر بن الخطاب ، وكان مكيا لا لأهل العراق قبل الفتح ويسمونه ( الشابرقان ) ووزنه ٣٠ رطلا واعتبر القفيز أساسا للمكاييل فى العراق ولكنه اختلف تقديره بالأرطال باختلاف مدن العراق (١) .

أما المقاييس ، فقد كان الجريب هو وحدة المساحة الرسمية ، المعمول بها لقياس الأراضى الزراعية وتحديد الأملاك ، والتى كان على أساسها تقدر الوحدة الضرائبية (٢) . ذكر ( فوق كريمر ) إن الجريب هو مقياس مربع ، مفروض أنه يساوى ٣٦٠٠ ياردة مربعة . والياردة العربية هى نفس الذراع الرومى . فإذا اعتبرنا أنها تساوى تقريبا القدم الرومى – إذ هى أقل منه بنحو الثلث . كان الجريب يعادل على التقريب « قلمة » رومية ، أى ٣٦٠٠ قدم مربع وبالأمتار يكون الجريب يساوى ٣١٤,٨٦ مترا مربعا . وعلى حساب ( كويمر ) هذا يكون الفدان المصرى أكبر من الجريب ثلاثة عشر ضعفا وأكثر .

وإذا أردنا تقديرا صحيحا للجريب ، فإن ذلك يتوقف على معرفة « الذراع » المعين الذى كان يمسح به ، وعلى النسبة المضبوطة لهذا الذراع إلى « المتر » المستعمل فى المقاييس المصرية الآن . وعرف الماوردى فى كتابه ( الأحكام السلطانية ) الجريب بأنه عشر قصبات مربعة ، والقصبة ستة أذرع ، فيكون الجريب ٣٦٠٠ ذراع . ولكن الماوردى يجعل الأذرع سبعة أنواع ، تحدث عن طول كل ذراع ومن ابتدع هذه الأنواع ، ولكنه لم يعين لنا ما هى الذراع التى يمسح بها الجريب ، التى عناها بأن القصبة ستة أذرع منها . وقد حقق الأستاذ الدكتور ضياء الدين الريس (٣) . هذه

---

(١) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ١٥٩ ، المقدسى : أحسن التقاسيم .

(٢) ضياء الريس : الخراج فى الدولة الإسلامية ص ٢٦١ .

(٣) الخراج فى الدولة الإسلامية ص ٢٧٠ .

المشكلة واستطاع أن يجد تفسيرا لها فى بعض الكتب . مثل كتاب المصباح للمقرى ، فقد جاء فى هذا الكتاب نقلا عن كتاب المساحة للسموأل : « إعلم أن مجموع عرض كل ست شعيرات ، معتدلات ، يسمى إصبعا . والقصبة أربع أصابع ، والذراع ست قبضات .

وكل عشرة أذرع تسمى قصبة . وكل عشرة قصبات تسمى أشلا ، وقد سمى مضروب الأشل فى نفسه جريبا . ومضروب الأشل فى القصبة قفيزا . ومضروب الأشل فى الذراع عشيرا . فحصل من هذا أن الجريب عشرة آلاف ذراع . ونقل عن قدامة الكاتب أن الأشل ستون ذراعا وضرب الأشل فى نفسه يسمى جريبا . فيكون ذلك ثلاثة آلاف وستمائة ذراع » .

* * *

## ٣ – نظم العمل والأجور فى الاسلام

### قيمة العمل فى الإسلام :

يقول الله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ﴾ [١] . وقال سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ [٢] . وقال عز وجل : ﴿ ولتسئلن عما كنتم تعملون ﴾ [٣] وقال أيضا : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ [٤] .

لقى الرسول ﷺ عاملا من الأنصار ، فرأى فى يده خشونة ، فقال له : ما هذا الذى أرى فى يدك ؟ فأجاب العامل : أنه أثر المحساة أضرب وأنفق على عيالى . فقبل الرسول يده وقال : « هذه يد لا تمسها النار » .

للفرد أن يستفيد من عوامل الانتاج ، وليس له أن يسخر غيره أو يقتطع من إنتاجهم وكسبهم وتقرير حق الكسب للعمل وحده هو المبدأ الذى يحقق العدالة ، ويحرر الارادة ، ويمنع سوء توزيع عوامل الانتاج فى المجتمع .

أحاط الاسلام العمل بإطار مقدس ، ويعتبر حق طبيعى لكل قادر عليه ، والبطالة تعتبر مفسدة يجب على المجتمع الاسلامى أن يتخلص من شرورها . والاسلام يعطى الدولة الحق فى اختيار التشريعات العمالية بما تراه دائما متفقا ومطالب المجتمع المتجددة [٥] .

---

(١) سورة فصلت آية ٣٣ .
(٢) سورة يس آية ٣٥ .
(٣) سورة النحل آية ٩٣ .
(٤) سورة هود الآية ١٥ .
(٥) انظر فى هذا الفصل كتاب نظم العمل فى الإسلام لجمال عياد .

## حقوق العمال وواجباتهم :

كان من الثورة الاجتماعية التى أحدثها الاسلام فى التاريخ رفعه من شأن العمل ، واحترامه للعامل ، وضمانه لحياته حياة كريمة ولمستقبله ومن الشيخوخة والعجز والمرض وضمان أسرته بعد وفاته ، فقد كان العمل فى العالم كله قبل الاسلام يعتبر أمرا مهينا ، ويعتبر العمال طبقة دنيئة ليست لها أى حقوق [١] .

ينظم الاسلام العلاقة بين العامل وصاحب العمل ، فيجعلها تقوم على الأخوة الفاضلة . فالله سبحانه وتعالى قد قرر مبدأ الأخوة الفاضلة بين المؤمنين كافة ، إذ يقول تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ . وجعل الرسول الناس جميعا رعاة مسئولين فقال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . فالعامل راع فى مال صاحب العمل وهو مسئول عن هذا المال ، وصاحب العمل راع فى عماله وهو مسئول عن رعيته .

حفظ الاسلام للعامل كرامته وإنسانيته وشخصيته ، فالعمل ليس ذلا وهوانا ، بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة ، وهو ركن الحياة الاقتصادية ، لذلك كان من المحتم أن يقدر أصحاب الأموال شخصية العامل وكرامته وإرادته ويحافظوا عليها [٢] .

ينهى الاسلام عن تكليف العامل فوق طاقته ، فقال الرسول : « لا تكلفوهم ما لا يطيقون » . فإذا حددت الدولة ساعات العمل فى اليوم ، وجب التقيد بذلك ، فإذا أراد رب العمل تشغيل العامل أكثر من ذلك وجب إعطاؤه الأجر الاضافى على ذلك .

---

(١) دكتور مصطفى السباعى : اشتراكية الإسلام ص ١٠٠ .

(٢) انظر كتاب نظم العمل فى الإسلام ، وكتاب اشتراكية الإسلام تجد الكثير من التفاصيل عن حقوق العمال وواجباتهم .

ويجب أن يكون أجر العامل كافيا ، يوفر له المعيشة الكريمة وضروريات الحياة . وكان الرسول يعطى المتزوج حظين ويعطى العزب حظا واحدا [١] . ويقول عليه الصلاة والسلام : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة » [٢] .

ومن حق العامل تأمينه من إصابات العمل . وإذا أقعدت الاصابة العامل عن الكسب وفرت الدولة له وسائل الحياة وهذا الحق لم يقرر للمسلمين فحسب ، بل لأهل الذمة أيضا . كما توفر الدولة أيضا وسائل العلاج المجانى ، وغير ذلك من التأمينات الاجتماعية المختلفة .

وللعامل الحق فى الراحة ، فقد قال الرسول عليه السلام : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لعينيك عليك حقا » . وهذا يعطى العامل حقا فى الراحة وأداء العبادة والقيام بحق الزوجية والأبوة [٣] .

يدعو الاسلام إلى تقدير جهود العامل تقديرا عادلا ، فلا يجوز فى نظر الاسلام أن يستغل أصحاب الأعمال فرصة حاجة العامل إلى العمل ويجب تحديد الأجر بوضوح كما جاء فى الحديث : « من استأجر أجيرا فليعلمه أجره » .

وعلى الدولة أن تضمن للعامل أجره عند صاحب العمل ، فقد قال الرسول عليه السلام : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » [٤]

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٤٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) اشتراكية الإسلام ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٤) رواه ابن ماجة .

ولا عمل من غير أجر كما قال الله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ [(١)] ولابد أن يكون الأجر على قدر العمل كما قال الله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ [(٢)] ، وكما قال تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ [(٣)] .

إذا كان صاحب العمل مسئولا فالعامل مسئول أمام الله والمجتمع فيجب أن يؤدى عمله بإخلاص ومهارة وكفاءة ، ويساهم فى زيادة الانتاج مما يحقق الرخاء ، وأن يقنع بأجره المحدد له . فالرسول ﷺ يقول : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » . وقد استعمل الرسول ﷺ عاملا على الصدقة ، فلما أتاه قال هذا لكم ، وهذا أهدى إلى فقال عليه السلام غاضبا : « ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدى إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وأمه ، فينظر هل يهدى إليه أم لا ! » .

* * *

(١) سورة هود الآية ١٥ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٩ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٥ .

## ٤ – ميزانية الدولة الاسلامية

### بيت المال والدواوين الحكومية الاسلامية :

لم يكن للعرب حينما بدأوا الفتوحات العربية الاسلامية فى الأراضى الرومانية والفارسية دواوين مدونة ، ولا نظام معلوم للضرائب إلا نظام الأعشار أو الزكاة أو الصدقة . وكانت هناك أحاديث تتعلق بالضرائب التى وضعها رسول الله على أراضى اليهود والنصارى كالتخميس والتنصيف ولكنها كانت لا تفى بحاجة الدولة العربية الاسلامية الناهضة التى قطعت فى الحضارة شأوا بعيدا ، ولا تقارن بالأوضاع التى كانت سائدة فى الدولتين الفارسية والرومانية التى عرفت كثيرا من النظم الاقتصادية الراقية . ولهذا لم تكد الفتوحات العربية الاسلامية تستتب وتستقر فى بعض هذه الأمصار حتى دعت الحاجة إلى إنشاء بيت للمال يقوم على صيانة الواردات المالية وحفظها لمصالح الدولة العربية الاسلامية الوليدة .

ولهذا لم تكد تنتهى العمليات الحربية فى البلاد الرومانية والفارسية حتى أخذ عمر بن الخطاب منظم الدولة العربية الاسلامية وواضع نظمها يبحث عن نظام للضرائب جديد يضمن لبيت المال مصلحته ولا يكون مجحفا بحقوق الأهالى الذين دخلوا فى ذمة المسلمين ، فرأى أن يبقى الأراضى فى أيدى أصحابها السابقة ويأخذ منهم الضرائب التى كانوا يؤدونها قبل الفتوح ، فأتبع بعض النظم الفارسية والبيزنطية .

كان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين فى الاسلام حينما كثرت أموال المسلمين ، وكان من رأى على بن أبى طالب أن يقسم عمر كل ما اجتمع إليه من مال ، أما عثمان فقد رأى إنشاء الديوان ، وأخيرا تم تدوين الدواوين فى شهر المحرم من سنة ٢٠ هـ [١] . وظلت دواوين الأموال فى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

البلاد المفتوحة على ما كانت عليه قبل الفتح العربى [١] . وكان لابد للعرب من الاحتفاظ بالنظم الادارية غير العربية وخاصة الفارسية . ويذكر كريمر [٢] أن معظم نظم عمر بن الخطاب كانت فارسية الأصل . مثل نظام العملة ، وتقسيم الولايات الادارى ، ونظام الضرائب ( الجزية والخراج ) . وهذه هى الحقيقة ، فقد ظل النيروز أول السنة المالية طوال حكم الخلفاء الراشدين الأمويين حتى خلافة هشام بن عبد الملك ، فكان النيروز هو موسم جباية الخراج . وضرب العملة ، وتولية العمال [٣] وتحدث الجهشيارى [٤] عن الدواوين التى كانت بالعراق حتى خلافة عبد الملك بن مروان فقال : « لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم وهذا الذى كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية » .

وربما نجد من يتساءل : لماذا لم يعرب عمر الدواوين الفارسية والرومانية ويوجد نظم الدواوين الاسلامية ؟ ونحن نجيب عليه أنه لم يكن بمقدور أمير المؤمنين وهو يحمل أعباء هذه المسئوليات الحربية العظيمة فى تلك الفترة من الزمن أن يعمل على تعريب الدواوين ، أو أن يوجد نظاما واحدا يفرضه على الدولة العربية الاسلامية الواسعة . وهذه الدواوين لم تفكر الدولة العربية فى نقلها إلى العربية إلا بعد خمسين سنة من هذا التاريخ ، على أن كل هذه المشاكل العظيمة التى كان عمر يحمل أعباءها لم تكن تمنعه عن النظر أحيانا فى الأنظمة التى صار إقرارها ، ولم تكن تصرفه عن التدقيق فى الضرائب وموارد الخلافة . فقد ذكر أبو يوسف فى كتابه ( الخراج ) أن عمر قال للدهاقين الذين دعاهم يستفسر منهم عن مقدار الضرائب التى كانوا يؤدونها إلى الأعاجم وعن طريقها ، وأنه فرض على بعضهم أكثر مما

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ١٩٧ .
(٢) الحضارة الإسلامية ص ٦٠ .
(٣) الجاحظ : التاج ص ١٤٦ .
(٤) الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

كانوا يدفعونه ، كما يقول فى موضع آخر : أن عمر قال لما رفع إليه ما فعله عثمان بن ضيف فى السواد « أنهم يطيقون أكثر من ذلك » .

كان فى الدولة العربية الاسلامية أربعة دواوين : ديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، وديوان الايرادات المنوعة ، وديوان الخاتم ، وبجانب هذه الدواوين الأربعة قامت مصالح صغيرة تهتم بشئون الاقطاع ، والجند والأساطيل ، والمعادن والرسائل ، والثغور ، وغير ذلك [١] .

## نظام اللامركزية :

اتبع خلفاء الدولة العربية الاسلامية ، الراشدون والأمويون ، نظام اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مرافقها الخاصة والباقى يحمل إلى الخزينة العامة بالمدينة أو دمشق . وبدأ عمر بن الخطاب هذه السياسة فكتب إلى عثمان بن حنيف عامله على مساحة أرض العراق : ( أحمل إلى أهل المدنية أعطيتهم فإنهم شركائهم ) [٢] . وكان بعض أهالى الأمصار الاسلامية ، وخاصة أهالى العراق ، غيرة شديدة على بيوت أموالهم ، فقد دافع أهل البصرة عن بيت مالهم عند محاولة طلحة والزبير الاستيلاء عليه حتى سقط أربعون منهم قتلى [٣] . وبعث معاوية إلى عامل خراج العراق يأمره ألا يقسم الذهب والفضة بين أهالى العراق وأن يبعث بها إليه . ولكن هذا العامل أبى إلا أن يقسم فىء أهل العراق فيهم [٤] . وخرج زياد بن أبية من البصرة إلى دمشق ومعه فضل بيت مال البصرة فاجتمع عليه أهلها وانتزعوا منه الأموال بالقوة وقسموها بينهم ، كما فعلوا مثل ذلك مع حمزة

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٣ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٥٨ .

ابن عبد الملك بن الزبير [١] . وفى أواخر الدولة الأموية بدأ الضعف يدب فى أطرافها وحاول الخليفة يزيد بن الوليد أن يفوز برضاء أهل الأمصار الاسلامية فأعلن أنه لن ينقل مالا من بلد إلى بلد أخرى حتى يسد ثغره ويغنى أهله [٢] .

## إيرادات الدولة الاسلامية :

كانت أهم موارد بيت مال الدولة العربية الاسلامية الغنائم ، والفىء والخراج ، والجزية ، والزكاة ، والعشور . ويدخل تحت هذه الأقسام الأصلية فروع صغيرة [٣] . فالغنيمة هى ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، أما الفىء فهو ما صولح عليه المسلمون من جزية وخراج [٤] وتختلف الغنيمة والفىء عن الصدقات من عدة وجوه : أولها أن الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيرا لهم ، بينما الفىء والغنيمة تؤخذ من الكفار انتقاما منهم : وثانيهما أن مصرف الصدقات منصوص عليه فى القرآن ، بينما مصرف أموال الفىء والغنيمة باجتهاد الأئمة [٥] .

( أ ) **الغنائم** : تنقسم الغنائم إلى أربعة أقسام : أسرى ، وسبى ، وأرض وأموال [٦] . أما الأسرى فهم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون أسرى فى يد المسلمين ، وكانوا إما أن يقتلوا أو يسترقوا أو يفدوا أنفسهم

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) الفخرى ص ٩٨ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ .

(٤) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٣ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٠٣ .

(٦) الأحكام السلطانية ص ١٢٥ .

بمال أو أسرى أو يمن عليهم بغير فداء ، فإن أسلم الأسير سقط عنه القتل وخير بين الوجوه الثلاثة الأخرى ، ويكون المال المأخوذ فى الفداء غنيمة [١] .

أما السبى فهم النساء والأطفال ، ولايجوز قتلهم إذا كانوا أهل كتاب ، ولكن يعتبروا سبيا مسترقا ويقسمون مع الغنائم ، ولا يفرق بين والدة وولدها ، ويجوز فداء السبى بالمال ، كما يجوز مبادلتهم بأسرى المسلمين ، والمن عليهم بشرط رضا الغانمين [٢] .

أما الأرض التى استولى عليها المسلمون فهى ثلاثة أقسام : أولها ما ملكت عنوة وقهرا ولم يحصل المسلمون عليها إلا بعد القتل أو أسر أو إجلاء أصحابها ، وهذا النوع من الأرض اختلف فى أمره الفقهاء فبعضهم يعتبروه جزءا من الغنائم والبعض يرى إعادتها إلى أصحابها مقابل دفعهم الخراج على الأرض والجزية على الرؤوس . والقسم الثانى الأرض التى ملكت عفوا ويتصرف فيها الامام كيف شاء ، والغالب أن تصبح أرضا خراجية ولا يجوز بيعها أو رهنها . القسم الثالث الأرض التى يستولى عليها المسلمون صلحا وهى تبقى فى أيدى أصحابها مقابل دفعهم الخراج ، ولا يسقط الخراج بإسلام أصحابها [٣] ورفض عمر بن الخطاب أن يقسم أرض سواد العراق بين المسلمين باعتباره جزءا من الغنائم « لأنه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، لو كانوا جاوزوه وجمعوا ما فيه من السبى والأموال كان غنيمة » [٤] . أما الغنائم المنقولة كالماشية والمال والأسلحة فهى تقسم كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٥ ، ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٣ .

(٥) سورة الأنفال الآية ٤١ .

(ب) **الفيء** : أما الفيء فهو المورد الثانى لبيت مال الدولة الاسلامية ويعرف ابن آدم [١] الفيء بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج بغير قتال . ويعرفه الماوردى [٢] بقوله : « كل ما وصل من المشركين عفوا بغير قتال ، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب ، فهو كمال الهدنة والجزية وأعشار متاجرهم ، أو كان واصلا بسبب جهتهم كمال الخراج » .

وكان يؤخذ منه الخمس فيجعل سهم منها للرسول وقد أصبح بعد وفاته ينفق فى مصالح المسلمين كأرزاق الجيش وأسلحتهم وحصونهم والقناطر وأرزاق القضاة والأئمة . والسهم الثانى ، سهم ذى القربى وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ولا حق فيه لمن سواهم من قريش . أما السهم الثالث فلليتامى من ذوى الحاجات . والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لأبناء السبيل . أما الأربعة الأخماس الباقية من الفيء فقد اختلف الفقهاء فيها ، فمنهم من جعلها لمصالح المسلمين وخاصة لأرزاق جنودهم وبعضهم جعلها للجيش بحيث لا يشاركهم أحد فيها [٣] . ورفض عمر بن الخطاب تقسيم أرض سواد العراق ، باعتبارها جزءا من الفيء وقال : « فقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم ، فى هذا الفيء ودمه فى وجهه » [٤] . وأمر عمر بترك الأرض لأصحابها مقابل دفعهم الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض [٥] . وكان أصحاب الأرض إذا اعتنقوا الاسلام أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولكن أرضهم تبقى فيئا [٦] .

---

(١) الخراج : جـ ١ ص ٣ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ١٣ .

(٥) المرجع السابق ص ١٦ .

(٦) ابن آدم : الخراج جـ ٢ ص ٣٣ .

(جـ) **الخراج** : الخراج فى لغة العرب اسم للكراء والغلة ، ومنه قول الرسول : « الخراج بالضمان » [١] وفى دائرة المعارف الاسلامية [٢] أن كلمة خراج فارسية اقتبسها الفرس عن الكلمة الآرامية « هلاك » . وقد جبى الفرس خراج السواد منذ استولوا عليه من النبط [٣] ويعرف الماوردى [٤] الخراج فى الاسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تدى عليها » . وقد اهتم الخلفاء والولاة بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزية لأن الخراج أكثر ثباتا من الجزية وأكثر دخلا ، حيث إن الجزية تسقط بالاسلام .

كانت أراضى الأمصار الاسلامية عدة أنواع ، وكان لكل نوع منها وضع خاص بالنسبة للخراج . أما النوع الأول فهو الأرض التى ملكت عنوة وقهرا والتى فارقها أهلها بالقتل أو الأسر أو الاجلاء . فهذه الأرض إن قسمها الامام بين من غلب عليها فهى أرض عشر وأهلها رقيق ، وإن لم يقسمها الإمام وردها للمسلمين عامة ، كما فعل عمر بالسواد ، فعلى رقاب أهلها الجزية وعلى الأرض الخراج ، وليس أهلها برقيق [٥] . وقد فتحت أرض السواد عنوة واعتبرت فيئا للمسلمين ، ولكنها تركت لأهلها مقابل الخراج [٦] .

أما النوع الثانى من الأرض ، فهى أرض الفىء التى صولح عليها أهلها ، فيوضع عليها الخراج وهى بدورها قسمان : أحدهما أرض صولح أهلها على زوال ملكهم عنها وهذه لا يجوز بيعها ويكون خراجها مقابل إيجار

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤ .
(٢) P. 245 انظر أيضا كتاب الخراج للدكتور الريس .
(٣) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٧ .
(٤) الأحكام السلطانية ص ٤٠ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ .
(٦) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٦ .

لها ، ولا يسقط هذا الخراج بإسلام أصحابها بل يأخذ من المسلم ومن أهل الذمة ، والقسم الثانى الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها ، وهذه يجوز بيعها ، ويسقط خراجها بإسلام أصحابها (١) وكان العرب إذا صالحوا قوما من العجم ، سواء من عبدة الأوثان أو من أهل الكتاب ، فإنهم يفرضون عليهم الجزية على الرءوس والخراج على الأرض (٢) .

أما النوع الثالث من الأرض فهى الأرض التى أسلم عليها أهلها فتصبح أرضا عشرية يدفع أهلها عنها عشر الزرع (٣) . وهناك فرق كبير بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل إيجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والثمر . وكانت الأرض التى يستأنف المسلمون إحياءها فى العراق عشر لا يجوز أن يوضع عليها الخراج (٤) . أما الأرض الموات إذا شربت ماء الخراج أصبحت أرض خراج سواء أكان صاحبها مسلم أو ذمى أما إذا حفر صاحبها بئرا أصبحت أرضا عشرية (٥) . وكان لا يجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج (٦) .

أما النوع الرابع من الأرض ، فهى ما ملكه المسلمون عفوا أو فر أهلها عنها ، فيفرض عليها الخراج كأجرة لزراعتها سواء زرعها مسلم أو ذمى (٧) . أما النوع الخامس فهى أرض بنى تغلب ، وقد فرض عليها ضعف ما يؤخذ من المسلم فى أرضه وماشيته وأمواله مقابل إعفائهم من الجزية والخراج (٨) .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٣٣ .
(٢) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٢ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٣٣ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣ .
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٧) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩١ .

وصفوة القول ، أن أرض الخراج هى كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج [١] – وكل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين [٢] .

كان الخراج يظل مفروضا على الأرض المفتوحة عنوة حتى بعد إسلام صاحبها ، لأن هذه الأرض فىء للمسلمين وملك لهم جميعا ، وما يدفعه صاحبها هو إيجار مقابل زراعته لها [٣] . فقد توجه رجل إلى عمر بن الخطاب « فقال : إنى قد أسلمت فارفع عن أرضى الخراج . قال إن أرضك أخذت عنوة » [٤] . وكان عمر بن عبد العزيز يقول : « من أسلم من أهل الأرض فله ما أسلم عليه من أهل ومال ، فأما داره وأرضه فإنها كائنة فى فىء الله عز وجل على المسلمين » [٥] .

أما الأرض التى صولح أهلها على زوال ملكهم عنها فلا يجوز بيعها . ويعتبر خراجها إيجارا ، ولا يسقط الخراج بإسلام أهلها إنما ترفع عنهم الجزية [٦] ويتهم جوزى [٧] الأمويين بأنهم أبقوا الخراج على هذه الأرض لحرصهم على المال وليس رغبة منهم فى المحافظة على سنة عمر بن الخطاب . أما الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فيجوز بيعها ويسقط خراجها بإسلام أهلها وتصبح أرضا عشرية [٨] . وكان عمر بن الخطاب ينهى عن شراء أرض أهل الذمة . أما على بن أبى طالب فكان يكره أن يشترى المسلمون أرض الخراج ويقول : عليها خراج المسلمين [٩] وكان الحجاج بن

---

(١) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٧ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .
(٣) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٨ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٥٤ .
(٥) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٠ – ١١ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٧ .
(٧) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٩ .
(٨) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٧ .
(٩) ابن آدم : الخراج جـ ٢ ص ٤١ .

يوسف والى العراق فى العصر الأموى يقول : ما أبغض إلى أن تكثر العرب فى أرض الخراج [١] . ولذا أعاد الحجاج الخراج على كل أرض أسلم أصحابها أو اشتراها مسلمون مما أدى إلى هرب أصحابها من القرى إلى المدن . فأعادهم الحجاج إلى أرضهم رغما عنهم [٢] .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بإعفاء كل من أسلم من الخراج [٣] . ولكن عمر لاحظ أن هذه السياسة تضر بيت المال ، فوضع حلا وسطا لتلك المشكلة بأن رفع عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرر أن شراء المسلمين وامتلاكهم الأرض بعد هذا التاريخ غير جائز لأن المسلمين حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضا عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد المالية . وتبعا لهذه السياسة ، كان إذا أسلم رجل من أصحاب تلك الأرض الخراجية ، فإن ملكيته تزول عن هذه الأرض وتصبح ملكا مشاعا للمسلمين . وما دامت الأرض ليست ملكا لشخص بعينه فكان يؤخذ منها الخراج والعشر معا : أما الخراج فلأنه مقابل الايجار لتلك الأرض ، وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة فى الزروع والثمار . ولذا قال عمر بن عبد العزيز : « لا يحل لأحد أن يحول أرض خراج إلى أرض عشر ولا أرض عشر إلى أرض خراج وذلك أن يكون للرجل أرض عشر وإلى جانبها أرض خراج فيشتريها فيصيرها مع أرضه ويؤدى عنها الخراج ، فهذا حد ما لا يحل فى الأرض والخراج » [٤] .

جمع العرب الخراج من الأمصار منذ اللحظة الأولى للفتح العربى الإسلامى ، وأراد عمر بن الخطاب أن يحدد مقدار الخراج الذى يفرضه على كل نوع من الزرع ويحدد طرق الجباية فاستدعى إليه بعض أصحاب الأراضى

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٢٦٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٦ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

فسألهم عن النظم التى كانت متبعة قبل الفتح العربى الإسلامى . وجعل عمر على كل جريب قفيزا ودرهما ، وكان القفيز وزنه ثمانية أرطال وثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال ، وهو نفس ما فرضه كسرى بن قباذ من قبل [١] . وفرق عمر بين أنواع الزرع ، فكان على كل نوع مقدار معين من المال مقابل الخراج [٢] . وأمر عمر عماله بأن أهل الخراج إذا احتملوا أكثر من ذلك فلا يزاد عليهم ، وإن عجزوا عن ذلك خفف عنهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم [٣] والحقيقة أن نظام عمر كان نظاما عادلا ، فقد كانت الأرض تحتمل ما وضعه عمر من خراج بل وتفيض [٤] وكان عمر يسمح بتقسيط الخراج ودفعه عينا أو نقدا [٥] . ولكن أهل السواد رغم ذلك التيسير ، كانوا يرون أن نظام المقاسمة الذى كان يتبعه الأكاسرة أخف عبئا من نظام الخراج الذى وضعه عمر [٦] .

سار على بن أبى طالب ومعظم الخلفاء الأمويين على سياسة عمر بن الخطاب . وكان الخراج قابلا للزيادة والنقصان حسب الظروف [٧] . وكان خراج كل ناحية يختلف عن خراج غيرها . وكانت الأرض التى تصاب بالآفات والغرق تعفى من الخراج ، كما تعفى الأرض التى تبنى عليها الحوانيت وإذا عطل فلاح أرضه عن الزراعة انتزعت منه ومنحت لغيره يزرعها ويؤدى عنها خراجها ، وكان يسمح بزراعة الأرض أكثر من مرة فى السنة الواحدة مقابل خراج واحد [٨] .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤١ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٨ .
(٣) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ٩ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٢١ .
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٧ .
(٦) أبو يوسف : الخراج جـ ١ ص ٩ .
(٧) أبو يوسف : الخراج ص ٤٨ .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ .

كانت هناك عدة عوامل تؤثر فى اختلاف جملة الخراج من ناحية إلى أخرى ومن سنة إلى أخرى ومن عهد إلى آخر . وقد ذكر الماوردى [١] أربعة من هذه العوامل . أولها اختلاف جودة فى الأرض من مكان لآخر ، وزيادة هذه الجودة أو نقصانها تبعا لعناية الولاة والفلاحين بها . وثانيها نوع المحاصيل من حيث الجودة ، وهذه الجودة تتبع اهتمام الولاة بالزراعة ومكافحتهم للآفات الزراعية . وثالثها نظام الرى ، ومن البديهى أن تختلف نظم الرى ومشاريعها من عهد إلى آخر . ورابعها اختلاف حالة الأسواق ، ولا شك أنه كلما زاد عدد الأسواق زاد رواج المحصولات وبالتالى زاد الخراج .

( د ) **الجزية** : فرض الأكاسرة على رعاياهم فى بعض الولايات دفع الجزية . ويروى الماوردى [٢] أن دفع غير المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمايتهم . وقد فرضت الجزية على غير المسلمين فى الولايات سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الصابئة أو السامرة ، ما عدا نصارى بنى تغلب وأهل نجران [٣] .

بعد استقرار الفاتحين فى الأمصار المفتوحة فكر عمر بن الخطاب فى وضع نظام ثابت موحد للجزية يتبعه العمال فى سائر الأمصار ، وليمنع اجتهاد الولاة [٤] فجعل عمر الجزية على الرجال ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما ، وعلى الفقير اثنا عشر درهما [٥] . أما الموسر فهو صاحب الحرفة المربحة مثل الصيرفى والبزاز وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب ، أما المتوسط الحال فهو الأقل كسبا ، أما الفقير فهو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكاف وما شابههم [٦] .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٢ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٣٧ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .
(٥) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ .
(٦) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠ .

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية [١] . وكان يسمح بدفع الجزية نقدا أو عينا ، ولكن لا يسمح بتقديم الميتة أو الخنزير أو الخمر بدلا من الجزية ، ولكنها كانت تباع ثم يحصل ثمنها وكانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية جزية الرؤوس ثم تكثر الخواتيم وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية [٢] .

كان كل من يعتنق الاسلام من أهل الجزية طوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين حتى فترة حكم الحجاج ترفع عنه الجزية . وسار الخلفاء على سيرة عمر ، وكان الحجاج بن يوسف أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا إلى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم إعفائهم من الجزية وإعادتهم إلى قراهم بالقوة [٣] أما عمر بن عبد العزيز فقد أمر برفع الجزية عمن أسلم . واختلف المؤرخون المحدثون فى تقدير ما فعله عمر . فيرى ( حتى ) [٤] . أن سياسة عمر قد أضرت بيت المال ضررا كبيرا . ويرى ( فان فلوتن ) [٥] أن إصلاحات عمر ناقصة ، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها ، بل أدت إلى الفوضى المالية بعد موت عمر . ويرى ( فلهوزن ) [٦] . أن عمر لم ينجح فى سياسته المالية ، بل أدت هذه السياسة إلى الانحطاط المالى . أما ( دوزى ) [٧] فإنه يتهم عمرا ويدافع عنه فى نفس الوقت ، فيرى أن

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .
(٢) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٣) الطبرى : جـ ٢ ص ٣٥ .
(٤) تاريخ العرب جـ ٢ ص ٢٨٥ .
(٥) السيادة العربية ص ٥٨ .
(٦) The Arab Kingdom P. 282.
(٧) نظرات فى تاريخ الإسلام ص ١٢١ .

سياسة عمر أدت إلى إرهاق بيت المال ، كما دفعت بكثير من أهل الذمة إلى التظاهر باعتناق الاسلام دون إيمان به فرارا من الجزية ، ثم يدافع دوزى عن عمر فيقول أنه كان مسلما ورعا تقيا وآثر نصرة الاسلام على أى شىء آخر .

( هـ ) **الصدقة** : الصدقة هى الزكاة أو العشر [1] . ويعرف الماوردى [2] الصدقة بقوله : « الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة ، يفترق الاسم ويتفق المسمى ، ولا يجب على المسلم فى ماله حق سواها » . فقد قال الرسول : « ليس فى المال حق سوى الزكاة ، والزكاة تجب فى الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها أو بالعمل فيها طهارة لأهلها ومعونة لأهل السهمين » . وكان بين الأراضى التى فتحها المسلمون ما فتحت عنوة فأصبحت أرض خراج ، وما صولح عليه أهلها فكان عليهم ما صولحوا عليه دون زيادة وما أسلم عليها أهلها فأصبحت أرض عشر تؤخذ عليه الصدقة [3] . ومنها الأرض الموات التى أحياها المسلمون فأصبحت أرضا عشرية [4] .

وهكذا خضعت الجماعة الاسلامية لضريبة واحدة هى الصدقة أو الزكاة أو العشر ، وكلها أسماء لضريبة واحدة . أما النصارى فلا يدفعون سوى الجزية والخراج وعشر التجارة ( العشور ) ، ولكنهم لا يدفعون شيئا عن مواشيهم أو ثمارهم أو زرع أرضهم ، عدا نصارى بنى تغلب فيدفعون ضعف صدقة المسلم مقابل إعفائهم من الجزية [5] .

---

(١) ابن آدم : الخراج جـ ٣ ص ٧٠ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٣٣ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٥) أبو يوسف : الخراج ص ٧٧ .

تفرض الصدقة ( الزكاة ) على الماشية إذا توافر فيها شرطان : أولهما أن تكون سائمة ترعى الكلأ فتقل نفقاتها ويتوفر درها ونسلها ، فإن كانت عاملة أو معلوفة تجب فيها الزكاة . وثانيهما أن يحول عليها الحول الذى يستكمل فيه النسل لقول الرسول : « لا زكاة فى مال حتى يحول عليها حول » [١] . وقد أعفيت الخيل والبغال والحمير من الصدقة [٢] .

أما زكاة الثمار فيجب عند فرضها من تحقق شرطين : أولهما أن تكون ناضجة صالحة للأكل ، وثانيهما أن تزيد كمية الثمار عن خمسة أوسق [٣] . والوسق ستون صاعا أى خمسة أرطال وثلث [٤] وإذا كانت أشجار الثمار تروى بماء المطر كان عليها العشر ، وإذا سقيت بالدلو فعليها نصف العشر [٥] ، وكان عمال البصرة يقدرون قيمة الكروم وهى على أشجارها ، أما النخيل فلم يهتموا بتقدير ثماره لكثرته حتى إن أصحابه كانوا يسمحون للمارة أن يأكلوا منه ما شاءوا [٦] . أما الثمار التى تنمو فى الجبال فلا عشر عليها [٧] . وأعفيت من الصدقة الفاكهة التى ليس لها ثمرة باقية مثل البطيخ [٨] .

أما زكاة المحاصيل الزراعية « فلا تفرض إلا فيما زرعه الآدميون قوتا مدخرا ، ولا تجب فى البقول ، ولا فيما يؤكل من القطن والكتان ، ولا فيما لا يزرعه الآدميون من نبات الأودية والجبال » [٩] بشرط أن يزيد مقدار المحصول على خمسة أوسق .

---

(١) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٦ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ١١٢ .
(٣) الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ص ٢١ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٢٩ .
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٣ .
(٦) أبو يوسف : الخراج ص ٤٠ .
(٧) الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ص ٢١ .
(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٤ .
(٩) المرجع السابق ص ١١٤ — ١١٥ .

أما زكاة الذهب ، فهى ربع العشر عن كل ما زادت قيمته على عشرين مثقالا . وكانت زكاة الفضة خمسة دراهم عن كل مائتى درهم ، ولا تؤخذ الزكاة عما قلت قيمته عن مائتى درهم [١] وكان كل ما يخرج من البحر من حلى وعنبر ، دون سواهما ، يفرض عليه الخمس ويبقى لمستخرجه الأربعة الأخماس الباقية [٢] وأعفى الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والفيروز والنفط والقير والزئبق من الصدقات [٣] .

أما صدقات عروض التجارة فتختلف باختلاف أديان التجار ، فكان يفرض على التاجر المسلم ربع العشر أى درهم عن كل أربعين درهم ، وعلى الذمى نصف العشر أى درهم عن كل عشرين درهم ، وعلى من لا ذمة له العشر [٤] بشرط أن تزيد قيمة التجارة على مائتى درهم [٥] . وكانت هذه العشور تؤخذ من بضائع تجار الكفار التى يقدمون بها من دار الحرب إلى دار الاسلام ، ولا تؤخذ الضريبة من كل تاجر إلا مرة واحدة كل سنة ، ولو تكرر قدومه ، كما لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى ، وهذا ما نسميه فى وقتنا الراهن الضرائب الجمركية .

وكان للصدقة ( الزكاة ) عمال يختصون بجمعها فى الولايات الاسلامية وكان لا يجوز أن يتولى عمال الخراج جبايتها ، لأنه لا يجوز اختلاط مال الخراج بمال الصدقات لأن لكل منهما مصرف خاص . ويشترط فى عامل الصدقات أن يكون حرا مسلما عادلا عالما بأحكام الزكاة وعليه أن يتولى الأموال الظاهرة التى لا يمكن إخفاؤها كالزرع والثمار والماشية . أما الأموال الباطنة كالذهب والفضة وعروض التجارة فعلى أصحابها إخراج زكاتها

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٣٩ .
(٢) ابن آدم : الخراج جـ ١ ص ١٧ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٦٨ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٩ .

طوعا [١] . وعلى العامل أن يدعو أهلها إلى إخراجها ويرغبهم فى المسارعة فى ذلك تمييزا لهم عن أهل الذمة فى الجزية ، وإذا كتم الرجل زكاة ماله وأخفاها عن العمال أخذها العامل بالقوة ونظر فى سبب إخفائها . وكان جباة العشور ( العاشرون ) يتخذون أمكنتهم فى طرق التجارة البرية والنهرية ، كما كانوا ينصبون الحبال عن ضفاف الأنهار ويقفون السفن لفحص أنواع التجارة ومعرفة أديان أصحابها لتحصيل نصيب بيت المال فيها . وكان التاجر يمنح إيصالا باستلام العاشر يظل ساريا لمدة سنة [٢] .

## المصروفات فى الدولة الاسلامية :

**كانت الغنائم** : تقسم بعد انتهاء الحرب ، ويبدأ بتوزيع أسلاب القتلى مثل الملابس والأسلحة والخيل ، ثم يفصل خمس الغنائم ويمنحه الوالى لمن ذكرهم الله فى آيته الكريمة : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ . أما سهم الرسول فكان يصرف خلال الحكم الأموى فى مصالح المسلمين ، أما سهم ذى القربى فكان يرسل إلى الخليفة الأموى بدمشق إذ ادعى بنو أمية أنهم أقرباء الرسول . أما الأربعة الأخماس الباقية من الغنائم فتقسم على من شهد الحرب . وللفارس ثلاثة أسهم : سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم واحد ويسوى بين المرتزقة وبين المتطوعين ما داموا قد شهدوا الموقعة [٣] .

**أما الصدقات** : فقد حدد الله وجوه صرفها فى الآية الكريمة : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ﴾ . فكانت الصدقات تقسم

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٦ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٩ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٠ .

إلى ثمانية أقسام متساوية . فيدفع سهم منها إلى الفقراء ، والفقير هو الذى لا يملك شيئا . والسهم الثانى للمساكين ، والمسكين هو الذى لا يستطيع سد حاجته ، والسهم الثالث فهو سهم ( العاملين عليها ) . وهم نوعان : أحدهما القائمون بجباية الصدقات وثانيهما القائمون بتقسيمها وتفريقها فى مستحقيها . أما السهم الرابع فهو سهم ( المؤلفة قلوبهم ) ، وهم أربع فئات : أولها من يعاونون المسلمين ، وثانيهما من يكفون عنهم وثالثهم الراغبون فى الاسلام ، ورابعها الذين يرغبون قومهم وعشائرهم فى الاسلام . أما السهم الخامس وهو سهم الرقاب فيدفع إلى المكاتبين ، أما السهم السادس فللغارمين الذين لا يستطيعون سداد ديونهم . أما السهم السابع فهو سهم سبيل الله تعالى ويدفع إلى الغزاة ، أما السهم الثامن والأخير فهو سهم ابن السبيل وهو المسافر الذى لا يجد نفقة سفره [1] وإذا انعدم وجود واحد من هذه الوجوه الثمانية قسمت الصدقات على باقى الفئات الأخرى ، عدا سهم سبيل الله فلابد أن ينقل إلى الجند حيث نزلوا من الثغور . ويجب أن تصرف صدقة كل ناحية فى أهلها ولا يجوز نقل صدقات بلد إلى غيره . ولا يجوز إعطاء صدقة إلى كافر ، ولا يجوز دفعها إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، كما لا يجوز إعطاء صدقة إلى عبد أو مدير ولا أم ولا ولد ولا إلى واحد له من يعوله [2] .

كانت أموال **الفىء** تحمل إلى بيت المال ، بينما تصرف الصدقات على أهلها ، ويبدأ صرف الفىء بأن ينزع منه الخمس ، ويصرف هذا الخمس فى نفس الوجوه التى يصرف فيها خمس الغنائم ، كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [3] أما الأربعة الأخماس الباقية فتصرف على أهل الفىء ، وهم ذو الهجرة والمجاهدون والعدو . وكان ذو الهجرة قبل

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٩ .

(٣) سورة الحشر الآية ٧ .

الفتوح العربية يطلق على من هاجر إلى المدينة مع الرسول . ولكن بعد الفتح صار المسلمون جميعا مهاجرين (١) .

وكان لابد فى صرف أموال الفىء من تحقق عدة شروط : فلا يجوز صرف مال الفىء فى أهل الصدقات ، كما لايجوز لعامل الفىء أن يقسم ما جباه إلا بإذن الامام (٢) .

ومن المفروض ألا يدفع الخليفة أو الوالى الصلات من مال الفىء ، وكان ذلك مما نقمه الناس على عثمان بن عفان ، ولكن الماوردى (٣) يجوز ذلك فيقول إنه يجوز للامام أن يصل قوما من مال الفىء إذا عادت هذه الصلات بالفائدة على مصالح المسلمين كمنحة الصلات للرسل أو المؤتلفة ويجوز الماوردى للامام أن يمنح أولاده الذكور من مال الفىء دون الإناث .

ومن المفروض أن ينفق مال الفىء فى كل ولاية إسلامية فيها ، ولكن كثيرا ما كان يحمل الفائض إلى العاصمة الاسلامية .

**كان العطاء** أهم وجوه صرف مال الفىء . وكان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين وفرض العطاء سنة ٢٠ هـ ، عند زيادة أموال الفىء وتضخم الايرادات (٤) ، وقام عمر بإحصاء شامل لجميع المسلمين ، ثم قام بترتيبهم ، فبدأ ببنى هاشم ثم أقرب المسلمين إليهم ، فإذا تساووا فى درجة القرابة قدم على أهل السابقة ثم انتهى إلى الأنصار (٥) . واتبع عمر هذه السياسة فى دواوين الأمصار ، وأمر عماله بقسم أموال الفىء فى أهل كل مصر (٦) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٣ – ١٢٤ .
(٤) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٥ .
(٦) المرجع السابق ص ٤٥٨ .

وضع عمر نظاما للعطاء سار عليه معظم الخلفاء الراشدين والأمويين ، فكان يفضل أهل الحضر على بدو البادية ، كما فرض لعيال المقاتلة وذريتهم وجعل هذا العطاء بالوراثة ، وكان عمر يفرض للمولود عند ولادته عشرة دراهم حتى إذا بلغ أصبح له عطاء الرجل [١] . سار عثمان وعلى على سيرة عمر فى العطاء . وعدل معاوية فى نظم عمر العطاء ، ففرض العطاء للفطيم دون المولود ، فلما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة قطع عطاء الذرية إلا عمن شاء ، أما عمر بن عبد العزيز فكان يفرض لكل فطيم عشرة دنانير [٢] ورد عمر نظام العطاء إلى سنة ابن الخطاب ، من توريث الذرية وجعل العطاء على الشرف [٣] .

كان عطاء المسلمين يشمل رواتب الجند المسلمين ، ورواتب أخرى لجميع طبقات المسلمين بما فيهم النساء والأطفال .

ونبدأ الحديث عن عطاء الجند ، ويرجع لعمر بن الخطاب الفضل فى إنشاء ديوان الجند إذ كان المسلمون وقتئذ كلهم جندا ، وكان الجند نوعين : أحدهما مرتزقة وعطاؤهم من بيت المال من أموال الفىء . وثانيهما المتطوعة وعطاؤهم من الصدقات ولا يقيدون بديوان الجند . ويشترط فى الجند الذى يأخذ العطاء ويقيد فى ديوان الجند عدة شروط : أولها البلوغ ، وثانيها الحرية لأن المملوك تابع لسيده وداخل فى عطائه ، وثالثها الاسلام ، ورابعها السلامة من العاهات التى تعوق الجند ، ويرتبون على ترتيبين : أحدهما ترتيبا عاما ، والآخر ترتيبا خاصا . أما الترتيب العام فهو الترتيب بحسب القبائل والأجناس ، فبدأ عمر بترتيب القبائل العربية حسب درجة قرابتها من الرسول ، فقدم قبيلة مضر العدنانية لأن النبوة فيهم ، ثم جاءت بعدها ربيعة

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٦٤ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٤ .
(٣) اليعقوبى : جـ ٣ ص ٤٨ .

العدنانية ، ثم سائر القبائل العدنانية ، فالقحطانية . أما الترتيب الخاص فهو الترتيب حسب السابقة فى الاسلام ، فإن تساووا فى ذلك كان ترتيبهم بالسن ، فإن تساووا فيه كان الترتيب بمقدار الشجاعة ، فإن تساووا فيها كان الترتيب بالقرعة أو اجتهاد الامام (١) .

سار عثمان بن عفان على نظام عطاء الجند الذى وضعه عمر بن الخطاب أما على بن أبى طالب فكان يرى التفضيل بالسابقة فى الإسلام . ثم ما لبث أن بدأت الدولة الأموية فانقرض أهل السابقة فى الاسلام ، وتساوى المسلمون الموجودون حينئذ فى إسلامهم فجعل الخلفاء والولاة الأمويون السوابق بالتقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد (٢) .

كان عطاء الجند وعطاء المسلمين يسيران جنبا إلى جنب فى أيام عمر ابن الخطاب حين كان المسلمون كلهم جندا . ولكن سرعان ما افترق هذا النوعان عن بعضهما خلال الحكم الأموى حين زاد عدد المسلمين وخمدت حركة الفتح واشتغل المسلمون بالحرف المختلفة . واختلف عدد الجند ومقدار عطائهم باختلاف الخلفاء والولاة وتبعا للظروف السياسية والاقتصادية . وذكر الماوردى (٣) ثلاثة وجوه تؤثر فى زيادة العطاء أو نقصانه : « أحدها عدد من يعوله من الذرارى والمماليك ، والثانى عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر ، والثالث الموضع الذى يحل فيه الغلاء والرخص فيقدر كفايته فى نفقته وكسوته لعامه كله فيكون هذا المقدار فى عطائه ، ثم تعرض حاله فى كل عام ، فإن زادت رواتبه الماسة زيد وإن نقصت نقص » .

ساوى عمر بن الخطاب بين العرب والموالى فى العطاء . أما على بن

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٣ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٣ .

أبى طالب فقد فضل الموالى على العرب فى العطاء فلامه العرب على ذلك ، فدافع على عن نفسه بأن هذه الأموال هى أموال الموالى قبل أن تكون أموال العرب [١] . وفرض معاوية العطاء للموالى فجعله خمسة عشر درهما ، وجعلها عبد الملك عشرين درهما ، وزادها سليمان إلى خمس وعشرين ، ثم أبلغها هشام إلى ثلاثين درهما [٢] .

وإلى جانب العطاء الذى يأخذه عامة المسلمين كان هناك الأرزاق ، وكان العطاء كل سنة والأرزاق كل شهر [٣] . وكان عمر بن الخطاب أول من فرض الأرزاق للناس ، إذ فرض لكل مسلم ، رجلا أو امرأة أو عبدا ، مدى حنطة وقسطى زيت وقسطى خل كل شهر [٤] .

لم ينشأ عن توزيع الأرزاق مشكلة خطيرة فى الدولة الاسلامية ، إذ كان يستخدم لسد الاستهلاك الشخصى لا للتجارة ، خاصة وأن الدولة كانت تشمل أراضى كثيرة خصبة تتوفر فيها الحنطة . كما أن بعض العرب كانوا يمتلكون أراضى زراعية واسعة تدر عليهم محاصيل كبيرة تغنيهم عما توزعه الدولة من رزق . إلا أنه كان للرزق أثره الحسن على حياة المسلمين الاقتصادية ، فقد مكن الفلاح من دفع بعض الضرائب المفروضة عليه عينا من المحصول مما خفف أعباءه . ولكن كان للرزق أثره السيىء ، فإن المدن كانت تأخذ من الريف ضرائب مالية وعينية من المحاصيل دون أن تصدر له ما يعادلها ، فضمنت المدن الأموال التى تقوم عليها أسس الحياة الاقتصادية ، بينما قلت الأموال فى الريف وأصبحت حياته الاقتصادية قائمة على أسس التبادل الطبيعى مما أدى إلى الركود [٥] .

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٥٦ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٤ ص ٤٠٠ .

(٣) الفخرى ص ٩٨ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٥ .

(٥) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة ص ١٤٧ .

كان ينفق من أموال الفيء على مصالح الدولة . فيصرف منها على مشاريع الرى ، وإقامة المنشآت ، وشراء ملابس الجند وأسلحتهم ، ودفع رواتب الموظفين ، والانفاق على المسجونين وأسرى الحرب ، وإطعام العامة لاكتساب رضائهم ، أما الانفاق على مشاريع الرى ، فقد اهتم الخلفاء والولاة بحفر كثير من الأنهار فى الولايات ، وفى مقدمتهم الخلفاء الأمويون . ولكن ( ديمومبين ) [1] يعيب على الدولة الأموية عدم تخصيصها جانبا من أموال بيت المال للصرف على المشاريع الانتاجية والأعمال العامة كما كان فى الامبراطورية الرومانية ، ويذكر أن الأمل فى الثواب فى العالم الآخر كان هو الدافع الوحيد للولاة الأمويين للقيام بالاصلاحات .

* * *

---

(١) النظم الإسلامية ص ١٥٥ .

## ٥ – العملة العربية الاسلامية

عرف العرب فى الجاهلية أنواعا كثيرة من العملة النقدية ، وكانت العملة الذهبية والفضية ترد إليهم من الممالك الأخرى ، فعرفوا الدراهم الفارسية التى ذكرناها ، وعرفوا الدنانير الذهبية الرومية المسماه ( بالقيصرية ) (١) كما عرفوا نقودا نحاسية منها الحبة والدانق (٢) أما الدراهم الفارسية التى استعملها العرب فهى ( السود الوافية البغلية ) و ( الطبرية ) و ( الجوراقية ) (٣) : وكان معظم النقود الفارسية من الفضة الخالصة ، ولكن فسدت عملتهم عند فساد أمورهم فى أواخر حكم الدولة الساسانية . ولقد كان وزن الدراهم والدنانير فى الجاهلية مثل وزنها فى الاسلام مرتين ، ويسمى المثقال من الفضة درهما ، ومن الذهب دينارا (٤) والدرهم وزنه درهم من الفضة يسمونه الواف ، أما الدينار فهو ١٠ أو ١٣ أو ١٥ درهما حسب نقائه من الغش .

أقر الرسول وأبو بكر النقود الجاهلية (٥) ولكن عمر بن الخطاب لاحظ اختلاف قيمة الدراهم المتداولة بين العرب فى شبه الجزيرة العربية والأمصار المفتوحة (٦) . فكان الدرهم البغلى ٨ دوانيق ، بينما الدرهم الطبرى ٤ دوانيق ، والدرهم المغربى ٣ دوانيق ، والدرهم اليمنى دانق واحد (٧) فرأى عمر توحيد قيمة الدرهم ، فجعل قيمة الدرهم الاسلامى ستة دوانيق (٨) .

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٢١ .
(٢) الكرملى : النقود العربية ص ٨٩ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧ .
(٤) المقريزى : كتاب النقود ص ٢٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٠ .
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٧ .
(٧) المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٨) المرجع السابق .

كان خالد بن الوليد أول من ضرب النقود من المسلمين ، فقد ضرب نقودا فى طبرية سنة ١٥ أو ١٦ هـ ، وجعلها على رسم الدنانير الرومية تماما [١].

كذلك ضرب عمر بن الخطاب الدراهم على النمط الذى كانت عليه الدراهم الكسروية ، فتشابهت دراهم عمر بدراهم الفرس المنتشرة فى الأراضى الاسلامية التى كانت خاضعة للدولة الفارسية . غير أنه جعل نقش بعضها « الحمد لله » ونقش بعضها الآخر « محمد رسول الله » أو « لا إله إلا الله وحده » [٢] .

وانتشرت فى بلاد العراق زمن عمر بن الخطاب عملة تسمى « الزيوف » كان الفرس قد ضربوها فغشوا فيها ، ولذا أمر عبد الله بن مسعود عامله على بيت مال العراق أن يكسر هذه الزيوف أو يحولها إلى فضة [٣] . ولعل عمر قد تضايق من هذا الغش المستمر فى العملة ولذا فكر فى أن يجعل العملة من جلود الابل [٤] .

ضرب عثمان بن عفان دراهم وجعل نقشها « الله أكبر » . أما على ابن أبى طالب فقد شغلته الفتن عن ضرب عملة جديدة . حتى إذا تولى معاوية بن أبى سفيان كتب إلى زياد بن أبية والى العراق يقترح عليه ضرب عملة جديدة غير عملة عمر ، فضرب معاوية الدراهم السود الناقصة ، ووزن الدرهم ستة دوانيق ، كما ضرب الدنانير [٥] وضرب عبيد الله بن زياد والى العراق دراهما ونقش عليها اسمه [٦] .

---

(١) الكرملى : النقود العربية ص ٩١ .
(٢) المقريزى : كتاب النقود ص ٣٢ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٧٦ .
(٥) المقريزى : كتاب النقود ص ٢٢ — ٣٣ .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٣ .

ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى الحجاز ضرب عملة نقدية وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة ، وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحا غليظا قصيرا ، ونقش ابن الزبير على أحد وجهى الدراهم ( محمد رسول الله ) وعلى الوجه الآخر ( أمر الله بالوفاء والعدل ) [(١)] أما مصعب ابن الزبير الذى ولى العراق من قبل أخيه عبد الله ، فقد ضرب بالعراق الدراهم ، وأعطاها للناس فى العطاء [(٢)] وكان ذلك سنة ٧٠ هـ وبأمر أخيه عبد الله ، ضربها على ضرب الأكاسرة ، وكان نقش أحد وجهى الدرهم ( بركة ) وعلى الوجه الآخر كلمة ( الله ) [(٣)] ولكن هذه الدراهم التى ضربها مصعب كانت قليلة وقام الحجاج بكسرها فيما بعد [(٤)] كما ضرب مصعب قليلا من الدنانير [(٥)] .

لم يكن فى الأمصار الاسلامية فى بداية عهد عبد الملك بن مروان عملة معترف بها بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ، ولهذا كانت قيم النقد غير مستقرة البتة ، الأمر الذى يشجع على التزييف والتلاعب . ورغم أن العملة البيزنطية والفارسية كانتا متداولتين بجانب العملة المحلية إلا أن اتساع أطراف الدولة العربية الاسلامية وتقدم التجارة أديا إلى وضع ثابت للنقد [(٦)] كان عبد الملك أول من ضرب **السكة الاسلامية** وأصبحت النقود عربية صرفة ، ويفسر ابن الأثير [(٧)] ضرب العملة الاسلامية بأن عبد الملك كتب فى صدر كتبه إلى الروم ﴿ قل

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٣٣ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٣ – ٣٤ .
(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧١ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٧٣ .
(٦) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١٦٥ .
(٧) الكامل جـ ٤ ص ١٧٣ .

هو الله أحد ﴾ فهدد ملك الروم بأن ينقش على الدنانير ما يكره . أما ابن خلدون [١] فيعلل ضرب العملة الاسلامية بانتشار الغش والتزييف فى الدنانير والدراهم أما المقريزى [٢] فيذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية ذكر لعبد الملك بأن القدماء ذكروا فى كتبهم أن أطول الخلفاء عمرا من قدس الله تعالى فى درهمه ، فوضع السكة الاسلامية .

ضرب عبد الملك الدنانير وأمر الحجاج بن يوسف الثقفى واليه بالعراق بضرب الدراهم ، وبعث إليه بالسكة [٣] فضرب الحجاج الدراهم فى العراق آخر سنة ٧٥ هـ ثم أمر بضربها فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ ، وحدد عبد الملك للحجاج وزن الدرهم [٤] . وقام بضرب الدراهم للحجاج رجل يهودى يدعى سمير فنسبت الدراهم إليه فقيل لها « الدراهم السميرية » [٥] . وكان أول دراهم ضربها الحجاج هى ( الدراهم البغلية ) وكتب على أحد وجهيها ﴿ بسم الله ﴾ وعلى الوجه الآخر « الحجاج » ثم ضرب بعد سنة دراهم أخرى كتب على أحد وجهيها ﴿ الله أحد * الله صمد ﴾ فسميت هذه الدراهم « المكروهة » وقيل إن سبب ذلك كراهية الفقهاء ذكر اسم الله على العملة ، وقيل أن الأعاجم كرهوا نقصان وزنها [٦] . وكان عبد الملك قد بعث إلى الحجاج بالسكة حتى إذا فرغ الحجاج من ضرب الدراهم ، بعث بالسكة إلى سائر الأمصار لتضرب الدراهم بها ، وأمر عماله أن يرفعوا إليه تقريرا شهريا عن مقدار ما يضربونه من دراهم [٧] . وكذلك

---

(١) المقدمة ص ٨٣٠ .

(٢) كتاب النقود ص ٣٤ .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٢٢ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٧ .

(٥) المقريزى : كتاب النقود ص ٣٦ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٣ .

(٧) المقريزى : كتاب النقود ص ٣٦ .

ضرب عبد الملك دنانير من الذهب سنة ٧٣ هـ ، وكانت الدنانير حتى ذلك التاريخ كلها رومية ، وقد أطلق على الدنانير الجديدة ( العبدية ) نسبة إلى عبد الملك [١] .

وبعد فراغ عبد الملك من ضرب الدراهم والدنانير كتب إلى عماله بالأمصار يأمرهم بأن يقتصر الناس على التعامل بالسكة الجديدة ، وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة . وأن يجمعوا له النقود القديمة المتداولة حتى يحولها إلى السكك الإسلامية [٢] .

اتخذ الحجاج بن يوسف دارا للضرب ، وجمع فيها الطباعين لسك العملة الجديدة ، فكان يضرب ما يحتاجه عبد الملك وسائر الأمصار الاسلامية من عملة ، ثم أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الأوراق ، وختم على أيدى الطباعين تلافيا لتلاعبهم [٣] . وكان الدينار والدرهم مستديرين ، والكتابة عليهما فى دوائر متوازية فيكتب على أحد الوجهين ذكر الله ورسوله ، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة وتاريخ الضرب [٤] .

كانت بلاد العراق تمد حاجة الدولة العربية الاسلامية بحاجتها من العملة الاسلامية طوال العصر الأموى ، ضرب عدى بن أرطأة عامل عمر ابن عبد العزيز فى العراق عملة فكتب عليها « أمر عمر بالوفاء » فغضب عمر وأمره بكسرها وأن يكتب عليها « أمر الله بالوفاء والعدل » [٥] وقام عمر بن هبيرة والى يزيد بن عبد الملك على العراق بتجديد العملة [٦] فجعل

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١١ ص ٤٧ .

(٢) الدميرى : حياة الحيوان جـ ١ ص ٧٦ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٥ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٣ – ١٨٤ .

(٥) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٤٧ .

(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .

العملة من الفضة الخالصة ، واشتد على من يضربون السكة . أما خالد بن عبد الله القسرى ، والى هشام بن عبد الملك بالعراق . فقد اشتد فى تجويد العملة [١] ، وأمر هشام بألا تضرب العملة الاسلامية فى أى بلد سوى واسط ، وكان الدرهم الخالدى يزن سبعة دوانيق بينما الدرهم الهبيرى يزن ستة دوانيق [٢] . أما يوسف بن عمر والى العراق الأموى فقد أفرط فى التشديد والتجويد ، إذ شدد على الطباعين وأصحاب العيار ، وقطع الأيدى ، وانتزع الجلود [٣] فقد وجد مرة درهما ينقص حبة فضرب كل صائغ ألف سوط وكانوا مائة صائغ [٤] ولكن ابن عمر صغر السكة فجعل الدرهم يزن ستة دوانيق [٥] وكانت العملة الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بنى أمية ، وكان المنصور الخليفة العباسى لا يقبل فى الخراج غيرها [٦] وجرت العادة على أن تضرب الدراهم والدنانير فى عيد النيروز وهو أول أيام السنة الفارسية [٧] . وكان من مهام المحتسب التفتيش على الدراهم والدنانير تلافيا للتلاعب والتزوير [٨] .

* * *

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٤٤ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٤) المقريزى : كتاب النقود ص ٤٥ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٧٣ .
(٧) الجاحظ : التاج ص ١٤٦ .
(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ .

# الباب الرابع

## حضارة التربية والتعليم والثقافة والفنون



# ١ – التربية والتعليم فى الدولة العربية الاسلامية

## التربية والتعليم قبل الاسلام :

الانسان دائما ابن البيئة ، وقد تأثر العرب فى العصر الجاهلى بظروف الجزيرة العربية ، فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، واضطروا إلى الاشتغال بالرعى ، وتنازعوا على المراعى ، وجرهم التنازع إلى الغزو ، واضطرهم الغزو إلى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع إلى نجع ، ومن صقع إلى صقع ، ليلا ونهارا . وجوهم صاف ، فاهتدوا إلى السبل على النجوم واحتاجوا فى مطاردة أعدائهم إلى استنباط الأدلة للكشف على مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الأثر ، وأرادوا توقى المفاجآت الجوية ، فعنوا بالتنبؤ بسقوط الأمطار وهبوب الرياح . ودعاهم الغزو أيضا إلى العصبية وتأليف الأحزاب ، فاهتموا بالأنساب التى يترابطون بها . والارتحال فى الغزو ونحوه يقتضى العناية بالسلاح والخيل . وأقام العرب فى بادية صفا جوها ، فصفت أذهانهم وانصرفت قرائحهم إلى قرض الشعر ، يصفون به وقائعهم أو يبيتون به أنسابهم أو يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبدعوا فى إلقاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، أو يدعون إلى الحرب أو السلم ، أو للمفاخرة أو المنافرة [١] .

والعلوم التى كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام كانت ضرورية لهم وحتمتها ظروف البيئة ، والعرب إلى ذلك لم يتعلموا هذه العلوم فى المدارس ، ولا ألفوا فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ،

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ١١ .

إنما هى معلومات تجمعت فى ذاكرتهم بتوالى الأجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنوقلت فى الأعقاب .

وإذا أمعنا النظر فى مصادر العلوم العربية القديمة رأينا بعضها خاصا بالعرب ، نشأ عندهم ، والبعض الآخر صار اقتباسه من الأمم الأخرى فالعلوم العربية هى الأنساب والشعر والخطابة . أما العلوم المقتبسة فهى التنجيم والطب والأنواء والخيل ومهاب الرياح والكهنة والقيافة وغيرها .

ذكر الشهرستانى (١) أنه كان هناك قبل الإسلام أربعة أنواع من الدراسات العربية : علم الأنساب والتاريخ ، وتفسير الأحلام ، وعلم التنجيم ، وهذه هى حدود معارف العرب قبل الإسلام .

اهتم ملوك الحيرة والغساسنة بحروف الكتابة ، كما كانوا يهتمون بالدراسة ونظم الشعر ، وإن كانت جهودهم إلى الآن لم تلق من يهتم أو يشيد به . ويدين العرب للحيرة بمعرفة فنها فى الكتابة . ذلك الفن الذى انتقل من الحيرة والأنبار إلى الحجاز بعد قرن . بعد أن أنشأ الخليفة عمر مدينة الكوفة ، وأطلق اسم الكوفة على هذا الفن (٢) .

من المتفق عليه أن فن الكتابة وصل إلى الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام بوقت وجيز جدا . ورغم أن الدارسين استطاعوا أن يلموا بكثير من الأدب العربى القديم ، إلا أن أقدم جوانب هذا الأدب لا ترجع إلا للقرن السابق لظهور الاسلام .

وخلاصة القول ، أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا ينعمون بشىء مما يسمى تربية فى زماننا ، ولا تعليما فى عهدنا ، وأنهم كانوا قوما أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، عدا بعض أفراد منهم كانوا يسكنون المدن .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل .

(٢) انظر ترجمتنا لكتاب ( الحضارة الإسلامية ) تأليف ( خودابش ) ص ١٤٨ .

## التربية والتعليم فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين :

اهتم الاسلام بالعلم والدعوة إلى تحصيله . وحرص الرسول على أن يتعلم الصحابة القراءة والكتابة . فعرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يعلم عشرة من المسلمين ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله إلى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية ، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم .

ولم يختص الرسول الرجال بالعلم والتعليم ، بل إنه كان يحرص على أن يون حظ المرأة من ذلك موفورا . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وكان الرسول يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم ولم ينفرد الرسول وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس فى المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق إلى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم (١) .

لم تكن المدارس بالمعنى المعروف اليوم موجودة قبل الاسلام أو فى صدر الاسلام ، ويمكن اعتبار قيام أسرى بدر بتعليم المسلمين الأميين أول مدرسة فى العصر الاسلامى ، إن صح تسميتها مدرسة . وبطبيعة الحال فإن المقاييس التى نقيس بها ( الرجل المتعلم ) تختلف فى ذلك العهد عما هو عليه الآن . ففى كتاب ( الأغانى ) للأصفهانى ، أن المتعلم الكامل هو الشخص الذى يقرأ ويكتب ويسبح ويستعمل السلاح ، وأقحام السباحة هنا يدل على تأثير اليونانيين الذين كانت لهم مرافىء بحرية ، أو عرب جنوب الجزيرة العربية الذين برعوا فى ركوب البحر .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٩٥ .

ألقت أفكار الرسول وتعاليمه بذورها فى تربة خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا ، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة . وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب ، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روى عن النبى من كلام ووصايا ، والأمناء على تراث محمد الأدبى . ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الاسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوما طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين فى المجتمع الاسلامى (١) .

وما يلفت النظر فى دراسة تاريخ التربية والتعليم عند العرب فى صدر الإسلام أن الذين عنوا بشئون التربية لم يكونوا من رجال الحكم ، وإنما كانوا من أفراد الشعب الذين تطوعوا للتعليم والدرس ونشر المعارف . وفى المصادر التاريخية القديمة أن رسول الله ﷺ أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن معلما ومرشدا . وأرسل عمر بن الخطاب الصحابى عبد الله بن مسعود معلما ومرشدا إلى الكوفة .

وهناك ظاهرة أخرى هى علاقة النظام التربوى الذى قام به المسلمون الأفراد لا الحكومة ، بالدين وتأثير الدين عليه ، فقد دعا القرآن إلى طلب العلم ، وحض محمد المسلمين على العلم ولو كان فى الأماكن البعيدة القاصية ، ودونه المشاق والمتاعب ، ولتنفيذ هذه الرغبة التى أيدها القرآن ودعا إليها محمد ، نشأت مئات المدارس فى مختلف الأقطار الاسلامية القريبة والبعيدة . وفى ذلك يقول المؤرخ ( هل ) فى كتابه ( الحضارة العربية ) : « أما أن المسلمين قد أسسوا مدارس للتعليم العام فى بلاد العرب ، وفى البلاد المفتوحة فهذا شىء ثابت ، لا تستطيع الطيارات القديمة الأولى أن تباهى بشىء من مثله » . وكانت المدارس الابتدائية مقدمة للتعليم العالى الذى كان من مظاهره حرية الرأى والتفكير ، ونشر العلم والبحث عن الحقيقة .

---

(١) ارنولد :الدعوة إلى الإسلام ص ٤٣ – ٤٤ .

كانت أول بعثة علمية أرسلت من الحجاز إلى الشام فى إمارة يزيد ابن أبى سفيان ، فقد كتب يزيد إلى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد كثروا وملأوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، وطلب يزيد من عمر أن يبعث إليه برجال يعلمونهم ، فبعث عمر معاذا وعبادة وأبا الدرداء ، فرحل الأول والثانى إلى فلسطين ، ورحل الثالث إلى دمشق [١] .

تفرق العلماء من الصحابة فى الأمصار الاسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية ، والتف حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس ، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب ، بل كان بينهم كثير من الموالى .

كانت عناية المسلمين فى صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية ، وهى القرآن وتفسيره والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث [٢] .

## التربية والتعليم فى العصر الأموى :

بعد قيام الدولة الأموية اختفى اللون الدينى الذى كان سائدا فى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ، وظهر نوع من السياسة الدنيوية التحتية . ولكن ، مهما كان الرأى ، كانت سياسة الأمويين عالمية ، ومن الصعب على المؤرخ أن يجد بها أخطاء ، كما كان الأمويون ، بدون شك ، قادة للعلوم . وإن كان بعض الخلفاء الأمويين لم يهتموا بالتعليم وأساءوا أيضا إلى الاسلام ، مثل الوليد الثانى ويزيد الثالث ومروان الثانى ، ولكن لكى نصدر حكما صادقا على الدولة الأموية ، فلابد أن نستعرض جميع جوانب تاريخها . بل إننا نجد بين العباسيين خلفاء مثل المستنجد والمقتدر قد ألقوا ظلالا قاتمة على أمجاد

---

(١) كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٧ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٩٦ .

عهود المنصور وهارون والمأمون . ومهما كانت الاتهامات الموجهة للأمويين ، فيكفيهم فخرا أنهم احتضنوا العلوم الاسلامية وهى ما زالت فى مهدها (١) .

لم تكن التربية بمعناها المعروف الآن شائعة فى تلك الفترة من التاريخ الإسلامى ، كانت البادية أو صحراء الشام هى المدرسة التى يرسل إليها الأمراء الأمويون فى العهد الأول لتقوم ألسنتهم على العربية الخالصة وهم صغار ، ليتفقهوا فى الشعر . فإلى هذه البادية أرسل معاوية ابنه وولى عهده يزيد (٢) .

كان العامة يعتبرون الشخص متعلما إذا كان يحذق القراءة والكتابة ، ويعرف الرمى بالقوس والنشاب ، ويتقن السباحة ، ومثل هذا الشخص يطلق عليه عندهم لقب الكامل (٣) . أما المثل العليا للتربية الأخلاقية كما يتضح من كتب الأدب التى تعرضت للموضوع فكانت الشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروءة والكرم وحسن الضيافة واحترام النساء والوفاء بالعهود .

بعد عصر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان كانت وظيفته المؤدب والمعلم الخاص الذى كان فى الغالب من الموالى أو النصارى من الوظائف الهامة فى القصر الملكى . وقد تلقى مؤدب أبناء هذا الخليفة من أبيهم العبارة الآتية : « علمهم السباحة وعودهم النوم القليل » . وقد عاقب الخليفة عمر ابن عبد العزيز أطفاله عقابا شديدا لخطئهم فى النحو ، وكان الخليفة يميل إلى العقوبات البدنية ، ومن التعليمات الهامة التى وجهها إلى مؤدبى أولاده

---

(١) انظر ترجمتنا لكتاب ( الحضارة الإسلامية ) لخودابش ص ١٥٢ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٧ .

(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ٦ ص ١٦٥ .

قوله : ليكن أول درس تلقيه عليهم هو تبغيضهم إلى الملاهى لأنها تبدأ من الشيطان وتنتهى بغضب الله [١] .

كان المسجد هو المدرسة الأولى فى الإسلام ، كما كان المكان الأول للجماعة الاسلامية . ولما كان المسجد للصلاة ، وكان طلب العلم من جملة الواجبات المفروضة على المسلم كالصلاة مثلا ، فقد فتحت المساجد أبوابها للدرس والتعليم . فكان الداخل إلى المسجد يرى فى طرف المسجد جماعة يصلون ، وآخرون يقرأون القرآن ، وفى ركن آخر جماعة من العلماء والأدباء يفسرون قصيدة من قصائد الشعر المعاصر أو الشعر الجاهلى ، كما نجد فى ركن ثالث عالما جلس حوله تلاميذه وهو يشرح لهم بعض أصول الحديث ، أو يفسر لهم آيات القرآن الكريم .

كانت عامة الناس الذين يرغبون فى تعليم أولادهم يبعثون بهم إلى المساجد حيث كانت تعقد حلقات لدراسة القرآن والحديث . وعلى ذلك فأقدم المعلمين فى الإسلام هم ( القراء ) . وكان الخليفة عمر بن الخطاب يبعث بأمثال أولئك المعلمين إلى مختلف الجهات ويأمر الناس أن يقابلوهم فى أيام الجمع فى المساجد . وقد أرسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى مصر يزيد بن أبى حبيب ليكون كبير القضاة بها . ويروى عنه أنه كان أول مدرس اشتهر هناك . وتقرأ عن رجل فى الكوفة يسمى الضحاك بن مزاحم كان يقوم على مدرسة أولية ( كتاب ) ولا يتعاطى من التلاميذ أجورا عن تعليمهم . ونسمع فى القرن الثانى الهجرى عن رجل من أهل البادية كان يقيم فى البصرة ويدير مدرسة ويتقاضى من طلابها أجورا [٢] .

كان التدريس فى المساجد يتم على نظام حلقات يجلس فيها الناس على

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٥٧ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٨ .

الأرض فى ركن من أركان المسجد ، ويأخذ الأستاذ مكانه فى أول الحلقة ، ويجلس المستمعون والتلاميذ حوله ، ولما كانت اللغة العربية هى لغة التدريس ، فقد كان كل قادم من أقصى البلاد العربية إلى المسجد يستطيع تفهم هذه المحاضرات والدروس ، وكان هؤلاء المسافرون يحملون معهم عند عودتهم إلى بلادهم البعيدة خلاصة المحاضرات التى سمعوها ، والدرس التى حضروها ، فكانوا كالصحف والمجلات والكتب السيارة اليوم تنقل المعرفة من مكان إلى آخر . وكانت العادة المتبعة ، ليكون المرء عالما بالفرع الذى يريد التخصص فيه أن يستمع إلى محاضرات العالم الثقة فى الفرع المذكور ، ومتى أحسن الاستماع ، ونجح فى الامتحان أمام أستاذه ، أجازه هذا أو سمح له بتعليم الفرع الذى درسه وأتقنه .

اهتم العرب بطلب العلم ، وكان من بينهم من يترك بلاده وأسرته لطلب العلم ، أو الاستماع إلى عالم كبير ذاع صيته ، فيرحلون عدة شهور ، وقد يتحملون المشاق فى سبيل الحصول على حديث نبوى واحد . وكان الشعراء والأدباء الذين كانوا يرغبون فى الحصول على أكبر قسط من الفصاحة العربية ، كانوا يذهبون إلى البادية طلبا للبيان والبلاغة . وكان العلماء الذين يبذلون جهدهم فى التعليم فى المساجد يقدمون علمهم بالمجان فلا يطلبون من تلاميذهم جزاء ولا شكورا . وكان الأمر كذلك فى البادية . فإن التعليم فيها أو طلب الفصاحة والبلاغة فيها لم يكن يكلف صاحبها مالا ، وإن كان يكلفهم شيئا من العناء والمشاق [١] .

وفى العصر الأموى ، ظهر المؤدب الخاص فى البيوت وكانت الأسر الغنية تكلف أحد الأساتذة بتأديب أولادها فى غرفة من غرف البيت مقابل أجر معين فى الشهر ، وكان على هذا الأستاذ أن يعلم الأطفال القراءة والكتابة

---

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الأموية ص ٣٤٥ .

والقرآن والشعر والأدب . واشتهر هؤلاء الأساتذة ، أو المؤدبون ، بسمو أخلاقهم وغزير علمهم وشدة ورعهم . فكانوا يحرصون – كما تخبرنا المصادر القديمة – بأن ينشئوا فى طلابهم خصالا جيدة ، فيطلبون إليهم الاعتماد على النفس والابتعاد عن الملاهى والمعازف والغناء ومراعاة سنن الاقتصاد ونبذ الصلف والعجب بالنفس ، ومؤازرة الغير ومساعدتهم . وكان هؤلاء الأساتذة يهتمون بالرياضة فيشجعون تلاميذهم على النزول فى ميادين السباق والفروسية ويمرنونهم على الصيد والقنص والمصارعة .

قال عتبة بن أبى سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده : « ... وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم أروهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ... وجنبهم محادثة النساء ، ورِوهم سيرة الحكماء ... » . وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : « علم ولدى السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ساكنى الأمصار : أما بعد ؛ فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، وروهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » [١] . وأرسل الأمويون المعلمين قبائل البدو الرحل ليعلموهم أمور دينهم وشيئا من القرآن والكتابة ومبادىء الحساب .

أما البنات فكن يتعلمن القرآن ويحفظن الشعر فقد كانت مولاة لبنى الحجاج تحفظ شعرا وترويه وتنشده فتيات بنى الحجاج [٢] وكان صغار البنات يحضرن الدروس فى المدارس الابتدائية بجانب الأطفال الذكور ، ولكن التعليم كان محدودا ، فكان الأستاذ يعلم تلاميذه وتلميذاته القرآن وأصول الدين ، بعد تعليمهم القراءة والكتابة ، إلى جانب بعض الصرف والنحو .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٢ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٢ .

ولكن بعض المحافظين كانوا يتجنبون تعليم بناتهم اللهم إلا ما يتعلق دينهم حتى قيل : « لا تعلموا بناتكم الكتابة ولا ترووهن الشعر وعلموهن القرآن ، ومن القرآن سورة النور » [1] .

* * *

(١) القالى : الأمالى جـ ٢ ص ٩٢ .

## ٢ – الثقافة العربية الاسلامية

### الثقافة الاسلامية :

عندما ظهر الإسلام ، كان من أهم ما دعا إليه القرآن طلب العلم والعمل على تحصيله ، وحث الحديث على طلب العلم ولو كان فى الصين . كما استعان رسول الله بأسرى حرب بدر على تعليم المسلمين إذا شاءوا افتداء أنفسهم ، كما حرص رسول الله على أن يكون حظ المرأة مثل حظ الرجل فى العلم . فحث الرجل على تعليم أهلهم وذويهم ، كما حث على تعليم العبيد من النساء ثم اعتاقهن والتزوج بهن . وإذا كان هذا حظ الأمة فما بالك بالحرة المفروض فى وليها أن يعلمها ويؤدبها على الوجه الأكمل .

ويعتبر الفقهاء أن من أول حقوق الأمة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله . ومخالطة العلماء الأعلام الفصحاء لدين الإسلام ، ومشاورتهم فى موارد الأحكام ومصادر النقض والإرام »[(١)] .

استفاد كثيرون من الصحابة من صحبتهم للرسول ، فنبغ على بن أبى طالب فى القضاء ، ونبغ معاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وزيد ابن ثابت فى تقسيم المواريث والأنصبة فى الغنائم وما إليها ، وأبى بن كعب فى قراءة القرآن . ولما بدأت الفتوح تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة فى الأمصار الاسلامية الجديدة فنزل بعضهم البصرة ، وبعضهم الكوفة . وبعضهم ظل فى المدينة . وآخرون ذهبوا إلى الشام ، فأحدثوا فى كل هذه البلاد حركة علمية قوية ، والتف حولهم التلاميذ يأخذون عنهم العلم ،

---

(١) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام فى تبرير أهل الإسلام المنشور فى المجلد الرابع لسنة ١٩٣٤ من مجلة الإسلام الألمانية ص ٦١ .

وينشرونه بين الناس . ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بعضهم من الموالى ، ولذلك كانوا بحاجة إلى تعلم العربية ، لغة القرآن والحديث ، ومن هنا نشأت بعض الدراسات اللغوية كالنحو والصرف .

كانت عناية الجميع فى أول الأمر مقصورة على العلوم الدينية ، وما يتعلق بالقرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل خلقها تبدل الأيام وتقدم الفتوح . ولذلك كان أول ما انتشر من العلوم فى عهد الأمويين مرتبطا بالدين ودراسة الدين ، مع بعض العناية بالترجمة والعلوم الفلسفية الأخرى .

ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ويطلق عليها أحيانا علوم العجم أو العلوم القديمة أو علوم الأوائل .

وتشمل العلوم النقلية : علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث والفقه ، والنحو واللغة ، والأدب . بينما تشمل العلوم العقلية : الفلسفة والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ والجغرافية [١] .

يقسم ( جورجى زيدان ) [٢] العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى صدر الإسلام إلى ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التى اقتضاها الاسلام ، وهى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ، ويمكن تسميتها بالعلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٩٦ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٤٢ .

(٢) العلوم التى كانت فى الجاهلية وارتقت فى الإسلام ، وهى الشعر والخطابة ، ويمكن تسميتها بالآداب الجاهلية أو الآداب العربية .

(٣) العلوم التى نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضة ويمكن تسميتها بالعلوم الدخيلة أو الأجنبية .

ولكننا نفضل أن نقسم الدراسات التى اهتم بها العرب المسلمون فى الدولة العربية الاسلامية إلى ثلاث مجموعات : الدراسات الدينية ، والدراسات الأدبية ، والدراسات العلمية ، وقبل أن نتحدث عن هذه الدراسات المختلفة علينا أن نتناول دراسة بعض الموضوعات التى تنير أمامنا الطريق .

## العرب والثقافات الأجنبية :

كان ظهور الاسلام فى قلب الجزيرة العربية دافعا إلى ازدهار الثقافة وترعرعها فيما بعد ، حتى إذا فتح العرب المسلمون كثيرا من الأمصار التى كانت خاضعة للفرس والروم ، مثل الشام ومصر وأفريقية والعراق والفارس ، وهى الأمصار التى تألفت منها الدولة العربية الاسلامية ، بدأ العرب يغترفون من ثقافات هذه البلاد وشعوبها ، وتمثلوها ، وأنشأوا من ذلك كله ثقافة خاصة بهم . وكانت ثقافة هذه البلاد ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، ويرى ( هل ) [1] أنه يمكن أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هيلينية مسيحية .

يرى (هل) أيضا أن تمثل المسلمين لهذه الثقافات يعتبر أمرا هاما

---

(١) الحضارة العربية ص ٥٨ .

للاسلام وللهيلينية كذلك ، إذ بعثت الثقافة الهيلينية وانتعشت بسبب تغير الظروف المحيطة بها ، ولاتصالها بالعرب واحتكاكها ثقافيا مع ديانة أخرى ، تتشابه معها فى التفكير والميول وبينما كان ذلك هو التأثير الذى أصاب الهيلينية ، فإن العرب من ناحية أخرى تأثروا بثقافة الأجناس التابعة لهم . فإذا كان العرب قد زودوا الهيلينية بلغتهم وهيأوا لها فرصا للانتشار الواسع ، فإن الهيلينية ردت ذلك الدين للعرب بمنحهم ثروتها العلمية والفنية .

وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهيلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل ، كما هو طبيعى ، الفن الهيلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جليا التفاعل والتجاوب بين الاسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الاسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهدت بدائع الصناعات كالنسيج والصياغة ، فأيقظ ذلك كله فى نفوس العرب الرغبة فى تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية ، تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الغنية ، وأضفوا عليها طابعهم الخاص .

قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية ، وخاصة مذهب الأفلاطونية الحديثة — فى العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية ، وهى إحدى اللغات الآرامية انتشرت فيما بين الصين والبلاد المجاورة لها ، وكان من أهم مراكزها الرها ونصيبين ، وفوق هذا كانت هى لغة الأدب والعلم لجميع كتاب النصرانية فى أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس . وأنشئت فى هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلم فيها اللغة السريانية واليونانية جميعا فى الرها وفى نصيبين وفى جنديسابور . وكانت مدينة حران ( فى جنوبى الرها ) مركزا للثقافة اليونانية

إلى ما بعد الاسلام ، فكانوا بعد الفتح الاسلامى يدرسون الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطونى [1] .

حفظت اللغة السريانية بعض الكتاب اليونانية التى فقد أصلها ، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هى الأساس الذى اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم . وقد كانت الترجمة السريانية فى عهدها الأول ترجمة حرفية تقريبا ، ثم تحرر الكتاب المتأخرون من حرفية الترجمة .

ولما فتح المسلمون هذه البلاد فى القرن السابع الميلادى أسلم بعض السريانيين ، وظل بعضهم محافظا على دينه يدفع الجزية ، ولكن الآداب السريانية على الجملة أخذت فى الضعف . ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم فى العصر الأموى والعباسى ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة فى عهد الدولة الأموية كما كانت . ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون فى شئونهم إلا عندما يحتدم النزاع الدينى بينهم فلجأ بعضهم إلى الولاة يستنصرهم . واشتهر من هؤلاء فى العصر الأموى يعقوب الرهاوى ، وقد ترجم كثيرا من كتاب الالهيات اليونانية ، وليعقوب هذا أثر كبير الدلالة ، فقد أثر عنه أنه أفتى رجال الدين من النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقى ، وهذه الفتوى تدل من غير شك على إقبال بعض المسلمين فى ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم ، وتردد النصارى أولا فى تعليمهم .

انتقلت الدراسات اليونانية إلى الحقل العربى عن طريق ثلاثة منابع . فمنذ أيام الاسكندرية ، خضعت الأرض الواقعة بين الفرات ودجلة تحت نفوذ الثقافة الهيلينية . وفى الوقت الذى تناهت فيه أنباء موت ( كراسوس ) إلى أسماع بلاط الملك الفارسى ( أورديس ) كان هذا الملك يشاهد إحدى التراجيديات التى ألفها ( أيور يبيدس ) . وفى سنة ٥ م سمعنا عن كسرى

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٣٠ .

خسرو أنو شروان أنه أسس أكاديمية فى ( جنديا سابور ) فى خوزستان ورغم سقوط الدولة الفارسية ، فقد استمرت الأكاديمية فى نشاطها طوال ثلاثة قرون انقطعت على نهاية الساسانيين . وكان يدرس فى هذه الأكاديمية الفلسفة الاغريقية والطب .

وإلى جانب أكاديمية جنديا سابور ، نجد السوريان فى الجزيرة ينقلون إلى العرب فلسفة وطب الاغريق . وقد تركت الفلسفة الاغريقية جذورها بينهم حتى إن اعتناقهم المسيحية لم يؤثر فيها إلا تأثيرا محدودا . وقدرتهم على التحصيل معروفة لكل دارس للتاريخ البيزنطى . فقد درسوا إنتاج العلماء الرومان والبيزنطيين واستفادوا من مؤلفات أرسطو والأطباء الأغريق ، وعلماء الطبيعة والرياضة . وفى البلاد الواقعة بين أنطاكية والموصل ، قام السوريان بترجمة الكتب الاغريقية إلى لغتهم . ويقول ( موللر ) إن من يجيد اللغتين يجد أنه من المستحيل أن يفرق بين الأصل والترجمة السوريانية [١] .

كان سكان حران – وقد انفردوا من بين أهل سوريا بالاحتفاظ بعقيدتهم – هم المنبع الرئيسى الذى استمد منه العرب معلوماتهم عن الثقافة والحضارة الاغريقية . وقد تفوقوا على الآخرين بمعرفتهم اللغة العربية ، ولذا كانت ترجمتهم أكثر دقة . وهكذا كانت أكاديمية جنديا سابور ، ورهبان الجزيرة ، وأهالى حران ، المصدر الذى استمد منه العرب معرفتهم بالعلوم الأغريقية .

ولكن العرب كانوا أكثر تأثرا بالثقافة الفارسية منه بالثقافة اليونانية فقد ذابت دولة الفرس فى الدولة الاسلامية وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير ، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئا من ثقافتهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب ، ولم

---

(١) انظر ترجمتنا لكتاب ( الحضارة الإسلامية ) لخودابخش ص ١٥٧ .

تكن تحت أعينهم لينظروها : آلهة تخالف كل المخالفة تعاليم دينهم ، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها ، وأنواع من اللهو لم يألفوها . والثقافة هى صورة تنعكس فيها الحياة الاجتماعية ، فكان لزاما ألا يتذوق العرب الثقافة اليونانية وخاصة الأدب اليونانى ويتأثروا به فمن العسير أن نعثر على معان يونانية فى الشعر العربى ، أو على شاعر أصله يونانى أو رومانى ، بينما وجدنا كثيرا من الشعراء من أصل فارسى أصبحوا شعراء فى العربية ، ونجد مؤرخى المسلمين فى ذلك العهد تأثروا فى طريقة تدوين الحوادث بالنمط الفارسى لا بالنمط اليونانى (١) .

وخلاصة القول ، كانت الثقافة العربية الاسلامية الجديدة مزيجا من عقلية عربية لها طبيعة خاصة هى نتاج بيئتها ، وحياة اجتماعية خاصة يعيشها العرب فى جاهليتهم . ودين إسلامى أتى بتعاليم جديدة ، ورسم للحياة مثلا أعلى يخالف المثل الذى كانت ترسمه تقاليد الجاهلية ، وفتح إسلامى مد سلطانه على فارس وما حولها ، وعلى مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم ، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم ، فى الدولة العربية الاسلامية جميعها ، وكون منها مزيجا واحدا مختلف العناصر .

## مراكز الثقافة فى الدولة العربية الاسلامية :

كانت البصرة والكوفة فى العراق ، ثم دمشق عاصمة الدولة الأموية بالشام ، أبرز مراكز الثقافة فى صدر الاسلام ، ثم يأتى دور المدينة ومكة بالحجاز ، ثم إنشاء الكوفة والبصرة فى خلافة عمر بن الخطاب ليكونا معسكرين للجنود العربية ، فنشأت الكوفة قرب مواطن الحضارة البابليونية القديمة ، وكأنها قامت مقام الحيرة عاصمة اللحمينين ، وأصبحت مركزا

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٣٩ .

حضاريا عظيما ، وبلغ سكانها بعد إنشائها بقليل أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة . أما البصرة فقد أصبحت سنة ٥٠ هـ تضم أكثر من ربع مليون نسمة ، وكان منها ما يزيد على ١٢٠ ألف فتاة .

كان بالعراق مراكز عقلية أكثر مما كان فى الشام ، وأهم هذه المراكز الكوفة والبصرة [١] ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى مدينة تستطيع منافستهما ، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين [٢] . ولعل من الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحياة العلمية والأدبية فى العراق فى العصر الأموى أن أهل العراق رأوا أن ينصرفوا عن السياسة حتى لا يتعرضوا لاضطهاد ولاتهم الأمويين ، فوجهوا اهتمامهم إلى الاشتغال بالعلوم والآداب . كما أن الموالى أرادوا أن يصلوا إلى مرتبة العرب فأقبلوا على تعلم اللغة العربية حتى إذا أجادوها بدأوا ينهلون من مناهل الأدب والعلم [٣] .

كانت مدن العراق تختلف تمام الاختلاف عن مدن العرب التجارية القديمة ، والتى لم تتأثر إلا قليلا بتغير الظروف ، إذ ترتب على حملات الفتوح هناك ظهور عالم جديد ، حيث أثر احتكاك العرب بالشعب الفارسى الموهوب مشاعر العرب ، وخلق منهم ، إذا صح القول ، جنسا جديدا له مميزاته الخاصة ، ثم إن التطور السريع الذى أصاب هاتين المدينتين وتمثلهما للمؤثرات الفارسية أدى إلى قيام حركة ثقافية حية ، وغدا البصريون والكوفيون أوفر المسلمين نشاطا ذهنيا . وكذلك أدى مركز البصرة والكوفة والجغرافى والثقافى ، وتوسطه بين المدينة ودمشق ، إلى إيقاظ الشعور بالشخصية بين أهليهما ، واستمساكهما بالاستقلال [٤] .

---

(١) Nichoison : Lit. Hist, P. 220.

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٠ .

(٣) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٢٩ .

(٤) هل : الحضارة العربية ص ٦٩ .

وإذا كان أهل البصرة والكوفة قد استمسكوا فى الميدان السياسى بحرية إبداء آرائهم ، فإنهم تعلقوا كذلك بالاستقلال فى ميدان الثقافة والعلم ، ومن ثم بدأ هناك قبل أى مكان آخر الاهتمام بدراسة اللغة دراسة علمية . وكان الدافع على ذلك النشاط اللغوى والفقهى الاتصال بين الفرس والعرب ، والاختلاف من ناحية أخرى بين لغة القرآن واللغة الدارجة . ولا يمكن أن نعرف على وجه التحقيق أولئك الذين بدأوا بدراسة فقه اللغة العربية ، ومن المحتمل أن الأجانب والفرس بصفة خاصة قاموا بوضع الأساس فى هذه الدراسات ، ولكن يجب أن نلاحظ على أية حال ، أن ذلك ما كان يتم لهم دون معونة صادقة من العرب .

ويستلفت نظرنا فى البصرة كذلك ، أوائل القرن الثانى الهجرى ، ظهور ناحية أخرى من النشاط العقلى ، فكانت تعقد جلسات تنظر فيها وتناقش المسائل السياسية والعربية الجارية ، فتجادلوا فى الإسلام والبوذية وفى مسألة القضاء والقدر ، ووضع واصل بن عطاء أسس مدرسة عقلية .

وفى البصرة والكوفة . بدأت الدراسة العلمية للغة العربية وقواعدها لمصلحة من اعتنق الاسلام من الأجانب . وكان الباعث الأول على هذه الدراسات هو الرغبة فى تزويد المسلمين الجدد باللغة التى يحتاجون إليها فى دراسة القرآن والوصول إلى مناصب الحكومة والتفاهم مع الغزاة كذلك كان من البواعث على القيام والاهتمام بهذه الدراسات ما وجد من الهوة الواسعة التى كانت تزداد اتساعا يوما بعد يوم فتفصل ما بين لغة القرآن الفصيحة ولغة الكلام اليومية التى كانت تخالطها السريانية والفارسية وغيرها من اللغات واللهجات [١] .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠١ .

وفى الوقت التى ظلت فيه العادات القديمة والنظرة العربية للحياة جامدة فى مكة ، كانت الحياة فى المدن الجديدة بالعراق ونواحى النشاط فيها تعطى العروبة هناك طابعا جديدا ، إذ بدأ أن جنسا جديدا ولد ، جنسا أبيا صريحاً بعيد النظر ، وشديد المرح بالعرب القدامى من أهل الحجاز . ولكن يفوقهم أيضا فى مزاجه وطابعه العلمى . فطرح سكان البصرة والكوفة روح أجدادهم المحافظة ، تلك الروح التى كانت حتى ذلك الوقت مقاييس الجودة التى لا يمكن مهاجمتها ، واتجهوا نحن الأخذ بأسباب التقدم ومن ثم اجتمعت مميزات مكة وفضائل مدائن بلاد الرافدين فى عاصمة الأمويين ، التى جاء إليها عناصر جديدة كذلك زادتها شأنا وامتيازا (١) .

وفى الشام ، كان السكان الأصليون يتحدثون اللغة الآرامية ، وكانت العربية والآرامية لغتين من أسرة واحدة يجمع بينهما ماض بعيد وأصول عتيقة لكن الزمن غطى هذه الأصول الجامعة بطبقة كثيفة من الفروق ولذلك لم تلتق اللغتان لقاء اجتماع . وإنما التقتا لقاء صراع ، وكان طبيعيا أن ينتهى الصراع بتغلب العربية ، فقد كانت لغة الدين ولغة الدولة معا .

تمثلت الصلات اللغوية من بلاد العرب وبلاد الشام فى وحدة اللغة العربية بين عرب الجزيرة وعرب الشام مرة ، وفى قرابتها من الآرامية مرة أخرى . أما اللغة اليونانية فلم تستطع البقاء ولم يكن لها من قبل الفتح إذ لم تعد تصلح أن تكون لغة الدواوين ، أو لغة المترفين ( المتهلينين ) ، ولابتعاد اللغة اليونانية كان يضع حدا لأطراف الخصومة وكان تقصيرا لأمد الصراع اللغوى وطيا لكثير من وجوهه التى تبدو فى اللغات المتخالفة . ووحدة لغة القبائل العربية مع لغة المهاجرين المسلمين كان تتويجا لذلك وتمكينا لعملية التعريب أن تسرع خطاها وتبلغ مداها وتحقق غاياتها (٢) .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٦٩ .

(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٦٩ .

تمتعت دمشق وحدها ، دون المدن الأخرى التى أصبحت مركزا ثقافيا ، بالعظمة التى اكتسبتها من وجود مقر الحكومة فيها ، أما حكام العراق ومصر فكان عليهم أن يقيموا فى المعسكرات التى أنشئت حديثا إذ ذاك ، برغم ميلهم إلى سكنى المدن القديمة . وإذا كانوا قد أخذوا الشىء الكثير من الوسط الذى أقاموا فيه ، فإنهم برغم ذلك بدأوا كل شىء من جديد أما فى دمشق ، فقد احتك العرب الساميون بحضارة من نوع حضارتهم وهى الآرامية . ثم إنه وافق مزاجهم تلك المدينة الزاهرة ، القائمة على حافة الصحراء ، بجداولها وخرير مياهها وأماكنها الظليلة ، ولذا كثر عدد العرب الذين نزلوا بها فى سرعة عجيبة ، ولذا وصلوا فى سنة ٧١٠ م مائة وعشرون ألفا . ولم يجد الأمويون الذين فطرت نفوسهم على حب السيادة ، والميل إلى الاستمتاع والمرح أكثر ملائمة لمزاجهم من دمشق ، إذ أمدتها بيزنطة بالكماليات . ومكة بالموسيقيين ، والبصرة والكوفة بثمار الفكر (١) .

اجتذبت المدينة — بحياتها الهادئة وما أحاطها به المجتمع الاسلامى الأول من وقار — جمهور العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة ماضيها المقدس وجمع الأنظمة القانونية والدينية . ولما كانت المدينة تضم جثمان الرسول فإنها أصبحت مركزا لدراسة الحديث الاسلامى الذى تحول إلى علم فى الطبقة الأولى من الرقى بفضل أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

أما مدرسة مكة فترجع شهرتها إلى عبد الله بن العباس الملقب بأبى العباس ، وهو ابن عم النبى وجد الخلفاء العباسيين ، ولقد كان رجلا واسع الشهرة محبوبا لعلمه العميق بالحديث والفقه ولمهارته فى تفسير القرآن ، وهى أمور حملت الناس على أن يلقبوه بلقب يحسد عليه هو « حبر الأمة » .

ظهر فى المدينة أولى مدارس التشريع الاسلامى البحت ، إذ عاش هناك

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٧٠ .

الصحابة الذين اكتنزوا كل كلمة بدرت من الرسول ، وتناقلوها بعناية لا يشوبها الشك . وكان كل حديث من تلك الأحاديث كنز لا يقدر بثمن ، توارثته الأجيال خالفا عن سالف مع أسماء الرواة . وغدت تلك الأحاديث إلى جانب القرآن المنابع الأصلية للتشريع الاسلامى . وقد اختلطت الأحاديث الصحيحة أثناء تواترها على ألسنة الرواة مع أحاديث مكذوبة كثيرة .

ويعتبر ابن مسعود وابن عباس مؤسسى مدرسة المدينة . أما ابن مسعود فكان خبيرا بحياة النبى وآرائه ، على حين كان ابن عباس خبيرا بميدان الآثار ، أى الأحكام الفقهية للخلفاء الثلاثة الأول ، وذلك مع تفقه كل منهما فى القرآن . ويعد ابن مسعود كذلك واضع علم تفسير القرآن ، حيث ارتبط التشريع والفقه فى أول أمرهما أحدهما مع الآخر أشد الارتباط . فكان القرآن مصدر كل تشريع وأحكام ، وأصبح أول شىء يحتاج إليه القاضى وطالب الدين كذلك هو معرفة نص القرآن وتفهمه بصفة عامة حتى غدا العالم بالقرآن فى ذلك العصر فقيها ومشرعا فى نفس الوقت . ولذا كان مشرعو المدينة ، وهم من تلامذة مدرسة ابن عباس وابن مسعود يعدون فى الحقيقة فقهاء كذلك [١] .

## المساجد كمراكز ثقافية :

كان المسلمون يحرصون على بناء مسجد جامع عند إنشائهم المدن لأنه مظهر من مظاهر سيادة الدين الاسلامى فى الأمصار المفتوحة ، وكانت المساجد التى شيدت فى بداية الفتح العربى . ويعلل ديمومبين [٢] ذلك بأن الفاتحين من المؤمنين كانوا شديدى الإعجاب بفخامة الكنائس المسيحية ،

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ٥٦ .

(٢) النظم الإسلامية ص ٢٦٣ .

فأرادوا أن يظهروا قدرتهم على أن فى إمكانهم أن يضارعوا النصرانية ويبنوا مساجد لا تقل جمالا عن كنائسهم .

كانت المساجد فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين مركزا من مراكز الحياة العامة ، يجتمع فيه الناس وتذاع منه قرارات الدولة ، وفيه تدرس العلوم والآداب والفقه . واتخذ الخلفاء الراشدون من المساجد أماكن مختارة يحفظون فيها أموال المسلمين (١) . ثم أصبحت المساجد فى عهد الدولة الأموية هى كل شيء بالنسبة للخلفاء والولاة وعامة الناس .

كان المسجد منتدى المسلمين ، ويمكن تشبيهه بالبرلمان المعاصر ، ففيه كان مقام الخلفاء الأوائل ، وفيه كان يجتمع كبار الصحابة حول الخليفة ، وفيه كانت تقرر كل شئون الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين ، فلم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب ، وإنما كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية للدولة العربية الاسلامية ، ففى المسجد كان يجتمع الرسول إلى أصحابه ، ويقرر الغزوات ، ويبعث السفراء ، وفى المسجد كان يخطب الناس مختلف الخطب السياسية والدينية والاجتماعية . وفى المسجد استقبل محمد عليه الصلاة والسلام وفود القبائل التى جاءت إلى المدينة ، وسفراء الدول .

وفى المسجد شرح أبو بكر الصديق سياسته العامة ، وفى المسجد كان المسلمون يبايعون الخليفة بالخلافة . ومن فوق منبر المدينة أعلن عمر بن الخطاب أخبار الفتوحات الاسلامية . وفى المسجد قام عثمان بن عفان يدافع عن سياسته . وكان على كل أمير أن يقصد مسجد المصر الذى يعهد إليه الخليفة بحكمه ، وهناك يعلن سياسته الجديدة على الناس من منبرها ، وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدى يصبح أميرا لهذا المصر ووكيلا للخليفة بصورة رسمية شرعية . وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس فى

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٦ .

المساجد [١] . وكثيرا ما كان الولاة الأمويون يبعثون مناديهم لينادوا فى طرق البصرة والكوفة يدعون أهلها إلى صلاة جامعة ولا يكون اليوم يوم جمعة ، ومعنى ذلك أن الوالى يريد الصلاة فى المسجد ويريد أن يحضر اجتماعه كل المسلمين حتى يبلغهم أمرا أو يشرح سياسة جديدة ، وكان بعض الولاة يأمرون الشرطة بإحضار الناس إلى المسجد بالقوة ، وكان منادى زياد بن أبية والى الكوفة فى عصر معاوية ينادى فى طرقاتها : « ألا برئت الذمة من رجل من الوفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد » [٢] .

كما كان المسجد فى الدولة العربية الاسلامية مركزا للثقافات الإسلامية ففيه كان يجتمع العلماء ، وفيه درست علوم الحديث والتفسير والفقه والأدب وغيرها ، وفيه كان يجتمع علماء تخصصوا فى مختلف العلوم والآداب للدرس والمناقشة والتعليم ، وفى المسجد كان يجلس القضاة لعقد جلساتهم وإصدار أحكامهم ، وفى المسجد كانت توجد مختلف الكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وبذلك يكون المسجد دارا عامة للمسلمين ، ومركزا علميا ودينيا للطلاب .

كانت مساجد العراق فى الدولة العربية الاسلامية أكثر مساجد الأمصار اهتماما بالثقافة ، فشهدت مساجد العراق الكثير من مظاهر هذه النهضة العلمية والأدبية ، وكان لكراهية أهل العراق للغناء والموسيقى وتحريم بعض الولاة للغناء أثره فى نشاط المجالس الأدبية فى المساجد [٣] كذلك كانت المساجد بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم ، وكان الكميت الشاعر من أبرز معلمى العراق فكان يجلس فى مسجد الكوفة لتعليم الصبيان [٤] .

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٦ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٥٣ .
(٣) انظر كتابنا : ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٣٢٩ .
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٤ ص ٨٥ .

ومن أشهر فقهاء العراق الحسن البصرى والشعبى . وكان الحسن البصرى من موالى الأنصار ويلقب بإمام البصرة ، وكان درسه مقصدا لكل طالب معرفة سواء أكانت فقها أو أدبا أو حديثا أو تفسيرا ، وفى هذه الدروس كانت تذكر الآراء الجديدة تمحص ويعرف مدى صحتها . أما الشعبى فكان فقيها كبيرا وراوية للتاريخ الاسلامى ، وقد اعتمد الطبرى على رواياته فى تاريخه . وكثيرا ما شهدت مساجد البصرة المجالس الأدبية التى كان يعقدها الشعبى والأحنف بن قيس ، وتدور فيها محاورات أدبية حول التفضيل بين البصرة والكوفة [١] كما شهدت المساجد كثيرا من المحاورات والمناقشات التى تدور حول العصبية القبلية وتفضيل قبيلة على أخرى وخاصة بين تميم وقيس .

اتخذ القصاص من المساجد فى سائر الأمصار مكانا مختارا لقص قصصهم . فيجلس القاص بالمسجد ويلتف حوله الناس ، فيروى لهم القصاص التواريخ التى تمتزج فيها العبرة بالتسلية . وقد اعتمد معاوية بن أبى سفيان على القصص فى تأييد ملكه ودولته . وأشهر من قام بالقصص فى العراق الحسن البصرى ، وكان يجلس فى آخر مسجد البصرة وحوله الناس يسألونه فى الفقه وفى حوادث الفتن التى عاصرها فيحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم [٢] ومن أبرز قصاص العراق أيضا صالح بن مسرح الزعيم الخارجى ، وكانت كل قصصه تدور حول الأمر بالتقوى والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، وكان يكثر من ذكر الموت [٣] وكانت الكوفة منبعا لعلم الأنساب ، فكثر فيه النسابون الذين اتصلوا بالقبائل وأخذوا يحدثونهم عن أخبار أسلافهم فى الجاهلية .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٥ ص ١٤٩ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٩٢ .

(٣) الطبرى جـ ٧ ص ٢١٧ – ٢١٨ .

كما كانت المساجد مسرحا لإنشاد الشعر ، فكان الشعراء يلقون قصائدهم من فوق منابرها ، فكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يأمر الشاعر الأخطل بمدحه من فوق المنابر فى الشام والعراق كنوع من الدعاية السياسية [1] . وشهدت المساجد الكثير من المفاخرات القبلية والحزبية ، فقد تنازع العامة حول التفضيل بين جرير والفرزدق ، ثم اتفقوا أخيرا على أن جريرا شاعر العامة ، والفرزدق شاعر العلماء [2] وكان الكميت والطرماح يتبادلان الشعر فى مسجد الكوفة ، فكان الكميت نزارى شيعى يتعصب لمضر ( العدنانية ) بينما كان الطرماح شامى قحطانى يتعصب للقحطانية ( اليمنية ) ، فتعصب الكميت لأهل الكوفة ، وتعصب الطرماح لأهل الشام .

* * *

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٢٩ - ٣٠ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٥ ص ١٠٩ .

## ٣ – الدراسات الدينية والعقلية والأدبية والعلمية

### الدراسات الدينية :

كان القرآن الكريم هو محور الدراسات الدينية خاصة ، والدراسات الاسلامية المنوعة عامة ، فى صدر الاسلام ، حينما نزل القرآن الكريم بغت العرب لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم ، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ، ولا نظم الشعراء المقفى الموزون ، وفى القرآن من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه فى لسان العرب ، فسحروا بأسلوبه ، وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار . فلما دان العرب بالاسلام أصبح همهم تلاوته ، وتفهم أحكامه ، لأنه قاعدة الدين والدنيا ، وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه ، واختلفوا فى تفسيره ، فعمدوا إلى ما أثر عن الرسول من قول أو فعل يستوضحون بها ذلك الأشكال ، فأصبح همهم جمع الأحاديث ممن سمعها ، أو رواها عن سامعها بالإسناد المتسلسل . فرأوا تباينا فى الروايات ، فاشتغلوا فى التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا إلى درس الأسانيد واستطلاع أخبار الحديث ، فجرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التى تناولوا تلك الأحاديث فيها [١] .

والنظر فى أحكام القرآن والسنة لابد فيه من فهم العبارة ، وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وبإسناد نقله وروايته ، واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات ، وبإسناد السنة إلى صاحبها ، والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لابد من استنباط هذه الأحكام من أصولها ، على وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم أصول الفقه ، ثم الفقه ، فالعقائد الاسلامية ، ثم علم الكلام .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٤٣ .

ولما عمدوا إلى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما . أشكل على غير العرب إعرابهما ، لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا إلى تدوين اللغة ، وترتيب قواعدها ، وتعيين معانى ألفاظها ، ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم ، وتعيين معانى ألفاظها ، وضبط التلفظ بها دعاهم إلى البحث عن لغة قريش التى كتب بها القرآن وكان المرجع فى ذلك إلى الأشعار والأمثال ، فرحلوا إلى بادية العرب ، وخالطوا الأعراب ، ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم . ليعرفوها ويرجعوا إليها . فرأوا مشقة فى فهم معانى أشعارهم وأمثالهم إلا بالاطلاع على أنسابهم وآدابهم فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا فى فهم الأشعار ، ووجدوا فى روايتها اختلافا وفى بلاغتها تفاوتا ، فعمدوا إلى البحث فى طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم .

وكان الراحلون فى التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب فى مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والأنواء والخيل والأنساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا أيضا كثيرا من تلك العلوم ، ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالبا من علماء اللغة ، وعثروا أيضا على ألفاظ وأشعار يندر ورودها فألفوا النوادر [١] .

لا غرو إذا اهتم المسلمون **بجمع القرآن وحفظه** ، لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجيا خلال عشرين عاما على مقتضى الأحوال ، منذ ظهور الاسلام إلى قبيل وفاة الرسول ، بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة . وكان المسلمون يدونون الآيات أو السور على رقاع من جلود . أو عظام عريضة كالأكتاف والأضلاع ، أو جريد النخيل ، أو بعض الأحجار البيضاء . ولما

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٤٣ .

توفى الرسول سنة ١١ هـ كان القرآن إما مدونا بهذه الطريقة أو فى صدور القراء أى حفظة القرآن . ولما قتل عدد كبير من هؤلاء القراء فى حروب الردة أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بجمع القرآن . فتردد أبو بكر لأن الرسول لم يقم بجمع القرآن . ولكن عمر أقنع أبا بكر بفكرته ، فكلف زيد بن ثابت أحد كتبة الوحى بجمع ما كان مدونا عند الصحابة وما فى صدورهم . وقام زيد بمهمته خير قيام . وظلت الصحف المجموعة عند أبى بكر حتى توفى سنة ١٣ هـ فلما توفى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ .

وفى خلافة عثمان أصبحت الدولة العربية الاسلامية عظيمة الاتساع ، وانتشر الاسلام فى الأمصار المفتوحة . وفى السنة الثلاثين من الهجرة « بلغ عثمان ما وقع فى أمر القرآن من أهل العراق . فإنهم يقولون : قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على أبى موسى الأشعرى وأهل الشام يقولون : قرآننا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود وكذلك غيرهم من الأمصار . فأجمع رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذى كتب فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه . وكان مودعا عند حفصة زوج النبى ﷺ وتحرق ما سواه من المصاحف التى بأيدى الناس ففعل ذلك ... وقال عثمان : إن اختلفتم فى كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم » [١] . ثم جمع عثمان المصاحف من جميع الأمصار « ثم سلقها بالماء الحار والخل وقيل أحرقها » [٢] .

رضيت جميع الأمصار الاسلامية عما فعله عثمان إلا بلاد العراق ، وخاصة مدينة الكوفة ، فقد رفض عبد الله بن مسعود أن يسلم مصحف الكوفة إلى عبد الله بن عامر والى عثمان على الكوفة ، وخطب فى أهالى الكوفة

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ١٦٧ – ١٦٨ .
(٢) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٣٧ .

قائلا : « أما بعد ؛ فإن الله قال : ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ ، وإنى غال مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل »[(١)] فأرسل عبد الله بن عامر إلى عثمان من يخبره بأمر امتناع ابن مسعود ، « وكتب إليه عثمان : أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالا ، وهذه الأمة فسادا ، فدخل المسجد وعثمان يخطب ، فقال عثمان : إنه قد قدمت عليكم وأبة سوء . فتكلم ابن مسعود بكلام غليظ . فأمر به عثمان : فجر برجله حتى كسر له ضلعان . فتكلمت عائشة . وقالت قولا كثيرا »[(٢)] . وغضب أهل العراق لمعاملة عثمان لعبد الله بن مسعود . فقد كانوا يحترمونه ويجلونه ، لأنه من أقدم أصحاب الرسول . وأحد الثقات الكبار فى القرآن . وكان هذا الحدث من الأحداث الهامة التى أدت إلى ثورة أهل العراق على حكم عثمان ثم مصرعه فيما بعد[(٣)] .

**كان علم القراءات** من العلوم التى اشتغل بها المسلمون . ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن ، وتتركز النواة التى بدأ بها هذا العلم فى القرآن ، وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أوضح فى قراءته ، ففى هذه الأشغال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب فى ظهور القسم الأكبر من هذه القراءات إلى طبيعة الخط العربى ، فإن من خصائصه أن الرسم الواحدة للكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها . كما أن عدم وجود الحركات النحوية وفقدان الشكل فى الخط العربى يمكن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الاعراب فهذه التكميلات للرسم الكتابى ، ثم هذه الاختلافات فى الحركات والشكل ، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات فيما أهمل نقطة أو شكله

---

(١) ابن العربى : العواصم من القواصم ص ٧٠ .

(٢) اليعقوبى : جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٣) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٢٧ .

من القرآن . وقد ظهرت للقراءات سبع طرق ، كل طريقة منها تمثلها مدرسة معترف بها ترجع قراءتها إلى إمام وتستند فى أحاديث موثوق بها ، وعليها يجب أن يقتصر فى قراءات المصحف [١] .

واهتم المسلمون أيضا بعلم **تفسير القرآن** ، وكان المسلمون فى حياة الرسول يستفسرون منه عن معانى القرآن وحفظ صحابته عنه هذا التفسير ، وعنهم أخذ التابعون . ولما اتسعت الدولة العربية الاسلامية ، احتاج المسلمون إلى الأحكام والقوانين ، فكان القرآن مصدر استنباطها ، فزادت العناية بتفسيره وأصبح القرآن والمفسرون مرجع المسلمين فى استخراج تلك الأحكام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاها إلى أواخر القرن الأول . فكان أول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى انتهى ذلك إلى الواقدى سنة ٢٠٧ هـ والطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما .

اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : أولهما التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة ، وثانيهما التفسير بالرأى وهو ماكان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين فى صدر الاسلام ، اعتبر التفسير جزءا من الحديث ، أو فرعا من فروعه ، حتى أن التفسير فى ذلك العهد كان تفسير الآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات ، إلا تفسير عبد الله بن عباس ، ولو أن كثيرين يشكون فى نسبته إليه . أما الطريقة المنظمة فى تفسير القرآن فإنها لم تحدث إلا فى العصر العباسى [٢] .

كانت دراسة القرآن والحاجة إلى تفسيره باعثا على ظهور علمين توأمين

---

(١) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٣٦ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٠٤ .

هما فقه اللغة ( الفيلولوجيا Philology ) وكتابة المعاجم ( اللكسيكوجرافيا Lexicography ) كما كانت باعثا على ظهور هذا العلم الهام الذى يتميز به النشاط الأدبى الاسلامى ونقصد به علم **الحديث** [٢] .

لما كان القانون فى الاسلام أعلق بالدين أكثر منه بأصول التشريع على نحو ما يفهمه الأوروبيون ، فقد أخذ المسلمون يدرسون الحديث ، ويدرسون فى الوقت نفسه تاريخ الرواة من المحدثين لاهتمامهم بأمر الحداث وحثهم على الوثوق من صحة روايته وأمانة رواته ، ولذلك كانوا فى حاجة إلى تعرف حال هؤلاء الرواة ودراسة تاريخهم وأخبارهم ، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم ، فكان ذلك كله نواة صالحة وثروة غزيرة لعلم التاريخ والأخبار .

والحديث من مصادر التشريع الاسلامى ، وهو ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير لشىء رآه ، يأتى فى الأهمية بعد القرآن . وقد جمع البخارى ، على ما نعلم ، نحو ٧٢٧٥ حديثا بما فيها الأحاديث المكررة . فإذا حذفنا المكرر منها أصبح عددها نحو أربعة آلاف . وقد اختارها البخارى — على ما قيل — من ثلثمائة ألف حديث . وكانت هذه الأحاديث موضعا لجدل عنيف بين المسلمين ، فقد كان معظم العرب عند وفاة الرسول أميين ، وروى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشىء غير قليل من التبديل والتحريف والغموض . حتى إذا جاء القرن الثانى الهجرى ، بدأ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين ظهروا فى العصر العباسى [١] .

اشتهر من رجال الحديث فى العصر الأموى الحسن البصرى ، وابن شهاب الأزهرى ، وسعيد بن المسيب فى المدينة ، وربيعة الراى وهو شيخ

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠٢ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٠٤ .

الإمام مالك بن أنس الذى نشأ فى أواخر عهد الدولة الأموية ومات سنة ١٧٩ هـ ، وهو صاحب كتاب الموطأ الذى جمع فيه ما يقرب من ١٧٠٠ حديث .

## الدراسات العقلية والأدبية :

كان الاسلام صاحب الفضل الأول على الدراسات العقلية والأدبية والعلمية فى الدولة العربية الاسلامية . فبينما كانت الأمية متفشية بين العرب فى العصر الجاهلى ، بدأ العرب المسلمون بعد ظهور الاسلام يقبلون على تعلم القراءة والكتابة ، وشجع الرسول – كما رأينا – على ذلك ، فكان فداء أسرى بدر تعليم كل منهم عشرة من المسلمين ، وحث الرسول أصحابه على تعلم اللغات الأخرى ، ولما فتح العرب الأمصار التى كانت خاضعة للفرس والروم ، وبدأ انتشار الاسلام بين السكان الأصليين أخذوا يتعلمون اللغة العربية لدينهم ودنياهم ، حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لاصلاح لغتهم .

رفع الاسلام مستوى العرب العقلى ، ونشر بينهم كثيرا من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها ، باطناب أحيانا وبإيجاز أحيانا ، حسبما يدعو إليه موقف العظة ، فقص علينا قصة آدم ونوح وابراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وغيرهم عليه السلام ، وشيئا من أخبار أممهم ، فى أسلوب جذاب ، هيج النفوس إلى الاستزادة ، وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها – كاليهود والنصارى – فكان فى ذلك نوع من الثقافة ، أفاد المسلمين ووسع مداركهم . ثم شرح الإسلام أحكاما فى الزواج والطلاق والشئون المدنية والجنائية ، كانت قانونا نظم أمور المسلمين فى معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية . واتخذه الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الأحكام ، ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيتهم فكان ذلك أساسا لحركة تشريعية واسعة [1] .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٤٤ .

سلك الاسلام فى دعوته إلى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية ، مسلكا يثير العقل ، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما فى العالم من ظواهر من سماء وأرض وكواكب واختلاف الليل والنهار ، واختلاف ألوان البشر وألسنتهم ، وهذا النوع من الآيات بعث العقل على النظر فى الكون ، وكان له أثر فى نمو الحياة العقلية .

وإذا أردنا الحديث عن علم التاريخ عند العرب فى الجاهلية ، وجدنا أن معارف العرب قبل الاسلام فى التاريخ كانت ساذجة جدا ، ولكنهم كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة . وشذ عن هذه القاعدة الحضر ممن نزلوا حواجز الجزيرة العربية وخاصة أهل اليمن ، وأهل الحيرة ، فقد نقش اليمنيون بالخط المسند على مبانيهم بعض أخبار ملوكهم وأحوالهم العامة ، ودون الحيريون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها .

ولما ظهر الاسلام ، وقامت بظهوره الدولة العربية الاسلامية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استفضاء للسنة ، توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث .

كانت رغبة الخلفاء الأوائل فى الوقوف على أخبار الملوك والحكام السابقين لعصرهم ، واهتمام المسلمين بجمع السير القديمة للرسول وصحابته التى أصبحت فيما بعد الأساس الذى بنيت عليه كتب السير والمغازى ، وضرورة تحرى أنساب العرب المسلمين لتحديد عطاء كل مسلم ، وشرح ما ورد فى الشعر العربى ، ومعرفة الأشخاص والأماكن التى ورد ذكرها فى الكتب الدينية ، وحرص الشعوب غير العربية فى الأمصار الاسلامية على تدوين أخبار أسلافها ، كل هذه العوامل أدت إلى البحث التاريخى [١] .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٠٤ .

وفى الوقت الذى كان يجمع فيه الحديث ، كان يوضع التاريخ ، وكان عبيد بن شربه صاحب معاوية بن أبى سفيان أول من ألبس هذا النوع الذى كان يسمى قبله قصصا ثوب التاريخ ، وقد ألف لمعاوية كما يقال كتاب ( الملوك وأخبار الماضين ) ويذكر المسعودى أنه رأى هذا الكتاب وقد روى أن عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ هو أقدم من ألف فى السيرة النبوية ، وكذلك أبان بن عمر المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، وقد جمع تلميذه عبد الرحمن ابن المغيرة كتابه فى سيرة الرسول . وكذلك رووا أن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ جمع كتابا فى المغازى ، وقبله موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ . ومن المشهورين فى علم التاريخ ، وهب بن منبه ، وهو من مدينة صنعاء ، يهودى يمنى من أصل فارسى ، اعتنق الاسلام ، ولكن أخباره غير موثوق بها تماما ، وله كتاب فى دول حمير طبع فى حيدرآباد بالهند .

وهناك كعب الأحبار ، وأخباره التاريخية أيضا لا يوثق بها كثيرا وهو يهودى يمنى أسلم ، وكان من مستشارى معاوية بن أبى سفيان على قول بعض المؤرخين . وبواسطة هذين الرجلين ( ابن منبه وكعب الأحبار ) وغيرهما من اليهود دخلت إلى التاريخ الاسلامى أخبار يهودية عن الحوادث السالفة للاسلام يغلب عليها الضعف .

وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجه إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعة أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ « الأخبار » ، وعلى المتخصص فى روايته « الأخبارى » كما عرف المتخصص فى رواية الحديث بلفظ « المحدث » . ونرى رجالا يجمعون بين الحديث

والأخبار مثل ابن اسحق والواقدى - الذى أخذ عنه ابن سعد - والمدائنى ( المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ) . فكل من هؤلاء كان محدثا واخباريا معا ، كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فنرى من المتخصصين محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، وكان مقدما فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى سنة ١٤٧ هـ ، وقد جمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ هـ ، وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف الدين بن عمر المتوفى عام ١٧٠ هـ ، وله كتاب كبير فى الفتوح . وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وله أخبار فى الأوائل وأيام العرب وأنسابهم .

ولأخبار الاسلام كتب كثيرة ذكرها ابن النديم فى كتابه ( الفهرست ) وقد طبع منها كتاب الأصنام . ثم ظهر نوع من التخصص فظهر متخصصون فى جمع أخبار مصر من الأمصار الاسلامية . فاختص أبو مخنف بأخبار العراق ، واختص المدائنى بأخبار خراسان والهند وفارس ، واختص الواقدى بأخبار الحجاز والسيرة النبوية وفتوح الشام [1] .

كان المحدث أسمى منزلة بين المسلمين من الأخبارى ، وذلك يرجع إلى منزلة الأحاديث النبوية فى قلوب المسلمين من جهة . وإلى تعرض الأخبار وخاصة قديمها إلى التغيير أو الاختلاق ، وكان مما يضعف منزلة المحدث اشتغاله بالأخبار ، وقد حدث مثل هذا الأمر لمحمد بن اسحق ، وكان أصلا راوية للحديث ، ثم صار ينقل عن أهل الكتاب ويسميهم أهل العلم الأول .

وخلاصة القول فى علم التاريخ فى الدولة العربية الاسلامية ، أنه ابتدأ فرعا من علم الحديث ، فكان متأثرا بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها ، وكان أهل السيرة والمغازى والأخبار يجمعون مأثور الروايات

---

(١) انظر كتاب ( الفهرست ) لابن النديم .

ويدونوها مع إسنادها إلى مصادرها الأصلية ، بمعنى أنهم لم يكونوا يحاولون نقد الخبر نفسه ، وإنما كانوا ينقدون ناقل الخبر ، الذى كان وقت الحادث فى المكان الذى وقع فيه الحادث ، أو نقل عن الشخص الذى شاهد الحادث ، وهذه الطريقة ضمنت للعرب صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة ، وحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء . والعرب قبل الإسلام ، والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة ما زالت أغمض المواضع فى كتب التاريخ العربية الاسلامية .

ويتصل بعلم التاريخ فى الدولة العربية الاسلامية ما يعرف فى ذلك العهد **بالقصص** ، وقد استحدث فى صدر الإسلام . وكان من قص فى مسجد الرسول فى المدينة ( تميم الدارى ) فقد استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأبى عليه ذلك فى أول الأمر ، ثم سمح له بذلك فى أواخر خلافته ، فكان يذكر الناس فى يوم الجمعة . ثم استأذن تميم الخليفة عثمان ابن عفان ، فأمر له أن يذكر يومين فى الجمعة . وتميم هذا كان مسيحيا من اليمن ، أسلم سنة ٩ هـ . ويذكر المؤرخون أنه أول من أسرج السراج فى المسجد ، كما كان أول قاص .

كان القاص يجلس فى المسجد وحوله الناس . فيذكرهم بالله . ويقص عليهم حكايات وأحاديث ، وقصصا عن الأمم الأخرى وأساطير ، ونحو ذلك ، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب .

يقسم الليث بن سعد القصص إلى نوعان ، قصص العامة ، وقصص الخاصة ، « فأما **قصص العامة** : فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظمهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة : فهو الذى جعله معاوية . ولى رجلا على القصص ، فإذا سلم من صلاة

الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى ﷺ ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة » (١) .

أقبلت العامة على سماع القصص ، مما جعل القصاص يسرفون فى الكذب والاختلاق إلى حد أن طردهم على بن أبى طالب من المساجد عدا الحسن البصرى لتحريه الصدق . ثم أصبح القصص وسيلة من وسائل الدعاية السياسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . فقد أمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام . وارتفع شأن القصص حتى رأيناه عملا رسميا يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجرا . وكان بعض القضاة يعينون قصاصا أيضا . وأدخل هذا القصص على المسلمين كثيرا من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية . كما كان بابا دخل منه على الحديث كذب كثير ، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة (٢) .

النحو بمعناه الحقيقى طبيعى على كل لسان وكل متكلم يتلقنه من مرضعه ، لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره ، أما إذا أراد أن يتعلم لسانا غير لسانه فيدرس قواعد النحو ليسهل عليه تناوله . ولذلك فالأمة قد تقضى قرونا متطاولة وهى تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علما . وهكذا العرب فقد نظموا الشعر وألقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على أنهم اضطروا إلى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر إليه اليونان والرومان ، التماسا للدقة فى ضبط معانى القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة إلى النحو (٣) .

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٥٣ .
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٦٠ .
(٣) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ٣ ص ٨٤ .

اتسعت الدولة العربية الاسلامية ، فشملت كثيرا من الأمصار تسكنها أجناس كثيرة تتحدث لغات عديدة ، وتأثرت اللغة العربية بهذه اللغات ، كما تأثرت هذه اللغات بالعربية ، وكان عمر بن الخطاب بعيد النظر حين نهى العرب عن الاختلاط بالأعاجم حرصا منه على سلامة اللغة العربية من الشوائب (١) وقد حدث ما كان يخشاه عمر فقد تأثرت اللغة العربية بهذا الاختلاط ، وانحرفت الألسنة وخرجت عن قواعدها ، وفشا اللحن بين العرب . كما أدى الاختلاط بين اللغة العربية واللغات الأخرى إلى ظهور فرق واضح بين لغة القرآن واللغة العامية مما أدى إلى البحث عن حل لهذه المشكلة ، وقد وجدوها أخيرا فى دراسة النحو واللغة التى قام بها الفرس بمساعدة العرب (٢) .

صارت البصرة والكوفة مركزين نشيطين للحياة العلمية ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى ( السابع الميلادى ) مدينة تستطيع منافستهما ، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه ، ثم نشأت فى كلتا المدينتين مدرسة للنحويين واللغويين (٣) .

كان يقيم فى هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة ، وآلاف من الصناع والموالى الذين كانوا يتكلمون اللغة الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى التحريف واللحن ، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربى . وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى العصر الأموى ، وقيل أنه تلقى أصول هذا العلم عن على بن أبى طالب ، وهو مؤسس مدرسة البصرة ، وأتم علم النحو من جاء بعده من علماء .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٦ .

(٢) Hell : The Arab Civil p. 60 .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧٠ .

**الأدب واللغة** : لما بدأ المسلمون تفسير القرآن احتاجوا إلى ضبط معانى ألفاظها وتفهم أساليب عباراته ، فجرهم هذا إلى البحث فى أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم ، ولا يكون ذلك سالما من العجمة أو الفساد إلا إذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش فى الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم . فعنى جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة إلى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال ، وسؤال العرب عن معانى الألفاظ وأساليب التعبير ، وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب [١] .

كان أبرز مظاهر النشاط الأدبى فى الدولة الاسلامية هو **الشعر** . وقد ظن بعض المستشرقين أن الذين قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن ، وهذا الزعم لا أساس له ، لأن القرآن ليس من الشعر فى شيء ، ولا يصح أن يكون نموذجا له . ولو أن القرآن الكريم قد غض من شأن بعض الشعراء ، فلأنهم كانوا من أعداء الاصلاح ومن دعاة الفوضى . قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ [٢] . على أن الشعر قد أعلى من قدر هؤلاء الذين قاموا بنصرة المبادىء القويمة ودافعوا عنها ، فأحلهم المحل اللائق بهم من الشرف ، كما شجعهم الرسول وأجزل لهم العطايا ، واعتبر هذا نوعا من الجهاد فى سبيل الله والانتصار للحق ، وأحسن مثل لذلك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الذى قربه الرسول إليه » [٣] .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن جـ ٣ ص ٨٧ .
(٢) سورة الشعراء الآيات : ٤٢٤ - ٤٢٦ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥٠٦ .

تأثر الشعراء المسلمون فى صدر الاسلام بالشعر الجاهلى ، فكانت قصائد هؤلاء الشعراء سواء فى مدح الرسول أو رثاء قتلى المسلمين أو هجاء المشركين ، تشبه القصائد التى كان ينظمها شعراء الجاهلية فى مدح شيوخ القبائل أو هجائهم ، وإن كان الشعراء المسلمون قد أدخلوا بعض الألفاظ والعبارات الجديدة التى تتحدث عن البعث والنشور . والثواب والعذاب والجنة والنار ، وغير ذلك من المواضيع الدينية التى يخلو منها الشعر الجاهلى ، بل أن الشعراء المناهضين للرسول والاسلام تأثروا بالقرآن وما فيه من معانى دينية .

بدأت بقيام الدولة الأموية نهضة شعرية ، فقد غلبت الصبغة الدنيوية على الصبغة الدينية التى تميزت بها فترة حكم الخلفاء الراشدين . فظهر الشعر الغزلى لأول مرة فى اللغة العربية ، وإن كنا نرى كثيرا من الشعراء فى عصر ما قبل الإسلام يستفتحون قصائدهم الطوال بأبيات قلائل من الشعر ذى الطابع الغزلى ، إلا أننا لا نجد واحدا منهم يمكن أن يقال إنه خصص نفسه للشعر الغزلى . ومن هذا النسيب الذى كانت تفتتح به القصائد الأولى ظهر الشعر العربى الغنائى تحت تأثير المغنين الفرس واحتذى الشعراء فيه مثالهم . وكان أشهر شعراء مدرسة شبه الجزيرة هو عمر بن أبى ربيعة لذى يطلق عليه الأوروبيون اسم ( أوفيد Ovid بلاد العرب ) [١] . وهو قرشى من أم مسيحية ، وقد اشتغل بالغزل فى الغيد الحسان من أهالى الحجاز أو القادمات للحج ، وكانت نساء العراق يرحلن إلى الحجاز لسماع غزل ابن ربيعة الذى أدرك هذه الحقيقة فرحل إلى البصرة حيث أقام بها فترة [٢] .

وإذا كان عمر يمثل الحب الطلق فى الشعر ، فإن معاصره جميل بنى

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣١٤

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١ ص ٨٦ .

عذرة – وبنو عذرة قبيلة مسيحية من أصل يمنى سكنت الحجاز – يمثل الحب الخالص البرىء أو الحب الأفلاطونى . وكانت كل قصائد جميل موجهة إلى حبيبته بثينة التى كانت تنتمى إلى نفس قبيلته . وشعره يذوب رقة لم يتسام واحد من شعراء ذلك العصر ، وتغنى المطربون بقصائده .

وهناك الشعر السياسى ، فقد ظهرت أحزاب مختلفة تتصارع وتتنافس وتبغى الوصول إلى الحكم والسلطة ، فاتخذت من الشعر وسيلة للدعاية والأعلام . وأراد الخلفاء وولاتهم أن يبثوا الاحترام والرهبة فى قلوب رعاياهم ، فشجعوا الشعراء على نظم قصائد الثناء والمديح ، وأجزلوا لهم العطاء . بدأ الشعر السياسى حينما طلب إلى مسكين الدرامى أن يؤلف قصيدة يخلد فيها ذكرى اعتلاء يزيد عرش الخلافة وينشدها علما .

اشتهر فى العصر الأموى عدة شعراء أبرزهم الفرزدق وجرير والأخطل ، وقد ولدوا جميعا ونشأوا فى العراق ، وجمعوا بين المدح والهجاء . وكان الفرزدق شاعر عبد الملك بن مروان وأولاده الوليد وسليمان ويزيد ، أما جرير فكان شاعر الحجاج ، بينما الأخطل شاعر مدينة دمشق حاضرة الأمويين .

اتخذ جرير والفرزدق والأخطل وراعى الابل حلقة بأعلى مربد البصرة ويجلس الناس حولهم (١) . وشغل الشعراء الأربعة بالتفاخر بين قبائلهم ، وكان راعى الابل يتحيز أحيانا للفرزدق على جرير (٢) . وسمع الأخطل فى الشام بتهاجى الفرزدق وجرير بالمربد فقصد إلى العراق حيث بدأت سلسلة جديدة من تهاجى الأخطل وجرير (٣) . وكان الفرزدق أثناء هذا التهاجى

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢٠ ص ١٦٩ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق جـ ١٠ ص ٢ .

يركب بغلة ويرتدى حلة جميلة ، بينما يركب جرير فرسا ويلبس درعا وحلة تسمى « بيضة » ويتقلد سيفا [١] . والحقيقة أن هؤلاء الشعراء كانوا يتخذون من إشعال نار هذه العصبيات وسيلة للهو واللعب وكان أهل العراق يقبلون على هذه الحلقات للتفرج والتسلية . وكانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحد ما فى جعبته من سهام ، وتمضية أوقات الفراغ أكثر من اهتمامهم بالعصبيات القبلية ، فكانوا يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، وكان يكثر بينهم الهرج والتصفير والتصفيق على نحو ما يفعل الناس الآن فى المسارح ، وكان أهل العراق يجدون فى هذه النقائض والمناظرات عوضا عن تأخر الغناء بالعراق [٢] وكان المربد مقصدا لشعراء الأمصار الاسلامية ، فقد قصد الكميت الفرزدق ليعرض عليه الهاشميات ، وهناك دارت المفاخرات العصبية بين الكميت الذى تعصب للنزارية ، ودعبل الذى تعصب للقحطانية [٣] .

وكما ارتقى الشعر ، فقد ارتقت الخطابة إلى درجة كبيرة فى العصر الأموى ، فكان الخطيب يلجأ إليها كوسيلة من وسائل الدين عند صلاة الجمعة ، كذلك كان يلجأ إليها القائد كوسيلة لاثارة الحماس العسكرى فى جنوده ، كما كان يعتمد عليها حكام الأقاليم فى بث روح الوطنية بين رعاياهم . ونبغ فى العرب خطباء عظماء أمثال زياد والحجاج وعتبة بن أبى سفيان ، وخطباء الخوارج . وعد الجاحظ [٤] الخطباء من بين الخلفاء

---

(١) ابن المثنى : النقائض بين جرير والفرزدق جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٨٢ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٤) انظر كتاب ( البيان والتبيين ) للجاحظ .

الأمويين : معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد ابن الوليد ، والوليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

تطورت الادارة الحكومية وتعددت حاجاتها مما دعا إلى إنشاء الدواوين . ومن هذه الدواوين وأقربها اتصالا بالحياة الأدبية ، ديوان الانشاء والرسائل الذى أوجد نوعا من النثر لم يكن للعرب به عهد وهذا ما يسمى بالنثر الفنى ، ويقصدون به تلك الرسائل التى كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله فى الأقاليم . وقد بدأ هذا النوع من النثر فى ذلك العصر ونما ، حتى ظهر فى آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب الذى يعد بحق مؤسس الكتابة الفنية وواضع أصولها وقواعدها (١) .

**الدراسات العلمية :**

كانت العلوم عند العرب تقسم إلى قسمين : ما يتعلق بالدين . وما يتعلق بالجسم . أما ما يتعلق بالدين فقد عرضنا له فى مكان آخر من هذا الكتاب . أما ما يتعلق بالجسم فهو الطب . وكان الطب فى شبه الجزيرة العربية بدائيا ، فكان عبارة عن بعض الشعوذات ، مع بعض النصائح باستعمال العقاقير والنباتات وغيرهما ، وينصحون باستعمال العسل فى بعض الأمراض ، وفصد الانسان ، وسحب الدم الفاسد منه .

أما الطب العربى العلمى فمأخوذ أكثره عن اليونان ، وبعضه عن الفرس . والحقيقة أن كثيرا من العلوم والمعارف العربية القديمة لا تزال ضائعة متفرقة فى دور الكتب فى أرجاء العالم ، ولم ينشر إلا أقلها .

---

(١) انظر كتاب تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم جـ ١ وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين تجد كثيرا من التفاصيل عن النهضة الثقافية .

وفى ذلك يقول دكتور ( جورج سارتون ) فى كتابه ( مقدمة لتاريخ العلم ) . أن درس اللغة العربية والآثار العربية ضرورى لتفهم نزعة الفكر وتطوراته فى القرون الوسطى ، وسبب ذلك أنه منذ منتصف القرن الثامن إلى آخر القرن الحادى عشر ، كانت اللغة العربية لغة العلم والأدب والمعارف فى العالم كله ، بحيث أن من يريد المعرفة وطلب العلم فى ذلك العهد السحيق كان مفروضا عليه درس العربية ، كما هو حال الشرق اليوم إذا ما أراد طلب المعرفة فإن عليه درس إحدى اللغات الأوروبية المعاصرة كالانجليزية والألمانية والفرنسية . وأما فى القرن الثانى عشر ، والثالث عشر ، فقد خسرت اللغة العربية بعض قوتها ونفوذها ولكنها كانت ما تزال ضرورية لطلاب المعرفة » .

يصف المؤرخ الهندى ( خودابخش ) [1] الأمويين بأنهم كانوا « قادة العلوم » ، ويذكر أنه كان لمعاوية – مؤسس الدولة – قلب كبير وعقل متحرر ، فقد كان اهتمامه بالعلوم المسيحية يجعله على نقيض من القياصرة البيزنطيين المتعصبين ضيقى الأفق . فنجد معاوية يرحب فى بلاطه بالطبيب المسيحى ابن أثال الذى ترجم لمعاوية كثيرا من كتب الطب إلى اللغة العربية ، واصطفى معاوية ابن أثال فكان يؤمن بمقدرته ويحب ملازمته ليلا ونهارا .

كان خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى اللغة العربية ، فدعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الاسكندرية حيث راجت صناعة الكيمياء ، وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء ، كما طلب إليهم أن يترجموا له كتب جالينوس فى الطب ، ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية .

---

(١) الحضارة الإسلامية : ( ترجمة المؤلف ) ص ١٥٣ .

كلف خالد بن يزيد ( اسطفانوس ) و (ماريانوس ) وغيرهم بترجمة الكتب إلى اللغة العربية ، وبفضلها ترجمت الكتب اليونانية والقبطية ، واستطاعت عامة العرب قراءتها . وكان خالد نفسه مؤلفا ، وقد أعطانا ابن النديم [١] ، قائمة بالكتب التى ألفها كما تحدث ابن أبى أصيبعة عن خالد فأشاد بثقافته الواسعة .

اهتم عمر بن عبد العزيز بالدراسات اليونانية أثناء حكمه لمصر فى خلافة سليمان بن عبد الملك وفى مصر تعرف بابن أبجر مدرس الفلسفة اليونانية فى الاسكندرية . وقد استمرت الصداقة طويلا ، وحينما تولى عمر ابن عبد العزيز الخلافة ، انتقلت الدراسات اليونانية من مصر إلى انطاكية وحران ومنها إلى سائر الأمصار الاسلامية . وبذلت جهود أخرى من أجل ترجمة الكتب إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية . وظهرت طبقة من الرجال يجيدون اللغة العربية مثلما يجيدون اللغات الأجنبية ، مثل صالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك [٢] .

يعتبر لقمان الحكيم أقدم أطباء العرب . وكان الحارث بن كلدة الذى ولد فى الطائف فى القرن السادس أشهر أطباء عصره . وقد درس الطب بكلية جنديسابور ببلاد الفرس ، ثم أصبح طبيب خسرويه كسرى فارس . وقد تخصص الحارث فى علم الصحة وأوصى بعدم الافراط فى الطعام وعدم الاستحمام بعد تناوله ، كما أوصى بالحجامة والحقن . ولما ظهر الاسلام قربه الرسول إليه ، وظل محل ثقة العرب حتى مات سنة ٣٣ هـ . وقد تلقى النضر الطب عن أبيه الحارث وذاعت شهرته ، واخترع حبوبا مسهلة نسبت إليه ، وكانت تستعمل فى أمراض الصفراء ، واشتغل ابن أبى رسته التميمى بعلم التشريح .

---

(١) انظر كتاب ( الفهرست ) لابن النديم .

(٢) انظر ترجمتنا لكتاب ( الحضارة الإسلامية ) لخودابخش ص ١٥٤ .

اهتم المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة كتب الأقدمين ، وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء . وكان هناك نوعان من الكليات الطبية هما : البيمارستانات أو الكليات العملية للطب ، والمدارس النظرية . وقد قيل إن أول البيمارستانات فى الاسلام كان تلك الخيمة التى ضربها الرسول فى المدينة يوم « الخندق » وجعل فيها امرأة تدعى ( رفيدة ) تقوم بخدمة الجرحى . وذهب المقريزى إلى أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ – ٩٦ هـ ) كان أول من بنى البيمارستان فى الاسلام ، وذلك فى سنة ٨٨ هـ ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بمنع المجذومين عن سؤال الناس ، وخصص لهم الأعطيات ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته [١] .

يعترف كرد على [٢] بفضل الأمويين على العلوم ، وأنهم أخرجوا العرب من غضاضة البداوة إلى نضارة الحضارة . وتسربت العلوم إلى العرب من بقايا علوم القبط واليونان والسريان ، بعد أن توطد أمر الخلافة وأخذت الجيوش تتقدم فى أفريقية إلى الأندلس ، وفى الشرق إلى ما وراء السند وسمرقند . وكانت فى أنطاكية والرها ونصيبين وحران أول الفتح مدارس عامرة تشبع أساتذتها بالثقافة اليونانية وفلسفة أرسطو والعلوم والطب المعروفة عند القدماء .

قال ( ليبون ) : « إن حماسة المسلمين فى دراسة الحضارة اليونانية واللاتينية مدهشة حقيقة ، وقد ضاهت العرب شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذا السبيل » . وقال ( لكرك ) : « كان كل ما فى أيدى العرب من العلوم فى آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلفات

---

(١) حسن إبراهيم : جـ ١ ص ٥١ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٧٣ .

فى الطب والكيمياء ، وما كاد ينصرم القرن التاسع حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين . وقال ( نوبرجر ) : فاقت الحضارة العربية فى أوج امبراطورية الاسلام حضارة روما القديمة فى حيويتها وتنوعها على حين كان لحضارة الاسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة » . وقال ( دوسن ) : « إن الحضارة الأوروبية ، بل الحضارة الغربية كلها ، مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وأن فتوحات العرب فى امبراطورية الاسلام من القرن السابع إلى الخامس عشر ، لتعد إحدى عجائب التاريخ . ومن المدهش أن يصبح العرب – وكان أول أمرهم على الفطرة – عنصرا فاتحا ، ويغدوا سادة نصف العالم فى مائة عام ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم ، حتى وصلوا إلى مستوى عال فى مائة سنة . بينما نرى الجرمان لما فتحوا الامبراطورية الرومانية قضوا ألف عام ، قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم » [1] .

* * *

(١) انظر كتاب ( الإسلام والحضارة العربية ) لكرد على جـ ١ ص ١٧٤ .

# ٤ – الفنون العربية والإسلامية

## أسس الفن العربى الاسلامى :

تميز عصر الرسول والخلفاء الراشدين بتغلب الصبغة الدينية ، والبساطة والزهد والتقشف ، وانشغلوا فى نشر الاسلام ، ولذا لم يكن هناك مجال كبير لنهضة الفنون الجميلة بأنواعها . ولكن ما كادت الفتوحات العربية الاسلامية تأتى إلى مرحلة الانتهاء ثم الاستقرار ، وأصبحت الدولة العربية الاسلامية تضم بلادا كانت خاضعة للفرس والروم ، حتى بدأ العرب المسلمون يجمعون مختلف الأساليب الفنية القديمة ويطبعونها بطابع دينهم الجديد .

اقتبس الفن الاسلامى كثيرا من عناصره من الحضارات التى سبقته والأمم التى سادت قبله ، ولكن هذه العناصر فقدت شخصيتها واندمجت فيه فأصبحت عربية إسلامية فى شكلها وروحها وأوضاعها المختلفة . واتسع أفق الفن أمام العرب ، ونجحوا فى أن يخرجوا صورا فنية جديدة لا تخرج عما رسمه الدين الاسلامى . على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبها بعبدة الأوثان ، لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية (١) .

والفن العربى الاسلامى يعبر عن شعور خاص يشعر به المؤرخ المعاصر ومن السهل أن نلاحظ أن العبقرية الاسلامية فى الفن كانت تميل بالفطرة

---

(١) انظر كتاب ( فنون الإسلام ) للدكتور زكى محمد حسن . وكتاب ( تاريخ الإسلام ) للدكتور حسن إبراهيم .

إلى تجريد الموضوعات الزخرفية وإلى تهذيبها وتنسيقها ، والبعد بها عن أصولها الطبيعية ، وقد نجحت فى الجمع بين موضوعات زخرفية لم تكن من مستحدثاتها نجاحا كان يتفاوت مداه باختلاف الطرز الفنية والدولة الحاكمة ومبلغها من الثروة .

ومن المؤكد أن ظهور الاسلام كان إيذانا بتكوين فن جديد يحق لنا أن نطلق عليه اسم الفن العربى الاسلامى ، لأنه ظاهرة من ظواهر الحضارة الاسلامية ، وجزء من الأساليب الصناعية والنظم الحكومية والعقائد المدنية التى اشترك فيها المسلمون فى أنحاء العالم .

ومن المؤكد أيضا أن الفنانين العرب كانوا يستمدون الوحى ويقتبسون شتى فنون الحضارات القديمة التى ازدهرت فى العالم القديم قبلهم ، فلجأ الأمويون إلى بلاد الروم والفرس للاستعانة بهما والاقتباس منهما فكان الفن العربى الاسلامى امتدادا للفنين البيزنطى والفارسى مع بعض التعديل .

وإذا ذكرنا أن الاسلام سير النزعات والميول الفنية والزخرفية فى اتجاه معين لم يكن باستطاعتها أن تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب إلى توجيه الفن العربى فى سبيل لا يخالف التعاليم الاسلامية دون أن يؤثر هذا فى عناصر الزخرفة ذاتها فيجعلها قلقة مضطربة . وكان إدخال الحروف العربية فى الفن عنصرا جديدا من عناصر الزخرفة ، فكان من أثر هذا هذه الرشاقة فى الفن العربى التى جمعت بين الأناقة والرشاقة والجدة .

ولما كان الاسلام يحرم الصور والتماثيل ، فقد كان لهذا أثره فى الفن العربى الاسلامى إذ جعل الفنان حبيس نفسه ، وفرض عليه إخراج التحفة الفنية دون أن يتلقى الوحى والالهام من الكائنات وحوله فخرجت آثاره والحالة هذه تصور العصور التى ترجع إليها . دون أن تصور لنا نفسية الفنان وروحه [١] .

---

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الأموية ص ٣٧٢ .

ذكر ( هل ) [١] أن الأمويين رأوا أنه لا يمكنهم المضى فى طريقهم على حساب غيرهم فحسب ، ولكن لابد من أن يبتكروا أشياء جديدة بأنفسهم . ولذا اتجهت جهود الأمويين إلى الابتكار وعدم الاكتفاء بما يأخذونه عن غيرهم . أما فى ميدان الابتكار الفنى فلم يجدوا إليه سبيلا ، إذ أن شعورهم بأنفة السيادة حال بينهم وبين أتباع غيرهم ، حين منعتهم بداوتهم من أن يألفوا شيئا من ذلك الميدان أو يتعلموه . ومن ثم قنعوا بالاعجاب فقط ببدائع الفن البيزنطى ، وأخذوه دون أن يغيروا منه شيئا كما ادخلوا عمالا بيزنطيين فى خدمتهم . فأمر الخليفة عبد الملك ببناء قبة الصخرة على مسجد عمر ، الذى يعد بفضل التعديلات التى أدخلت عليه فيما بعد من أجمل الآثار المعمارية فى العالم . ثم إن الخليفة الوليد لم يستطع مقاومة دوافعه نحو كنيسة القديس يوحنا التى اقتسمها المسلمون إذ ذاك بالتساوى مع المسيحيين ، فاشترى من المسيحيين حصتهم ، وحول البناء إلى مسجد رائع .

على أننا نجد فى تلك المبانى اختلاقا وابتعادا عن النماذج الهيلينية ، مما يدل على ظهور فن إسلامى جديد بحت . ولكن كيف حدث ذلك ، ولا سيما أن جميع أعمال العمارة كانت فى أيدى أناس من رعايا الشعوب التابعة للدولة الاسلامية ؟ إن ذلك أمر لا يزال سرا لم يعرف بعد . غير أن دراسة أوراق البردى أوضحت أن العمال الأجانب استخدموا على نطاق واسع فى إقامة شتى المرافق الدينية . ويمكن أن نتبين من ذلك أصول المنشآت الأموية ومميزاتها ، ومدى اتصال الطرز التى استعملت فيها بالطرز القديمة ، ودخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف [٢] .

---

(١) الحضارة العربية ص ٧ .

(٢) هل : الحضارة العربية ص ٧١ .

ولكن على الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت سلطانهم ، احتفظت العمارة الاسلامية بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر فى المساجد . وكان مسجد قباء الذى أسسه الرسول عليه الصلاة والسلام النموذج الأول لسائر المساجد الاسلامية من حيث الشكل العام . ومما لاشك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة فى كل عام ، وأداءهم الصلاة فى المدن والقرى التى كانوا يمرون بها ، ساعد على محاكاة مساجد الحجاز (١) .

## فن العمارة :

كان فن العمارة فى صدر الاسلام غاية فى البساطة والسذاجة ، فلم يكن فى مكة إلا معابد قليلة ، وكانت منازل الأغنياء تبنى بالحجارة أو اللبن بينما كانت معظم مبانى المدينة من اللبن ، الذى كان يتهدم بسرعة . وكانت المنازل فى الغالب طبقة واحدة ولها فناء ، وفى وسطها بئر ، فلما اتسعت الفتوح الاسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وزادت الثروة أقبل على المدينة عاصمة الدولة أصحاب صناعة فن العمارة من الأجانب فارتقى فن العمارة ، وشيد مشاهير العرب فى مكة والمدينة الدور الواسعة من الحجارة والرخام ويقال أن الدار التى بناها عثمان كانت غاية فى العظمة والروعة .

لما استولى العرب على الشام وفارس اتخذوا لأنفسهم طرازا خاصا للعمارة تتناسب مع طبيعتهم وذوقهم ، وقد فاق هذا طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرق وجمال التنسيق والاتقان ، والعرب إلى ذلك مقلدون من الطراز الأول ، فهم يأخذون ما عند غيرهم ويزيدون من روحهم عليه .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥١٥ .

والعمارة العربية تمتاز بالأعمدة والمنحنيات والمآذن والقباب ، وهى تماثل النخيل الذى هو أعز شيء عند العرب ، ولذلك نرى روحهم ونفسيتهم ظاهرة حتى فى تخطيط المدن التى كانوا يحيطونها بأسوار منيعة للدفاع عنهم ، ولما كانوا يكرهون المركزية ، فقد خلقوا فى المدينة ما ألفوه فى البادية ، وراحوا يعيشون فيها كما كانوا يعيشون فى البادية ، قبائل مستقلة ، لكل قبيلة حيها ومنازلها ومسجدها وسوقها ومقابرها ، وكان لكل حى أبواب منيعة تفصله عن الأحياء الأخرى ، بحيث أصبحت المدينة مجموعة مدن صغيرة ، وهذا التقسيم يلائم ما درجوا عليه من حب الحرية والأنفة من الخضوع لغير زعيم القبيلة وإذا ما قامت ثورة أو اضطراب فى المدينة كانت تغلق الأبواب فتنقطع المواصلات بين أجزاء المدينة المختلفة .

إن قصور اللهو التى اتخذها الخلفاء الأمويون فى الصحراء ، وسموها البوادى ، والتى اكتشف واحدا منها وهو « قصر عمرة » ، إن هذه القصور فى رأى ( هل ) [1] مثالا لاستخدام الأمويين لكل ما عرف فى زمانهم من الفن والعلم حتى تصير مساكنهم جديرة بهم ، ومستوفية لشروط الراحة على قدر المستطاع . وبين أيدينا نص لأحد رواة العرب ، تتبين منه الطرز الأولية لكل القصور العربية التى بنيت بعد ذلك حتى بناء قصر الحمراء ، فقال : « لقد جئنا إلى قصر عظيم ، كسيت أرضه بالمرمر الأخضر وفى وسط الفناء حوض كبير به مياه جارية تروى الحديقة ، التى تشمل جميع أنواع النباتات الجميلة والأشجار الظليلة والطيور التى تغرد بأعذب الأنغام » .

وصف السيد أمر على [2] دور الأغنياء فى دمشق فقال : لم يتغير

---

(١) الحضارة العربية ص ٧١ .

(٢) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى .

طراز البيوت وزينتها فى دمشق عما كان عليه فى عهد الأمويين على الرغم من مرور مئات السنين ، فترى البواب جالسا على مقعد خشبى أمام الباب كما تراه الآن فى منازل الأغنياء ، وترى على باب بيوت الفقراء قطعة من المعدن أو الحديد تستخدم مطرقة للباب . وفى داخل الدار فناء مستطيل على جوانبه أورقة من الأعمدة وأرضه من الحجارة والرخام ، وممشى مرصوف بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة ، وفى الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية وتظلها أشجار البرتقال والليمون ، وعلى جانب الفناء يقوم الايوان وهو عبارة عن صالة قد رصعت بالرخام والبلاط الملون ، وتستعمل قاعة للاستقبال وقت الحر وقبالة الباب كانت تقوم أو تقام عادة كوة مقفلة ، تزخرف بالأعمدة الرخامية ، ويوضع فوقها الطست والابريق للوضوء .

وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحيانا ، وعلى يمين ويسار الصالات أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدى إلى الصالات والحجرات الأخرى . وفى الشتاء كانت تكسى أرض الايوان الرخامية ، وكذلك الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ الحجرات بالمواقد . أما فى الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو ، وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربى ، ومطلية بالذهب ، ولم تكن هناك مقاعد ، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز السامية وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع له .

وخلاصة القول ، لقد ولد فن العمارة الاسلامية فى العصر الأموى ، ولكنه سرعان ما نما وترعرع ، فكانت من آثار الطراز الأموى عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووحدا كثيرا من العناصر الفنية فى أجزاء دولتهم وألفوا منها طرازا ممتازا [1] .

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٣ – انظر أيضا كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم .

**المساجد :**

كان المسجد بالنسبة للعرب المسلمين هو كل شيء فى حياتهم ، فهو مركز الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ومقر الحكومة والادارة ودار الندوة ، إلى جانب وظيفته الدينية المعروفة ، فلا عجب أن اهتم العرب المسلمون ببناء مسجد جامع فى كل مدينة إسلامية باعتباره رمزا لسيادة الاسلام .

العمارة هى أول وأثبت آثار الفنون صبرا على الزمن ، وهى بهذا الوصف تعتبر مع ما يعتريها من تغييرات يسببها الدين أهم ممثل لفن البناء والمعبد هو أول بناء يحاول اتباع الدين أن يوفروا له من الوسائل المادية أكثر مما يوفر للساكن العادى من بنى الانسان . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقرر أن الفن العربى الاسلامى كان أحسن ما يكون رقيا فى العمارة الدينية وقد أقام المهندسون المسلمون أو الرجال الذين استخدموهم طريقة للبناء بسيطة وموقرة احتذوا فيها النماذج القديمة ، ولكنها كانت تعبر بطريقة فذة عن روح الدين الجديد . وعلى ذلك فإنا نجد فى تطور المساجد سجلا تاريخيا عن تطور الحضارة الاسلامية التى بسطت نفوذها وعلاقاتها مع مختلف الأجناس والأمم . وإذا بحثنا عن مثل واضح يبين لنا التبادل الثقافى بين المسلمين وجيرانهم فإنا لن نجد هذا المثل أوضح فى شيء منه فى المسجد [١] .

**المسجد النبوى بالمدينة :** بعد هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، كان أول ما فكر الرسول فيه هو بناء مسجد . فاختار مكانا كان به بعض القبور القديمة وتظلله بعض أشجار النخيل ، وهى الأرض التى بركت فيها

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٢ .

ناقته حين دخل المدينة . وكانت ملكا لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل سألهما الرسول عن ثمن الأرض فأبديا استعدادهما للتبرع بها فقالا : لا نطلب ثمنا لها إلا ثوابا من الله . لكن الرسول حدد ثمنها بعشرة دنانير دفعها أبو بكر من ماله (١) . ونقلت الجثث من القبور . وقطعت أشجار النخيل ثم بنى محمدا مسجدا بسيطا فى مظهره وطريقة بنائه ، يتناسب مع الدين اليسر السمح الذى يدعو إليه (٢) . فكانت الجدران من الطين والحجر ، وبنى السقف بجذوع النخل المغطاة بالسعف والجريد . وكانت مساحته حوالى مائة ذراع مربع ، وكان له ثلاثة أبواب أحدهما نحو الجنوب حيث أصبحت القبلة فيما بعد ، والثانى كان يسمى باب جبريل ، والثالث باب الرحمة وخصص جزء من المسجد لسكنى بعض المسلمين الفقراء الذين لا سكن لهم وعرف هؤلاء باسم ( أهل الصفة ) .

اشترك محمد ﷺ بيديه فى بناء هذا المسجد ، وقد أصبح هذا المسجد فيما بعد قبرا للرسول وحرما نبويا ، ورغم أنه قد أدخل عليه فيما بعد إصلاحات كثيرة فزادت مساحته إلا أنه ظل دائما يحمل اسم ( المسجد النبوى ) ، فقد بناه الرسول بيديه .

تميز كل شيء فى المسجد فى بداية الأمر بالبساطة التامة ، فكان يضاء فى الليل بسعف النخيل ، فلم تكن قد عرفت المصابيح والزيت بعد . وكان المسجد عبارة عن ساحة مكشوفة تحيط بها جدران من اللبن ، وقد أمر الرسول فيما بعد أن تمتد السقوف المسطحة من الأبنية المجاورة حتى تحيط كل الساحة المكشوفة اتقاء للشمس . وكان السقف مكونا من جذوع النخل

---

(١) انظر تاريخ الطبرى جـ ٢ .

(٢) ارفنج : حياة محمد ( ترجمة مؤلف هذا الكتاب ) ص ١٢٧ .

التى اتخذت كدعائم يرتكز عليها الجريد والطمى . واتخذ النبى من جذع نخلة ثبتت فى الأرض منبرا يرتقيه وهو يخطب الجماعة ، وكان الرسول يخطب من فوق المنبر جالسا أو واقفا أو مستندا إلى عصا .

لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة أراد أن يشترى دار العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، ليدخلها فى المسجد ، فتبرع العباس بها ، فأدخلها عمر فيه وجعل طوله مائة وأربعون ذراعا وارتفاعه أحد عشر ذراعا ، وجعل له ستة أبواب ثم بناه عثمان بن عفان بالحجارة المنقوشة والفضة ، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة أيضا ، وسقفه بالساج ، وزاد فيه وأمر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك واليه بالمدينة عمر بن عبد العزيز بادخال حجرات زوجات الرسول فى المسجد . فأصبحت مساحته مائتى ذراع مربع ، وطلب من امبراطور الروم أن يمده بالعمال ، فبعث إليه بثمانين عاملا وكميات من الذهب والفسيفساء ، فبنوا الأساس والجدار والأساطين بالحجارة ، وجعلوا المحراب والمقصورة من الساج . واستمر الخلفاء والولاة فى تجديد وتحسين عمارة المسجد .

**مساجد الأمصار الاسلامية :** أصبح مسجد الرسول بالمدينة هو المثل العام الذى يحتذى فى بناء المساجد العامة فى القرن الأول الاسلامى ، مع بعض الاضافات التى تمثل البيئات الجديدة فى الأمصار المفتوحة ، فقد فتح العرب المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان عدة أقاليم كانت خاضعة للفرس والروم ، فى آسيا وإفريقية ، وأصبح فى حوزة العرب عددا لا يحصى من المبانى القائمة أو المخربة قد شادها صناع أكثر منهم فنا . كما أن الفتوحات وضعت فى أيدى العرب الخبرة والمهارة الفنية التى كان يتوارثها أبناء الأمم المفتوحة منذ أقدم العصور . وقد كان من نتيجة هذا الاندماج أن تطورت

حاجات المجتمع الاسلامى الدينية التى حددها مسجد المدينة واصطبغت بصبغة الأقاليم التى فتحوها ، فنشأ بمرور الزمن فن يطلق عليه اسم الفن الشرقى أو الفن العربى أو الفن الإسلامى [١] .

كان فن البناء يخضع للظروف الغالبة فى كل مصر ، ففى الشام تأثرت العمارة الاسلامية بطراز الشام البيزنطى المسيحى وما سبقه من الأطرزة الوطنية والرومانية . وفى العراق وفارس تأثرت بالطراز النسطورى والساسانى ، وفى مصر كان الأقباط لهم طرازهم فى البناء والنقوش والزخارف . وبذلك نشأت عدة أطرزة أو مدارس متميزة للفن العربى .

كان أول مسجد أنشىء فى الأمصار الاسلامية هو مسجد البصرة الذى أنشأه عتبة بن غزوان ، وكان المسجد فى مبدأ الأمر أرضا مكشوفة يحيط بها سياج من القصب ، ثم أعاد بناءه فيما بعد بالطمى واللبن أبو موسى الأشعرى والى عمر بن الخطاب الذى سقفه بالعشب .

أما المسجد الثانى فى الأمصار ، فهو مسجد الكوفة الذى أنشأه سعد ابن أبى وقاص ، وكان المسجد أول بناء فى الكوفة ، وكان مسجد الكوفة كمسجد البصرة فضاء مربعا مكشوفا تحيط به أسوار من القصب حولت فيما بعد إلى أسوار من الطمى واللبن ، وترك سعد حول المسجد فناء فسيحا ليكون سوقا ، وأحاط صحن المسجد بخندق ، وجعل لكل قبيلة مكانا بالمسجد [٢] وقد أعاد زياد بن أبيه والى معاوية بناء هذا المسجد وجعل له أساطين على الطراز الساسانى [٣] .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٣٢٤ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٧٩ .

(٣) انظر كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٢٨٧ - ٣٠٣ .

وكان جامع عمرو بن العاص هو المسجد الثالث ، وقد أنشىء فى سنة ٢١ هـ . ويقع فى شمال حصن بابليون ، وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين . ولم يكن المسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف ، وأول من بناه قره بن شريك والى مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وكان للمسجد بابان أمام دار عمرو وبابان فى الشمال وبابان فى الغرب وكان السقف منخفضا إلى درجة كبيرة ، ولم يكن للمسجد حصن ، واتخذ عمرو فى بداية الأمر منبرا ولكن عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك .

أما مسجد دمشق فأول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح ، ثم بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتى ٨٨ و ٩٦ هـ . وكان الوليد فى مقدمة الخلفاء المهتمين بالعمارة وخاصة بناء المساجد . ولما عزم على بناء مسجده جمع زعماء النصارى فى دمشق وأبدى استعداده لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى مكان شاءوا ، وأن يدفع إليهم ثمنا مضاعفا ، فأبوا واحتجوا بالعهد الذى أخذه المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء . لكن الوليد لم يعبأ بمعارضتهم وهدم الكنيسة وبنى مسجد دمشق واهتم الوليد أن يكون مثالا للعظمة والروعة مما يتناسب وعظمة حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، وبلغ ما أنفقه أكثر من خمسة ملايين ونصف مليون دينار ، أو كما قدر بعض المؤرخين بما يساوى خراج الدولة سبع سنين تقريبا [(١)] . واستغرق البناء حوالى عشر سنوات . وكان محراب المسجد مرصعا بالجواهر الثمينة ، عليه قناديل الذهب والفضة ، محلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية ، مما جعل بعض المسلمين يعيبون على الوليد هذا الاسراف ، وفكر الخليفة عمر بن عبد العزيز فى خلع الفسيفساء والسلاسل ولكن حينما لمس دهشة بعض رسل الروم وغيرهم من مشاهدتها عدل عن فكرته .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٠ — ١٥٤ .

ومن أشهر مساجد الأمصار الاسلامية مسجد القيروان ، وقد بناه عقبة بن نافع بعد أن بنى دار الإمارة فى القيروان . ثم لمس عامل هشام بن عبد الملك ضيق هذا المسجد بالمصلين ، فكتب بذلك إلى الخليفة ، فأمره بشراء الأرض التى كانت بجانب المسجد وأعيد بناء المسجد فى إمارة يزيد ابن حاتم سنة ١٠ هـ ، وأراد زياد الله بن ابراهيم بن الأغلب هدم المسجد وتجديده ، فأشاروا عليه بالابقاء على المحراب الذى بناه عقبة وفى عهد إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب تم تجديد المسجد وتوسيعه وبنى قبة البهو (١) .

**المدن الاسلامية :**

ما كادت الفتوح العربية فى الأمصار المفتوحة تنتهى ويستقر الجند العرب ، حتى شعروا بحاجاتهم إلى إقامة المعسكرات ، فقد كان لابد من هذا الاستقرار حتى يكونوا بمثابة الحاميات التى توطد أركان السيادة العربية ، فقد خافوا تمرد الفرس أو الروم ولم يكن أكثرهم قد أسلم ، وكانت ظاهرة بناء المدن وتمصير الأمصار تتفق تماما مع ظروف المجتمع الجديد ، فقد مل العرب حياة القبيلة ورنوا إلى حياة أسمى من حياة شبه الجزيرة ، كما تطلعوا إلى الامتزاج بعناصر البيئة الجديدة (٢) .

أراد عمر بن الخطاب أن تكون المدن الجديدة ( البصرة والكوفة والفسطاط ) معسكرات لجنده لا مدن عامرة ، فأمرهم بالبناء بالقصب ، ولكن سرعان ما أتت النيران على هذا القصب فاستأذن العرب فى البناء باللبن فوافق عمر مضطرا ولكن بشروط ، فقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٢ – ٢٤ .

(٢) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ٨٩ .

ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة » [١] وكان البناء باللبن هو الخطوة الأولى نحو الاستقرار وتحويل البصرة والكوفة والفسطاط من معسكرات إلى مدن [٢] . فقد كانوا قبل البناء باللبن إذا خرجوا للغزو « نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه فى مكان حتى يرجعوا من الغزو فيعيدون بناءه » . وعلى الرغم من ميل عثمان إلى تعمير هذه المدن فإن المسلمين عابوا عليه سماحة بالتطاول فى البناء . ولكن صيحاتهم لم يكن لها أثر يذكر ، فسرعان ما سارت سنة التطور فى طريقها ، فتطور البناء من اللبن إلى الجص والآجر والساج ، وأصبحت هذه المدن من أعظم مراكز الاسلام ازدحاما بالسكان [٣] .

( أ ) **البصرة** : لما استقر العرب بالعراق بعد انتهاء عمليات الفتح اتخذوا المدائن معسكرا لهم ، لكنهم سرعان ما كرهوا الاقامة فيها لما اتصفت به من وخومة الجو وانتشار الغبار والذباب [٤] . فأرادوا اختيار مكان آخر يناسب جوه صحتهم وأحوال إبلهم . فسار فريق من المسلمين بقيادة عتبة ابن غزوان يبحث عن ذلك المكان المنشود فنزل فى المكان الذى قامت به البصرة فيما بعد ، فأعجب به فنزله فى أخبية وقباب [٥] ورأى عقبة أن يكون هذا المكان ( الخريبة ) المدينة الجديدة وكان هذا الموقع على شط العرب

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٢٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٤ .

(٣) Hell : The Arab. Civil p. 60.

(٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٤ .

على مقربة من ثغر الأبلة عند دلتا نهرى دجلة والفرات ، ولذا فهى متصلة بالخليج الفارسى .

بدأ المسلمون إقامتهم فى البصرة فى خيام وفساطيط وقباب ، ثم استأذنوا عمر بن الخطاب فى بنيان القصب فأذن لهم بذلك (١) . وبنى عتبة ابن غزوان مسجدا من قصب ، كما بنى دار الإمارة فى رحبته سماها الدهناء ثم بنى فى هذه الرحبة السجن والديوان ، ثم وقع الحريق فأذن عمر بالبناء باللبن بشرط ألا يطاولوا فى البناء . فقام أهل البصرة ببناء منازلهم من اللبن ، وبنى أبو موسى الأشعرى المسجد ودار الامارة بلبن وطين وسقفهما بالعشب (٢) وكانت بيوت البصرة تتميز بأنها « واسعة الصحن ، رفيعة السمك ، عظيمة الأبواب » (٣) . فقد أمرهم عمر بن الخطاب بذلك فقال : « فعرضوا الحيطان ، وأطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب » (٤) .

قسم المسلمون البصرة إلى خطط بعدد القبائل ، وجعلوا عرض أكبر شوارعها وهو المربد ستين ذراعا ، وجعلوا عرض سائر الشوارع عشرين ذراعا ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة يربطون فيها خيولهم ويدفنون موتاهم ، وجعلوا منازلهم متلاصقة (٥) وسرعان ما اتسعت البصرة وأصبحت مدينة بعد أن كانت معسكرا ، وكان سكانها فى عهد عمر أكثر عددا من سكان الكوفة (٦) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٢٣ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٤ .
(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار جـ ٣ ص ٣١٢ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧١ .
(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ١٣ .

قام الولاة الأمويون باصلاحات عديدة ، فلما تولى زياد بن أبية فى خلافة معاوية قام باصلاحات عمرانية كثيرة ، فأعاد بناء المسجد الجامع بالآجر وزاد فيه [١] ، كما أعاد بناء دار الإمارة بالآجر [٢] . كذلك بنى زياد فى البصرة دار الرزق ، وحفر نهرى الأبلة ومعقل ، وبنى سكة وأسكنها أربعة آلاف من البخارية فسميت باسمهم [٣] . وسار عبيد الله بن زياد سيرة أبية فى التعمير ، فكان من منشآته بها القصر الأبيض وقد أنفق فى بنائه أموالا كثيرة . ويصف القزوينى [٤] هذه الدار بأنها كانت عجيبة الشكل فكان يقصدها الناس من كل مكان للتفرج عليها . وأنشأ ابن زياد مدينة صغيرة جديدة قرب البصرة سماها مدينة الرزق [٥] . أما الحجاج فقد بنى قصرا فخما بالبصرة سماه باسمه مكان قصر قديم كان قد بناه قباذ كسرى فارس [٦] . وكان عهد الوليد بن عبد الملك عهد تشييد وتعمير ، حتى كان الناس يلتقون فيسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات » [٧] . وفى عهد خليفته سليمان بن عبد الملك أعيد بناء مسجد البصرة بالآجر والجص ، وأمر سليمان بإعادة بناء دار الأمارة التى كان الحجاج قد هدمها ، بالآجر والجص [٨]

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٦ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٦ .

(٣) ابن الفقيه : مختصر تاريخ البلدان ص ١٩١ .

(٤) القزوينى : آثار البلاد ص ٢٠٦ .

(٥) الطبرى جـ ٧ ص ١٣٠ .

(٦) العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٤٨ .

(٧) الفخرى ص ٩٢ .

(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٤ .

واهتم خالد القسرى والى هشام بن عبد الملك على العراق بتعمير البصرة حتى بلغ طولها فرسخين وعرضها فرسخين [١] .

امتازت البصرة خلال العصر الأموى بكثرة المبانى وفخامتها . فقد كان فى البصرة وحدها سبعة آلاف مسجد . وكانت معظم مبانيها من الآجر ، وكانت البصرة غنية بقصورها وأبرزها قصر أنس بن مالك صاحب الرسول ، والقصر الأحمر الذى بناه عمر بن عتبة بن أبى سفيان ، وقصر المسيرين الذى شاده عبد الرحمن بن زياد ، وقصر النواهق الذى بناه زياد ، وقصر النعمان بن صهبان الذى تولى إمارة البصرة بعد موت يزيد بن معاوية ، وقصر زربى مولى عبد الله بن عامر [٢] .

واشتهرت البصرة بمنتزهاتها الكثيرة وأشهرها « وادى القصر » [٣] .

وكان النخيل يمتد فى البصرة خمسين فرسخا متصلا [٤] . وامتازت البصرة بحماماتها الفخمة ، وكانت الحمامات لا تبنى فى البصرة إلا بإذن الولاة ، وأشهر الحمامات حمام فيل ، وقد بلغ إيراد أحد هذه الحمامات ألف درهم يوميا [٥] ، وكان للبصرة ثلاثة أسواق [٦] .

(ب) **الكوفة** : نزل سعد بن أبى وقاص المدائن وقسم منازلها على من معه من العرب وأقام بها المرافق ، ومكثوا بها حتى فرغوا من فتوح

---

(١) انظر كثيرا من التفاصيل فى كتابنا ( تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ) ص ٢٨٧ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦٣ .

(٣) القزوينى : آثار البلاد ص ٢٠٦ .

(٤) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ٨٠ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٠٠ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١١٨ .

جلولا ، وتكريت والموصل [١] . ولكن سرعان ما كره العرب المدائن لرداءة جوها ، وبعث عمر بن الخطاب لهم يقول : « إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الابل » ، فوقع اختيار سعد على مكان قرب أنقاض بابل القديمة على الشاطيء الغربي من نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال في جنوبي الحيرة [٢] . وكان المسجد أول بناء بالكوفة ، وترك سعد حوله فناء فسيحا ليكون سوقا ، وأحاط صحن المسجد بخندق ، وجعل لكل قبيلة مكانا بالمسجد [٣] ثم بنى سعد دار الإمارة بآجر أخذه من أنقاض قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة [٤] . واتخذ المسلمون في الكوفة منازل لهم من القصب في بادىء الأمر ، ثم أعادوا بناءه باللبن بعد حادث الحريق [٥] .

كان معظم من هاجر من العرب إلى الكوفة وقت إنشائها من عرب الجنوب وخاصة عبد القيس وكانوا أكثر القبائل حضارة ومدنية ، كما اشترك نصارى بني تغلب في تخطيط الكوفة وأقام عدد كبير منهم فيها بعد تمصيرها [٦] . وأمر عمر سعدا أن يفرق الخطط على القبائل ، فانقسمت الكوفة وقت إنشائها إلى سبعة أقسام قبلية [٧] .

اتسع العمران بالكوفة وتفنن أهلها في البناء . فبنى طلحة بن عبيد

---

(١) الطبري جـ ٤ ص ١٧٧ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) الطبري جـ ٤ ص ١٩٢ .

(٦) الطبري جـ ٤ ص ١٩١ .

(٧) ماسينيون : خطط الكوفة ص ١٠ .

الله داره بالكوفة بالآجر والجس والساج [١] وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق [٢] . وفى عهد ولاية زياد بن أبى سفيان شرع أهل الكوفة فى البناء بالآجر بدلا من اللبن ، وزاد زياد فى المسجد فجعله يتسع لستين ألفا بعد أن كان لا يسع غير أربعين ألفا [٣] . وسار عبيد الله بن زياد على سيرة أبيه فى التعمير والانشاء وكان أبرز منشآته بالكوفة « البيضاء » [٤] . اهتم خالد القسرى والى هشام بن عبد الملك بالتعمير والبناء ، فقد اشترى خططا كثيرة بالكوفة وبنى بها مبانى عديدة ، كما قام ببناء أسواق جديدة وجعل لكل أهل حرفة مكانا خاصا [٥] . وبنى أخوه أسد بن عبد الله قرية جديدة بجوار الكوفة كانت تعرف باسم « سوق أسد » ونقل الناس إليها . وفى خلافة مروان بن محمد ، قام واليه بالعراق يزيد بن عمر بن هبيرة ببناء مدينة جديدة بالكوفة على نهر الفرات ، ولكن مروان بعث إليه يأمره باجتناب مجاورة أهل الكوفة ، فترك هذه المدينة الجديدة وبنى قصر بالقرب من جسر سورا [٦] وكانت الكناسة أشهر أحياء الكوفة ، وكانت مثل مربد البصرة فى اتخاذها مكانا لمفاخرات الشعراء وكانت تجاور البادية [٧] .

(جـ) **الفسطاط** : أراد عمرو بن العاص بعد فتحه الاسكندرية وطرد الروم منها أن يتخذها حاضرة له كما كانت من قبل فى العصر البيزنطى ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧ .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٢ .

(٥) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣١١ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٥ .

(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١١٤ .

وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك ، ولكن عمر أبى ذلك لأنه كان لا يحب أن « تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف » . وبدأ عمرو يفكر فى مكان آخر يتخذه حاضرة ، وكان من الطبيعى أن يختار مكانا يكون قريبا من البحر الأحمر الذى يفصل وادى النيل عن شبه الجزيرة العربية مركز الدولة العربية الاسلامية ، وأن يكون هذا المكان فى موضع يتوسط القطر المصرى ليسهل عليه حكمه منه .

كان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم . ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط الحامية الرومانية . وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم ، وبين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة ، وكانت تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو ، وتمتد شرقا حتى قرب سفح جبل المقطم ، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر ، وغربا حتى النيل ، وجنوبا حتى ساحل أثر النبى .

اختلف المؤرخون فى تسمية الفسطاط بهذا الاسم ، فقال بعضهم أن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الاسكندرية أمر بفسطاطه أن يرفع ، فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه ، فقال : لقد تحرمت بجوارنا ، أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها ، فأقر فى موضعه . فبذلك سميت الفسطاط . وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة ( فسطاطا ) . أما ( بطلر ) فيقول : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fostatum ومعناه ( مدينة حصينة ) ، أخذه العرب عن الروم فى أثناء حربهم فى الشام ، وربما كان هذا أرجح الأقوال (١) .

بدأ المسلمون الذين اختطوا الفسطاط بإقامة المسجد الذى كان دائما

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ١٤ .

آية استقرارهم فى الأرض وغلبتهم عليها ، وكان تمثيلا لكل حركتهم فى طابعها الدينى وفى ظواهرها الاجتماعية ، ثم مضوا بعد ذلك فى تخطيط الخطط [١] .

وقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون الفسطاط عسكرا كما أراد البصرة والكوفة ، ولكن الذى حدث هناك حدث هنا أيضا ، فقد جاوز الفسطاط أن يكون معسكرا إلى أن يكون مدينة ، وحارب عمرو كل مظاهر الترف فى البناء ، ولكن الترف فى البناء غلب عمر على وصاياه وتتابع الزمن واختلف الولاة وتوالى الخلفاء ، ومضى البناء فى الفسطاط ، حتى أصبحت هذه المدينة تضم كل مرافق الحياة المستقرة الهانئة : القصور والحمامات والقيساريات والقطائع والأفنية والساحات وما إلى ذلك . ووصل ارتفاع البيوت إلى ثمانى طبقات . وظلت مدينة الفسطاط حاضرة مصر حتى بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ فأصبحت مركز الامارة .

( د ) **القيروان** : ولى معاوية بن أبى سفيان على حكم إفريقية عقبة ابن نافع سنة ٤٨ هـ . فزحف عقبة على رأس جيش من مسلمى البربر وفتح إفريقية عنوة . ورأى بعد انتصاره على البربر أن يتخذ مدينة تحمى جند المسلمين وأموالهم من عدوان أهالى هذه البلاد عليهم ، فاختار موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم . واختط عقبة فى ذلك الموضع دارا للإمارة واختط الناس حولها الخطط والدور كما بنى بها المسجد الجامع .

وكان يسكن القيروان أخلاط من الناس ، من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان ، وبها فريق من الفرس من أهالى خراسان ، كما أقام بها البربر والروم . وكان يحيط بالقيروان سور مبنى باللبن والطين ، بناه القائد العباس محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ هـ ، وقد هدم هذا

---

(١) المرجع السابق .

السور زيادة الله ابراهيم بن الأغلب فى سنة ٢٠٩ هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان بزعامة المنصور المعروف بالطنبدى ، ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجى فى سنة ٤٤٤ هـ .

(هـ) **واسط** : بنى الحجاج بن يوسف مدينة واسط فى العراق ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة إذ أن بين واسط وكل من هذه المدن خمسين فرسخا [١] . ويمتاز مكان واسط بأنه كثير الخيرات صحيح الهواء عذب الماء [٢] . وكان أطباء الحجاج هم الذين أرشدوه إلى هذا المكان المختار فاشتراه من صاحبه [٣] . وكانت أرض المكان مغطاة بالقصب ولذا سميت المدينة الجديدة « واسط القصب » [٤] .

اختلف المؤرخون فى ذكر أسباب بناء الحجاج مدينة واسط فيذكر الطبرى [٥] أن الحجاج أقدم على بنائها حتى يجنب أهل الكوفة مضايقات جند الشام أما ياقوت فيعلل بناءها بأن الحجاج « لما فرغ من حروبه استوطن الكوفة فآنس منهم الملال والبعض له فقال لرجل ممن يثق بعقله : امض وابتغ لى موضعا فى كرش من الأرض أبنى فيه مدينة وليكن على نهر جار » . أما ( فلهوزن ) [٦] فيرى أن بناء واسط كان لعزل جند الشام عن العراق لا خوفا من ارتكابهم ما يضر بأهل البلاد وقد سر الحجاج حين علم بتوسط واسط مدن العراق الكبرى حتى يتخذ منها مكانا يراقب منه الأحوال السياسية فى بلاد العراق كلها .

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٢٢ .

(٢) القزوينى : آثار البلاد ص ٣٢٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٥ – ٢٩٧ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨ .

(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ٣٦ – ٣٧ .

(٦) The Arab Kingdom p. 249.

كان نهر دجلة يقسم المكان الذى اختاره لبناء واسط إلى قسمين ، فجعل بينهما جسرا من السفن [١] وبنى الحجاج فى الجانب الغربى القصر والقبة الخضراء والمسجد الجامع وجعل عليهم سورا [٢] وتكلفت هذه المبانى ثلاثة وأربعين مليون درهم أضافها الحجاج إلى نفقات الحروب حتى لا يتهمه عبد الملك بن مروان بالاسراف [٣] . ونقل الحجاج إلى قصره والمسجد أبوابا من عدة مدن مجاورة فضج أهلها بالشكوى [٤] .

أقبل أهل العراق على استيطان واسط وبناء المنازل ، يشجعهم على ذلك خصب أرضها وانتشار المزارع والبساتين التى يكثر بها الأشجار والنخيل ، كما أنها أصح هواء من البصرة [٥] وكان أهل العراق يقصدون واسط للتفرج والتنزه ، ولذا انتشر بها كثير من الفنادق [٦] وكان الحجاج يدقق فى اختيار عناصر سكان واسط فلم يكن يدخلها أحد إلا بإذنه [٧] .

## فن النحت والتصوير والزخرفة :

وجه الاسلام الميول الفنية فى اتجاه معين لم يكن باستطاعتها أن تسلك غيره ، فقد اضطر فنانو العرب إلى توجيه الفن العربى فى سبيل لا يخالف التعاليم الاسلامية دون أن يؤثر هذا فى عناصر الفن ذاتها فيجعلها قلقة مضطربة مملة .

---

(١) أبو الفدا : تقويم البلدان ( طبعة وستنفلد ) .

(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٢٢ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٨١ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٥) الاصطخرى : مسالك الممالك ص ٨٢ .

(٦) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٣٩ .

(٧) الأصفهانى : الأغانى جـ ٨ ص ٣٧٠ .

كان المسلمون فى صدر الإسلام يعتبرون التماثيل ضربا من ضروب الوثنية وإحياء لعباده الأصنام ولذا حرصوا على تحطيم جميع التماثيل الفنية التى ورثها العرب عن الأمم الأخرى وخاصة الفرس والروم ، فقد أمر يزيد بن عبد الملك الخليفة الأموى سنة ١٠٤ هـ ( ٧٢٢ م ) بتحطيم جميع التماثيل فى جميع أرجاء الدولة العربية الاسلامية ، فتحطمت تماما وخاصة فى مصر [١] .

ومما لاشك فيه أن تحريم التصوير خوفا من الاشراك فى الدين وعبادة الأصنام ، وكون العرب لا يزالون فى صدر الإسلام ، قد منع العرب من إظهار عبقريتهم فى هذا الفن ، فلا تجد اليوم صورة لإنسان أو نصب لشخص فى الآثار الاسلامية . وكل ما قام به المسلمون هو تصوير بعض الحيوانات للزينة ، واستعمال بعض الخطوط الهندسية للزينة أيضا . وقد نجح العرب فى هذه الناحية نجاحا عظيما أطلق على فنهم هذا فيما بعد كلمة ( الفن العربى ) إذ كان خاصا بهم دون غيرهم [٢] .

أجاد العرب فن الزخرفة ( الأرابيسك ) ، وإن كانوا قد اقتبسوا بعض زخرفة الفرس والرومان إلا أن عبقرية العرب وقدرتهم على الخلق والابتكار بدت واضحة . إلى جانب إجادة استثمار ما اقتبسوه . كما أجاد العرب استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيرا ما نرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتا من الشعر أو عبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ، أو تكون شريطا زخرفيا على أثر من الآثار .

وقد ازدهر فى عهد الأمويين فن النقش على الجدران ، ولا يزال بعض بقاياه ماثلا فى « قصر عمرة » هو قصر صغير للصيد شرق البحر الميت

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) فنون الإسلام للدكتور زكى حسن ، تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم .

على بعد خمسين ميلا شرق عمان ، ويتجلى فى طرازه مزيج من الفنون الشرقية واليونانية . ويذهب علماء الآثار إلى أنه شيد فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى . ويشتمل على قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة لكل رواق منها سقف من قبو نصف دائرى (١) .

* * *

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٥١٥ .

# المصادر

## أولا – المصادر العربية :

ابن آدم : ( ٢٠٣ هـ ) كتاب الخراج ( ليدن ١٨٩٥ ) .
ابن الأثير : ( + ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م ) الكامل فى التاريخ ( القاهرة ١٣٠٢ هـ ) .
أحمد أمين : فجر الإسلام ( القاهرة ١٩٢٨ ) .
أحمد شفيق : الرق فى الاسلام ، ترجمه عن التركية أحمد زكى ( القاهرة ، الطبعة الأولى ) .
الأصطخرى : ( ٣١٨ + ٣٢١ هـ = ٩٤٣ م ) مسالك الممالك ( ليدن ١٩٢٧ ) .
الأصفهانى : ( ٣٥٢ هـ = ٩٦٧ م ) كتاب الأغانى ( مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ – طبعة دى ساسى ) .
الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ( المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م ) .
أنستاس مارى الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ( المطبعة العصرية ، ١٩٣٩ ) .
البلاذرى : ( ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م ) فتوح البلدان ( مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٩٠١ م ) .
أنساب الأشراف ، الجزءان الرابع والخامس ( فلسطين ١٩٣٨ ) .
البيرونى : ( ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ) الآثار الباقية عن القرون الخالية ( ليبزج ١٩٢٣ ) .
البيهقى : ( ٤٥٨ هـ ) المحاسن والمساوىء ( مطبعة السعادة ١٢٢٥ – ١٩٠٦ ) .

ابن تيمية : ( ٧٢٨ هـ ) رسالة الحسبة فى الاسلام ( المطبعة الحسينية ١٣٢٣ هـ ) .

الجاحظ : ( ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ هـ ) كتاب الحيوان ( القاهرة ١٩٠٧ ) .

– كتاب التاج ( المطبعة الأميرية ١٣٢٢ – ١٩١٤ ) .

– كتاب المحاسن والأضداد ( مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ ) .

– البيان والتبيين ( مطبعة الفتوح ، القاهرة ١٣٣٢ هـ ) .

– رسائل الجاحظ ، ١١ رسالة ( القاهرة ١٣٢٤ هـ ) .

جمال عياد : نظم العمل فى الإسلام ( الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧١ )

الجهشيارى : ( ٣٣١ هـ ) كتاب الوزراء والكتاب ( مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٣٥٧ – ١٩٣٨ ) .

ابن الجوزى : ( ٥٩٧ هـ ) مناقب عمر بن عبد العزيز ( ليبزيج ١٨٩٩ ) .

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، خمسة أجزاء ( مطبعة الهلال ، الطبعة الثانية ) .

حاجى خليفة : ( ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م ) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ( ليبسك ولندن ١٨٣٥ – ١٨٥٨ ) .

ابن حزم : ( ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ) الفصل فى الملل والأهواء والنحل المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ ) .

حسن إبراهيم حسن : الدكتور : تاريخ الاسلام ، الجزء الأول ( الطبعة الرابعة ١٩٥٧ ) .

– النظم الاسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ( القاهرة ) .

ابن خرداذبة : ( ٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م ) المسالك والممالك ( ليدن ١٨٩٨ )

اللهو والملاهى ، منشور فى كتاب الموسيقى العراقية لعباس العزاوى ( بغداد ١٩٥١ ) .

الخضرى : محمد : تاريخ الأمم الاسلامية ( القاهرة ، الطبعة الثالثة ) .

ابن خلدون : ( ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م ) مقدمة ابن خلدون ( المطبعة البهية المصرية ) .

– العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ ) .
ابن خلكان : ( ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م ) وفيات الأعيان ( طبعة مكتبة النهضة ١٩٤٨ ) .
الدميرى : حياة الحيوان ، جزئين ( المطبعة الأميرية ١٢٧٤ هـ ) .
الدينورى : ( ٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م ) الأخبار الطوال ( ليدن ١٨٨٨ ) .
ابن رسته : ( حوالى ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م ) الأعلاق النفيسة ( ليدن ١٨٩١ ) .
زكى محمد حسن : الدكتور : فنون الاسلام ( القاهرة ١٩٤٨ ) .
ابن سعد : ( ٢٣٠ هـ ) الطبقات الكبرى ( ليدن ١٣٢٢ هـ ) .
ابن سلمة : ( ٣٩٠ هـ ) كتاب الملاهى ، منشور فى كتاب الموسيقى العراقية لعباس العزاوى ( بغداد ١٩٥١ ) .
سهير القلماوى : الدكتورة : أدب الخوارج فى العصر الأموى ( طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ) .
السيوطى : ( ١٩١١ = ١٦٠٥ م ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ( المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ ) .
سيدة اسماعيل كاشف : الدكتورة : مصر فى فجر الإسلام ( القاهرة ١٩٤٧ ) .
الشابشتى : ( + ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م ) الديارات ( مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥١ ) .
شكرى فيصل : الدكتور : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ( دار الكتاب العربى ١٩٥٢ ) .
الشهرستانى : ( ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م ) الملل والنحل ( مكتبة الحسين التجارية ، القاهرة ١٣٦٨ – ١٩٤٨ ) .
شوقى ضيف : الدكتور : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ( لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٥٢ ) .

الشيبانى : الجامع الصغير فى الفقه ، على هامش كتاب الخراج لأبى يوسف ( المطبعة الأميرية ، بولاق ١٣٠٢ هـ ) .
صالح أحمد العلى : الدكتور : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ( مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٣ ) .
ضياء الدين الريس : الدكتور : الخراج فى الدولة الاسلامية ( مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ) .
ابن طباطبا : ( ٧٠١ هـ ) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ( المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٠ هـ ) .
الطبرى : ( ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م ) تاريخ الأمم والملوك ( المطبعة الحسينية بالقاهرة ) .
عباس العزاوى : الموسيقى العراقية ( بغداد ١٣٧٠ – ١٩٥١ ) .
أبو عبيد : الأموال ( المطبعة التجارية ، القاهرة ١٣٥٣ هـ ) .
عبد الجواد الكليدار : الدكتور : تاريخ كربلاء وحائر الحسين ( مطبعة المعارف بغداد ١٣٦٨ هـ ) .
ابن عبد الحكم : ( ٢١٤ هـ ) سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز ( المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٢٧ ) .
عبد الحميد أحمد أبو سليمان : نظرية الاسلام الاقتصادية ( القاهرة ١٩٦٠ ) .
عبد الحميد العيادى : صور من التاريخ الاسلامى ( الاسكندرية ١٩٤٨ ) .
ابن عبد ربه : ( ٤٢٩ هـ ) العقد الفريد ( لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ ) .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ( المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠ ) .
ابن العربى : ( ٥٤٣ هـ ) العواصم من القواصم ( المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧١ هـ ) .
عبد العزيز الدورى : الدكتور : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ( مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٩ ) .

– تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ( مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٨ ) .
عبد العزيز مهنا : البطالة ( القاهرة ، الطبعة الأولى ) .
ابن عساكر : ( ٥٧١ هـ ) تهذيب التاريخ الكبير ( دمشق ١٣٣٢ هـ ) .
على حسنى الخربوطلى : الدكتور :
– تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى ( دار المعارف ١٩٥٩ ) .
– الاسلام فى حوض البحر المتوسط ( بيروت ١٩٧١ ) .
الرسول فى المدينة ( طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ) .
– المستشرقون والتاريخ الاسلامى (طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية).
– الاسلام وأهل الذمة ( طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ) .
– الدولة العربية الاسلامية ( الحلبى بالقاهرة ١٩٦٠ ) .
– حياة محمد : ترجمة لكتاب واشنجتن ارفنج ( دار المعارف ١٩٦٠ ) .
– حضارة الاسلام : ترجمة لكتاب خودابخش ( بيروت ١٩٧١ ) .
– الاسلام والخلافة ( بيروت ١٩٧٠ ) .
عمر أبو النصر : الحضارة الأموية العربية فى دمشق ( بيروت ١٩٤٨ ) .
عمر فروخ : شعراء البلاط الأموى ( بيروت ١٩٤٣ ) .
العمرى : ( ٧٤٩ هـ ) مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار ( القاهرة ١٩٢٤ ) .
فايد العمروسى : الجوارى المغنيات ( دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٥ ) .
أبو الفدا : ( ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م ) المختصر فى أخبار البشر ( المطبعة الحسينية ، القاهرة ) .
– تقويم البلدان ( طبعة وستنفلد ١٨٣٥ ) .
ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ( ليدن ١٣٠٢ = ١٨٨٥ ) .
القالى : الأمالى ، جزءان ( دار الكتب المصرية ١٣٤٤ – ١٩٢٦ ) .
ابن قتيبة : ( ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م ) الإمامة والسياسة جزءان ( الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ) .

المعارف ( المطبعة الاسلامية ١٩٣٥ ) .
عيون الأخبار ( دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ ) .
قدامه : ( ٣٣٧ هـ ) كتاب الخراج ( ليدن ١٨٩٨ ) .
القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ( بغداد ١٢٨٢ هـ ) .
القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ( طبعة وستنفلد ١٨٤٨ ) .
القلقشندى : ( ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م ) صبح الأعشى فى صناعة الانشا ( المطبعة الأميرية ١٣٢٣ — ١٩٥٤ ) .
القيروانى : ( ٤٥٣ هـ ) جمع الجواهر والملح والنوادر ( المطبعة الرحمانية ١٣٥٣ هـ ) .
ابن كثير : ( ٧٧٤ هـ ) البداية والنهاية ( مطبعة السعادة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ) .
كرد على : الاسلام والحضارة العربية ( مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٤ — ١٩٣٦ ) .
الكندى : ( ١٣٥٠ هـ = ١٩٦١ م ) كتاب الولاة وكتاب القضاة ( بيروت ١٩٠٨ )
الماوردى : ( ٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م ) الأحكام السلطانية ( مطبعة الوطن بالقاهرة ١٢٩٨ هـ ) .
المبرد : ( ٢٨٥ هـ ) الكامل ، جزئين ( مطبعة السعادة ١٣٤١ — ١٩٢٣ ) .
ابن المثنى : ( ٢٠٩ هـ ) النقائض بين جرير والفرزدق ، ٣ أجزاء ، ( المكتبة الحسينية ١٩٥٣ = ١٩٣٥ ) .
محمد جمال الدين سرور : الدكتور : قيام الدولة العربية الاسلامية ( القاهرة ١٩٥٦ ) .
— الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية ( القاهرة ١٩٦٠ ) .
— الحضارة الاسلامية فى الشرق ( القاهرة ) .
محمد حسين هيكل : الدكتور : حياة محمد ( القاهرة الطبعة الأولى ) .
محمد الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ( القاهرة ١٩٤٩ ) .

المدور : جميل نخلة : حضارة الاسلام فى دار الاسلام ( مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٣٢ ) .
المسعودى : ( ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ هـ ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ( طبعة دار الرجاء بالقاهرة ) .
– التنبيه والأشراف : ( مكتبة الشرق الاسلامية ١٣٥٧ = ١٩٣٨ ) .
مصطفى السباعى : الدكتور : اشتراكية الاسلام ( دمشق ، الطبعة الأولى ) .
المقدسى : ( ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م ) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ( ليدن ١٩٠٦ ) .
الملطى : ( ٣٧٧ هـ ) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ( مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ١٣٦٩ – ١٩٤٩ ) .
المودودى : أبو الأعلى : نظام الحياة فى الاسلام ( دار الفكر الاسلامى – دمشق ) .
– مسألة ملكية الأراضى فى الاسلام ( دار الفكر الاسلامى – دمشق ) .
– الربا ( دار الفكر الاسلامى – دمشق ) .
ابن النديم : الفهرست ، جزئين ( المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ ) .
ابن نشوان الحميرى : ( ٥٧٣ هـ ) شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين ( مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨ ) .
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ( مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣١ ) .
ابن هشام : ( ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م ) كتاب سيرة النبى ( القاهرة ١٣٥٦ م ) .
ياقوت : ( ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م ) معجم البلدان ( مطبعة السعادة ١٣٢٣ – ١٩٠٦ ) .
– المشترك وضعا والمفترق صقعا ( طبعة وستنفلد ، جوتنجن ١٨٤٨ ) .
اليعقوبى : ( ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م ) تاريخ اليعقوبى ، ثلاث أجزاء ( النجف ١٣٥٨ هـ ) .
كتاب البلدان ( ليدن ١٩٠٦ ) .

أبو يوسف : ( ١٩٢ هـ = ٨٠٧ - ٨٠٨ م ) كتاب الخراج ( المطبعة الأميرية ١٣٥٢ هـ ) .
يوسف رزق الله غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ( مطبعة الفرات ، بغداد ١٩٢٤ ) .

## ثانيا - مصادر أفرنجية مترجمة إلى اللغة العربية :

أرنولد : توماس و : « الدعوة إلى الاسلام » ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وآخرون ( القاهرة ١٩٤٧ ) .
- « الخلافة » ترجمة جميل معلى ( دار اليقظة العربية ١٩٤٦ ) .
بارتولد : ف : « تاريخ الحضارة الاسلامية » ، ترجمة حمزة طاهر ( القاهرة ١٩٤٢ ) .
بروكلمان : كارل : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى ( بيروت ١٩٤٨ ) .
بطلر : « فتح العرب لمصر » ترجمة فريد أبو حديد ( القاهرة - الطبعة الأولى ) .
ترتون : أ.س : « أهل الذمة فى الإسلام » ترجمة حسن حبشى ( القاهرة ١٩٤٩ ) .
جوزى : بندلى : « من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام » ( القدس ١٩٢٨ ) .
جولد تسهير : أجناس « العقيدة والشريعة فى الاسلام » ترجمة على حسن عبد القادر وآخرين ( القاهرة ١٩٤٦ ) .
حتى : الدكتور فيليب : « تاريخ العرب » ترجمة مبروك نافع ( القاهرة ١٩٥٣ ) .
خوذابخش : صلاح الدين « الحضارة الاسلامية » ترجمة الدكتور على حسنى الخربوطلى ( الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠ ، وبيروت ١٩٧٠ ) .
دوزى : ر . ب أ . « نظرات فى الاسلام » ترجمة كامل الكيلانى ( الحلبى ١٩٣٢ ) .

ديمومبين : موريس غودفرا : « النظم الاسلامية » ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر ( بغداد ١٩٥٢ ) .

رونلدسن : دوايت م : « عقيدة الشيعة » ترجمة ع . م . ( مطبعة السعادة ١٩٤٦ ) .

سيد أمير على : « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى » ترجمة رياض رأفت ( لجنة التأليف ١٩٣٨ ) .

سيد يو : ل . أ = « تاريخ العرب العام » ترجمة عادل زعيتر ( الحلبى ١٩٤٨ ) .

فان فلوتن : ج = « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » ترجمة الدكتور حسن ابراهيم ( القاهرة ١٩٤٥ ) .

كريمر : فون : « الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية » ترجمة الدكتور طه بدر ( دار الفكر العربى بالقاهرة ) .

لوبون : جوستاف : « حضارة العرب » ترجمة عادل زعيتر ( الحلبى ، القاهرة ١٩٤٨ ) .

ماسينيون : « خطط الكوفة » ترجمة المصعبى ( صيدا ١٩٣٩ ) .

مالك بن بنى : « شروط النهضة ومشكلات الحضارة » ، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى ( القاهرة ١٩٥٧ ) .

مولاى محمد على : « محمد رسول الله » ترجمة مصطفى فهمى ( القاهرة ١٩٤٥ ) .

يوهان فك : « العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » ترجمة الدكتور البخار ( طبعة جماعة الأزهر ) .

* * *

## ثالثا – المصادر الأفرنجية :

Brown (Edward G.) : Literary History of Persia, (London 1905).
Dozy, (R.P.A.) : Dictionnaire Détails des Noms des Vêtements chez les Arabes, (Amsterdam 1845).
Finaly (George) : History of the Byzantine Empire, (London 1856).
Gibb and Kramers : Sborter Encyclo Paedia of Islam, (Leiden 1953).
Hell (Joseph) : The Arab Civilization. (Lahore 1943).
Irving (Washington : A History of the Lives of the Successors of Mohammed (Paris 1850).
Khuda Buckhash : Contributions to the History of Islamic Civilization (Calcutta 1930).
Kremer (Alfred Von) : The Orient Under the Caliphs, Translated by Khuda Buckhsh (Calcutta 1920).
H. Lammens, (S.J.) : L'Islam Croyances et Institutions (Beyrouth 1926). Etudes Sur le Regne du Calife Omaiyade Moawia ler. Etudes Sur le Siècle des Omyyades (Beyrouth 1936) . Le Berceau de L'Islam.
Lane-Poole (Stanly) : Studies in a Mosque (London 1893) The Mohammadan Dynasties (Paris 1936).
Mawlana Mohamed Ali : Early Caliphate (Lahore 1933).
Muir (William Temple) : The Life of Mohamed (Edinburgh 1923). The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall ( London 1924).
Nicholson (A. Raynold) : A Literary History of the Arabs. (London 1923).
Noldke : Shetches from Eastern History, (London 1982).
Ockly (Simon) : The History of the Saracens (London 1947).
O'Leary (De Lacy) : Arabia before Mohamad (London 1927).
Perron : Femmes Arabes Avant et depuis L'Islamisme, (Paris 1898).
Queipo : Essia sur les Systèmes métriques et monétaires peuples (Paris 1895).
Shedd (W. Ambrose) : Islam and the Oriental Churches, (Philadelphia 1904).
Le Strange (Guy) : The Lands of the Eastern Caliphate, (Cambridge 1930).
Torry, C. C. : The Commercial Theological Terms in the Koran, (Leyden 1895).
Wellbausen : The Arab Kingdom and its Fall, (Calcutta 1927).

* * *

# المحتويـــات

رقم الصفحة

## الباب الأول

## حضارة السياسة والإدارة والقضاء والحرب

الباب الثانى | رقم الصفحة

## حضارة الاجتماع

## البـــاب الثالث

رقم الصفحة

## حضارة الاقتصاد

رقم الصفحة

## البـاب الرابـع

## حضارة التربية والتعليم والثقافة والفنون







